@ketab_n

22.9.2014

هاشم شفيق

بغداد السبعينات

الشعر والمقاهي والحانات

@ketab_n

هاشم شفيق

بغداد السبعينات

الشعر والمقاهي والحانات

@ketab_n

twitter: @ketab_n

بغداد السبعينات

twitter: @ketab_n

سيـرة

المؤلف: هـاشم شفيق
عنوان الكتاب: بغداد السبعينات
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٤

جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ (١) ٠٠٩٦١ - ٧٥٢٦١٧ (١) ٠٠٩٦١
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبونواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: info@almada-group.com
www.almada-group.com

لا يجوز نشر أيّ جزء من هذا الكتاب أوتخزين أيّ مادة بطريقة الاسترجاع، أونقله، على أيّ نحو، أوبأيّ طريقة سواء كانت الكترونيّة أوميكانيكيّة، أوبالتصوير، أوبالتسجيل أوخلاف ذلك، إلّا بموافقة كتابيّة من الناشر ومُقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-84306204

twitter: @ketab_n

سيرة أدبيّة

الى إيمان سعيد

رفيقة الرحلة والمشوار الطويل

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

الشعر والتجربة

ثمة شيء مسّني كشهاب صاعق وأنا في الرابعة عشرة، شيء هو خليط من التهويم والحلم، من السحر البدائي الشبيه بالفطرة وأغاني الطفولة، حين مسّني هذا الشيء الفتّان استسلمت له دون أنْ أعي سرّه، أو أسبر غوره، هذا الشيء الذي خلخل كياني الغضّ وأنا في الرابعة عشرة.

لا أعرف عن عالمه الكثير، ولا أفقه شيئاً إلا ألقه المنثور في الدرر الكلاسيكية التي ترقى إلى سلفنا الأول امرىء القيس، ومن تبعه من الشعراء الجاهليّين، والممسوسين اللاحقين من عهد الإسلام بعصريه الأموي والعباسي، حتى توالى المأخوذون بهذا الهُيام الذي اسمه الشعر، فغدوت عهد ذاك أنهل من أبيات مدفونة في كتب مثل "الف ليلة وليلة" و"يتيمة الدهر" وأشعار لأبي نُواس مطبوعة في كتيّبات شعبية ورخيصة، تشبه الكراريس المخصّصة للأدعية الدينية، حتى دلّتني هذه الأبيات المتناثرة إلى كتيّبات أخرى كنت أجدها إمّا امام المراقد الدينية، أو في بيت أختي، مثل دواوين بطبعات فقيرة غلافاً وورقاً وتصميماً لشعراء غالبيتهم من المتصوّفة الذين يسطّرون ما يتراءى لهم في وعيهم الباطني من تصوّرات

twitter: @ketab_n

وهُيامات حبّية متخيّلة، من تهجّدات ولواعج دفينة يصرّفونها في أبيات إشراقية تشي بالنوراني والعرفاني والهرمسي الذي يصل في توقه إلى المحبّة العظمى من العشق الإلهي الممزوج بطرق رمزية لافتة بالحب الأرضي ومناداة الحبيب، فمرّة تجده إلهياً وتارة تجده نبياً وأخرى بشرياً، فتختلط عليك الصورة لتضيع في حقل من التوريات والألغاز وشبكة من الدلالات والأسرار الداخلية.

كان الحلّاج وإبن عربي هما القطبان الأكثر قرباً من خيالي الشعري، ولكن هذين النافرين في الرؤى شدّاني إلى السهروردي القتيل والجُنيد وماني الموسوس وغيرهم مِمّن أصابهم مسّ عرفاني لا يوحي الا بالنور والشطحات العقليّة.

إذاً داخل هذه الذبذبة من سحر الكلمات ومعانيها العالية التي كنت أحاول فكّ طلاسمها، بدأ الشواش الشعري، يكهرب كياني ويغشاني ويهيمن على حركتي وطريقة تفكيري وشغل كل مساحة وعيي الطري، من هنا بدأت في قرزمة الشعر، تجارب كلامية، إيقاع متخلخل، شعر تقليدي، يتشبّه بمن كنت أقرأ لهم في بداياتي، لكنّ فيه شيئاً منّي، من نَفَسي، شيئاً من مشاعري وأحاسيسي، من لوعتي وفيه نبض كلاسيكي جاءني، مِمّن اطّلعت عليهم في مطالع حياتي في الرابعة عشرة، أحمد الصافي النجفي الذي كنت مولعاً بجملته الشعرية المكثّفة والواضحة والقصيرة، محسن الكاظمي المنفي في مصر ولا أعرف مصدر إعجابي بمنفاه، رغم أنني لم أكن أعي أسباب هذا المنفى، وثمّة شاعران آخران كنت اقرأهما مجتمعَين، هما الرصافي والزهاوي، لكأنّني كنت

twitter: @ketab_n

اقرأ لأخوين دون أن أدرك أنّهما قطبان متنافران ولا يلتقيان، هؤلاء الشعراء الذين أتيحت لي قراءتهم مصادفة لشيوعهم ووفرة كراريسهم في البيوتات البغدادية وأمام مراقد الأولياء حيث تباع مع الكتيِّبات الدينيّة، ومن بين هؤلاء استدللت إلى كراريس شعرية لجبران خليل جبران وأحمد شوقي وخليل مطران بالإضافة إلى كتيّبات للمتنبي والبحتري وعنترة وحسّان بن ثابت، شاعر النبي، ومن ثَمّ حين كبرت قليلاً رحت أقرأ أبا تمام وأبا العلاء وأبا نُواس قراءة عميقة ومنضبطة في دواوين مجلّدة وكبيرة، رافق هذه القراءات قراءة متمعّنة وتعليمية للعروض وللأوزان الخليلية، وحفظها ومن ثَمّ ممارستها عملياً وتطبيقياً، لكي أكون ملمّاً أمام رفاقي بالعلم العروضي، قرأت "ميزان الذهب" و"العروض الواضح" والكتاب الثاني هو الذي لفتني وعلّمني وكان للمؤلّف ممدوح حقّي. حيث كان يحدث دائماً جدلاً ونحن لم نزل فتياناً حول هذا البيت أو ذاك، وعن هذا البحر الموسيقي وغيره، وأين يقع الزِّحاف والجواز والكسر وغيرها من الأمور الوزنيّة التي كان الحديث فيها شائعاً وسارياً في المجالس العامة والمقاهي والدواوين وفي الحانات والمقاصف، جدل يصل أحيانا إلى حد الشجار والخصام والتشكّك بالعلم العروضي لدى فلان، حتى لو كانت قصيدته منتظمة صوتياً، بينما صاحبها ليس لديه علم وخبرة واطلاع في هذا الفن الذي يُعدّ جزءاً من الموهبة الشعرية، آنذاك، ويتعيّن على كل شاعر معرفته وسبر غور عالمه، إذ لا يستقيم للشاعر أن يكتب دون علم بهذا البناء الإيقاعي والموسيقي الذي ابتكره الخليل بن

twitter: @ketab_n

أحمد الفراهيدي، حين كان مارّاً بسوق الصفافير، أو النحاسين، الذي لم يزل قائماً حتى يومنا هذا في بغداد ويُعدّ معلماً لمن يهوَون اقتناء وشراء الأدوات والأواني النحاسيّة، علم العروض هذا، تكوّن من خمسة عشر بحراً، ولكن الأخفش الشاعر والعلّامة اللغوي أضاف له واحداً، هو بحر الخبب، الذي استنبطه من خبب الخيول ورنّتها الإيقاعية على الأرض، لتمسي البحور الشعرية ستة عشر بحراً.

حين تجاوزت سن المراهقة، واقتربت من العشرين، مِلْتُ إلى الشعر الحديث، وكان أقرب الشعراء إليّ، وأحبّهم إلى نفسي نزار قباني، فأقبلتُ عليه لأقرأ ما تيسّر لي من أشعاره الرهيفة، الناعمة، وكان خير مدخل لي، مدخل دلّني على الشفافية والرهافة والرقة، بيسر ومن دون موارية وعناء.

في تلك الأثناء انسقت إلى تأدية الخدمة العسكرية ـ الإلزامية، وشاءت الأقدار أن أكون في الصحراء قرب الحدود الأردنية ـ العراقية، وبالتحديد قرب "المفرق"، ومن هناك كنا نتسوّق معلّبات اللحوم والجبن والسمك والكعك والخبز الإفرنجي والحلويات والعرق الأردني الذي نفرّغه في قناني السِفن آب والتبغ الأردني، ماركة "ريم". جوّ الصحراء كان لا بدّ له من التبغ والشاي والشعر، ولهذا انكببت على قراءة أشعار نزار قباني الندية التي ستُطرّي وترذذ جوّ الصحارى ذاك، فداخل خيمة وسط العراء والقفار وعواء الذئاب في الليالي الشتائيّة، قرأت نزاراً، بين الفوانيس والمصابيح اليدويّة والمدافىء النفطيّة ومواقد الحطب،

twitter: @ketab_n

كان نزار قباني بالنسبة للجنود في تلك الشتاءات الحادّة والغريبة خير أنيس وكان الغذاء الروحي الطارد لوحشة الصحارى، كان الأنيس والسامر في ليالي السهاد والنأي، كنّا نحن الجنود يوم ذاك، نلتمّ تحت بطّانيات الصوف وبين شعشعة ضوء الشموع المتراقص في عتمة الليل والظلام السابغ، نقرأ تلك الأشعار العذبة التي تتحدّث عن علاقات الحب بين الفتى والفتاة، تتحدّث عن النساء المتواريات وراء الحيطان العالية، وراء الستائر الثقيلة والنوافذ الموصدة، تتحدَّث عن الفساتين والقمصان والعطور وعن الكلمات الملوّنة مثل القمر والياسمين والنجوم الفضيّة، وعَنْ التحرّق في الغرام وجوهر الروح الملتاعة، عن الأعماق البوّاحة، عن المطر والمقهى والعصافير والمرايا، أشياء توجز الحياة بقصيدة ناعمة وخلّابة، دون تهويل بلاغي، هذه الكلمات المائية كان الجنود يكتبونها إلى أهاليهم وحبيباتهم في رسائل وهم بعيدون عنهم في ظلام الصحارى. ولطالما جاءني الجند البسطاء والقرويّون القادمون من عمق القرى لتدبيج رسالة وملئها مما أعرفه من أشعار لنزار وغيره، وأحياناً كنت أمرِّر قصائد لي في هذه الرسائل، فهم لا يهمّهم لمن ينتسب هذا الكلام، لأن همَّهم الأساسي يكون مصوّباً نحو المعاني وما تحمله من شحنات موصلة، قادرة على ايصال شكوى البعاد والتحرّق إلى اللقاء.

وكما دلّني الشعراء الكلاسيكيّون الذين توفّرت عليهم، إلى شعراء مفلقين سبقوهم ونقلوني لأجول بين القرون الشعريّة وأزمنتها الطاعنة في فن الشعر، متنزِّهاً في وادي عبقر بين أعمدة

twitter: @ketab_n

الأولمب والمعلّقات الجاهلية لطرفة بن العبد والحارث اليشكري ولبيد و زهير بن أبي سلمى، أنقّل خطوي من شاعر ظريف إلى آخر لص، من شاعر مكدٍّ إلى ثانٍ قاطع طريق، من شاعر أمير كامرىء القيس إلى شاعر عدّاء ومتعايش مع الضواري مثل الأحيمر السعدي، كذلك نقلني نزار قبّاني إلى شعراء حديثين سبقوه وهم عراقيّون مثلي وهم مكتشفو الشعر الحديث، سبقوه في الريادة إلى التجديد وفي إرساء معالم القصيدة الحديثة، لأقرأ البياتي والسيّاب وبلند الحيدري ونازك الملائكة، الأربعة مجتمعين كونهم مَنْ دعا وحمل راية التغيير والحداثة في نهاية الأربعينات من القرن الفائت.

في هذه المرحلة وبعد أن أنهيت خدمتي العسكريّة وجدت داخلي يفور بالشعر، وليس ثمة مَنْ أقرأ له ما أسطّره من أشعار، هل ما أكتبه هو بمستوى القول الشعري؟ وتُرى من سيُقَيّم هذا القول؟ أسئلة كثيرة كانت تواجهني وتبحث عن إجابة، وأنا في هذا المعترك النفسي من الأسئلة اهتديت إلى الجواب الذي وجدته عندما دلّني صديق طفولتي على شخص قال أنّه يكتب الشعر وهو موجود في منطقتنا والزقاق الذي يسكن فيه لم يكن بعيداً عن زقاقنا سوى بضعة أمتار، فذهبت اليه في الحال، انه زاهر الجيزاني الذي عرّفني في الحال على شاعر آخر، يسكن المنطقة ذاتها التي نحن نقيم فيها ومنزله يقع خلف منزل زاهر الجيزاني، إنه خليل الأسدي، هذان الشاعران كانا شاعرين موهوبين، قديرين وملفتين منذ لقائي الأوّل بهما، وهما مثلي مشغولان بالشعر وكان همّهما الأساسي، فصرنا ثلاثة نحيا وننام على رنين القوافي، حديث

twitter: @ketab_n

متواصل ويومي ولا ينتهي عن الشعر، كان كلاهما يكتب القصيدة الكلاسيكية، بينما أنا كانت لديَّ محاولات محدودة في الشعر الحديث، وما أكتبه من شعر كلاسيكي لم يعد يعجبني، حين التحمنا شرعنا بكتابة الشعر الحديث، كل حسب نظرته ورؤيته للحياة ولهذا الفن الجديد.

كنّا إذاً فتية وفي الخطوات الأولى على سلَّم صعب المرتقى ولا نعرف إلى أين سيؤدّي بنا ونحن نحمل نار الشعر المندلع في أعماقنا، من هنا كان لقاؤنا لقاءً يومياً، في حيّنا المتواضع، حيّ شعبي ولكنَّ تاريخ موقعه يعود إلى سبعة آلاف عام، وهومن مخلّفات الحقبة الأكديّة، هذا المكان اسمه "تل محمّد" وهو من أعمال بغداد الجديدة، الضاحية الحديثة لبغداد، وحين كان يضيق علينا هذا الحيّ كنا ننطلق آنذاك في مسيرات طويلة تبدأ من بغداد الجديدة لتنتهي في أعماق العاصمة الكبيرة بغداد، ذات الأحياء والأزقّة والشوارع والطرقات المتشعّبة، القراءة كانت هاجسنا الأول، فبدأنا نقرأ لنتطوَّر، لنتعمّق في معنى الشعر والوجود، وخلال قراءاتنا الشعريّة اكتشفنا شعراء جدداً حديثين ويعدّون رموز الحداثة في الشعر العربي الذي ينادي بالتحوّل والتجاوز والتغيير، وعلى رأسهم كان أدونيس وصلاح عبد الصبور وسعدي يوسف ويوسف الخال ومحمد الماغوط.

ثم تشعّبت لقاءاتنا وتعدّت الشعر لنقرأ لروّاد الفلسفة الوجودية، قرأنا "الغريب" و"الطاعون" و"كاليغولا " لألبير كامو و"الجدار" و"الغثيان" و"الوجود والعدم" لجان بول سارتر و"قوة

twitter: @ketab_n

الأشياء" لسيمون دي بوفوار، و"المنتمي" و"اللا منتمي" و"حي سوهو" لكولن ولسن وسواهم من المنطقيِّين والفلاسفة مثل هيغل وديكارت وماركس، كتب تتحدَّث عن الوجود وعدمه، عن المطلق والميتافيزيق والمادة والمجهول وعن الكائن البشري ومعاناته في الحياة، نقرأ وأحياناً لا نفهم الفحوى بشكل كامل لصغر السن والتجربة البدائية بالقراءة، ولكن الجدل كان مستعراً بيننا وبين رفاق آخرين مثلنا وجدناهم في بغداد من أدباء وفنانين وكتّاب ورسّامين. جدل يصل إلى حدّ المهاترة والرهان والتحدّي، على رأي ما، على فكرة لم تُستوعَب جيداً، على سطر غير مفهوم، على تحليل خاطىء، وهكذا دواليك على مدار الساعة.

كنّا إذاً شبه مجانين، عدميّين، نقضي الأوقات في تقصّي الجديد والغريب والمثير، ونعيش حياة بوهيميّة، نريد من خلالها أن نلتهم العالم دفعة واحدة، عبر قراءات طويلة، في مكتبات مثل "المهلّب بن أبي صفرة" و"الخلّاني" و"الدار الوطنيّة"، فأنا قرأت على سبيل المثال جميع الذين سبقوني، الجيّد والرديء، أسماء شعريّة لا تخطر على بال أحد حين أتذكّرها الآن، حين كنا نكتب شعراً دون أن ننشره، ونسعى في هذه الأثناء في البحث عن منافذ لتمرير ما نكتب، بينما في الحقيقة أنَّ ما كنّا نكتبه لم يكن سوى تدريب على الجمال وتمرينات على الموسيقى ومحاولات في العثور على الفن فيما نكتبه، تنويعات من أجل الاقتراب من المحراب الذي يسكن فيه أبولو، كنّا في الحقيقة نتسكّع بالقرب من أعمدة الأولمب، محاولين الدخول لرؤية الشعلة الأزليّة وهي تضيء الكون

twitter: @ketab_n

وهي في يد أبولو، تلك التي تلقّاها من يد برومثيوس سرّاً، ونأى مضاءً بالنور السرمدي، ليجلس في البانتيون وهو يراقب حركة الخلق والفن والجمال الصيرورة الأبدية كيف تتحوَّل على يد الخلّاقين والمبدعين لتصير فناً يسند معنى الوجود، ويغيّر من طابع الحياة اليوميّة.

في هذه الفترة من مطلع السبعينات ونحن في خضمِّ القراءة، تتقاذفنا تيّارات من الحروف وأمواج متنوِّعة من السطور، عثرنا على الشاعر الذي سيقلب حياتنا رأساً على عقب، وسيزيد الطين بلّة، وسيجعل من سيرتنا في الحياة والمجتمع غير مقبولة، لتحوم حولها الشبهات، طارحة علامات من التساؤل الممزوج بأجواء الشكّ والريبة والدهشة ممّا يصدر عنّا من حركات وأفعال وسلوك، من تغريب وتشويش وإهمال وعدم مبالاة في السيرة اليوميّة لحركتنا وتجوالنا وعملنا، الشكل الغريب في تسريحة الشَّعر، الميل لارتداء الملابس الغريبة، التحدّث بأسماء لا يعرفها العامة من الناس، السهر الليلي، التدخين وتعاطي الشراب باكراً، حمل الكتب في يدينا، السهوم والتأمّل والشرود في الأفق والتفكّر في حال الدنيا، هذا كلّه وقع علينا حين قرأنا كتيّباً بعنوان " قصة شاعر متشرّد " وهوعبارة عن سيرة شخصيّة، نادرة وملهمة وصادمة مكتوبة عن حياة الشاعر الفرنسي جان آرثر رامبو، بترجمة السوري صدقي اسماعيل.

لقد أسرني رامبو بفيض "إشراقاته" وقادني إلى بحر النشوة عبر "مركبه السكران" كنت ثملاً بالضوء والرغبة وأنا أتهادى

twitter: @ketab_n

في رحلة لا أعرف شاطئاً لها ولا فصلاً، أهو شاطىء العدم، أم هو "فصل في الجحيم"؟ لقد كان جحيم التمرّد هو أمثل خيار لي من نعيم القناعة، لقد منحني رامبو لذّة في التمرّد، ووهبني رجّة في الحواس ومتعة في التشرّد لاجتياز المخاطر والصعاب والمراقي العالية، من خلال رامبو اخترت الأصعب والمرّ والشائك، لأكون جديراً بعبور الطرق الوعرة، من هنا تقلّبتْ حياتي دون مستقر، دون ثبات في مكان... ألم يقل رامبو "الحياة هي في مكان آخر" بهذا أصبح الرحيل هاجسي، فرحلت أبحث عن السرّ، ولكن عبثاً أجد السرّ وهو منثور في رحم العالم.

في سياق هذا الجنون الخلّاب، المدفوع بهالة سرّية، لن أنسى ذلك اليوم الذي جعلني أتخلّى عن وظيفتي في "دار الحريّة للطباعة" " التابعة لوزارة الثقافة، لأمضي هائماً نحو نداء هيام، أشعل في أعماقي ناراً غريبة المذاق، اكتسحَتْ مخيّلتي وكياني، لتدفع شواظ لهبها بي نحو باريس، ناشداً التخلّص من الأغلال الاجتماعية، باحثاً عن كينونتي في فضاء حرّ، غير مغلول ومقيَّد.

في باريس تلقَّفتني الأرصفة مباشرة، ثم المقاهي والحانات، كنت ضالاً، متسكّعاً وشريداً، متسقّطاً خطى رامبو هنا وهناك، لاجئاً إلى بيت فرلين المدفون بين دكاكين الخضار وروائح الفاكهة، نائماً في محطات المترو، جائعاً، ذاهلاً، أو آوياً إلى غرف الخادمات المجرّدة من أبسط وسائل العيش والسكن، عاثراً بطريق المصادفات على حيِّز صغير، ليضمّني وبعض الأصدقاء الضالين من أمثالي.

في الحقيقة، كانت تلك الأيام تُعدّ ضياعاً مثالياً لشاعر

twitter: @ketab_n

باحث عن هيام مفقود وفراديس مرتجلة، في مناخ بوهيمي، لا يشي إلا بالعدم والحيرة والقلق، حيرة أن تكون وحيداً أنت والشعر في زوايا السان ميشيل وجادة السان جرمان دي بْرِيْه ومقاهي جامعة السوربون وحدائق اللوكسمبورغ وجادة الشانزليزيه الطويلة ذات الأزقّة المتفرِّعة والعديدة حتى قوس النصر، ورصيف نهر السين صعوداً تجاه برج ايفل والجسور المزيّنة بقناديل كبيرة وأسود ومنحوتات حجريّة وبرونزية، ناهيك عن أقواس نابليون وقصور لويس السادس عشر وصالات ومتاحف الفنّ الصغيرة والكبيرة وقاعات الموسيقى الفارهة ذات الأبهاء والأروقة، ومبنى "البانتيون" المعروف بمقبرة العظماء ودور النشر العملاقة، وساحة الكونكورد، ومن ثَمّ محطات الأوسترليز والغاردنور، من دون أن ننسى الجادات المؤدية إلى متحف اللوفر تتبعها الشوارع الخلفية لسان دوني وموقع المركز الثقافي المعروف بجورج بومبيدو، من دون أن نستثني الموقع الهام المونتمارتر الذي لطالما كنت أتردّد عليه مارّاً في طريقي بالطاحونة الحمراء والكافيه روج، متذكّراً من خلالها الرسّام تولوز لوتريك وغانيات الحان وبائعات الهوى الملوّنات بالبهجة والشغف من أوقات لوتريك وأصدقائه من الفنانين المجانين أصحاب الحظوة الفنية .

عندما أستعيد أجزاء وشذرات قليلة من سطور تلك الأسطورة الواقعية، أحسّ برعشة مخدِّرة، تنتاب كياني، رعشة دفيئة، يخالطها حنين أليف لتلك الأيّام، أيام تفَقّد السرّ والجري وراءه دون جدوى، دون العثور عليه، قد يكون السرّ هو هذه

twitter: @ketab_n

الغيمة السكريَّة، هذا الكون الغامض، هذه الحياة والنعمة البشرية، وهذا الوجود المرقّش بملايين الأشياء، وربما السرّ قد تجده يكمن في الآخر، إذاً فلتكن "الأنا هي الآخر" كما قال رامبو الرائي الذي قادنا إلى الاحتراق بنار الشعر، عبر البحث عن الآخر، عبر إلغاء حاسّة المكان بغية اكتشاف عوالم جديدة، عبر تماهي الذات في ذات ثانية، من أجل اكتشاف الأعماق السريّة في الإنسان البعيد، لتضييع المكان الأوّل في أماكن مستحدثة، صنعتها اللذة العقلية وجنونها المتخيَّل بغية استهداف جوهر مغاير وعالم مختلف، هذا الاختلاف جسّده رامبو في عبوره الجليل من شارل فيل، مهبط الثلج ومستودع البرد إلى الوهاد السمراء في عدن وبحرها المتوهِّج تحت شمس ضارية وحرارة تحرق التراب والصخور، إذاً رامبو هذا الطفل الكبير، سعى إلى هذا الاحتراق سعى أن يظل ذلك المشاكس ـ المجازف، وتلك القدم العابرة للقارات، ولعلّ هذا العابر أراد بطفولته أن يعثر على الأبدية وقد عثر عليها بتعبير الشاعر الفرنسي بول كلوديل، لقد سعى رامبو بمفرده إلى المطهر بغرض الفوز بالتنقية الروحية، حيث كشف كلّ حواسه لتغتسل بشلال الأنوار المندفع من مواقع مجهولة المصدر، ولذلك راح يلعب هذا الطفل الكبير بمشاعرنا، ساخراً، ضاحكاً، هازئاً بالرخاء المؤقَّت والطمأنينة الأرضية والملذّات السريعة، مستهيناً بالذهنية الكسولة والقوافي المتراخية والبليدة، لشعراء عصره وممَّن سبقوه، كان رامبو نقيضاً للثابت والمؤسَّس، لقد أشاع في الكتابة نهج الخراب الجميل، وهذا الوصف أورده نهرو لأندريه مالرو بُعَيْد استقلال الهند عن بريطانيا العظمى.

twitter: @ketab_n

من هنا بات رامبو الرائي الأوَّل الذي أبدل لدينا وظائف المشاعر والأحاسيس والحواس، ليعطينا وظائف أخرى جديدة، فأضحينا معه نشمّ بالعين ونرى بالأصابع.. ووجدنا أنفسنا نرى الحروف ألواناً واكتشفنا فيما بعد من خلال رحلته في حقول اللاوعي، أنَّ تحت الأرض ارضاً اخرى، وأن تحت البحر بحراً ساحراً هو غير هذا المعلن والمكشوف، صرنا نؤمن بأنَّ كنوز العقل الباطن هي كنوز خيالية، لا يمكن أن يقدّرها ميزان الجمال ويزن شعاعها الباهظ، كيف لنا أن نزن الشعاع ونروز ثمن الضياء من شهاب ساقط ؟ وهل يمكن لنا جمع ندى الألماس في قدح ذهبي لنتبيّن كمّية عرقه المتفصّد بين الصخور؟ حياة رامبو هي حياة شهاب أضاء الأبدية ومضى مسرعاً عبر دهاليز الأكوان، عبر طفولة كلّنا نتمنّاها ونتملّاها ونسترجعها نتفاً قصداً، ولكنّنا مهما حاولنا سنبقى قاصرين عن بلوغ حالة الطفل الكبير، فتلك حالة خاصة تختصّ بعبقريات نادرة، فريدة وخالدة .

قضى رامبو حياته حالماً بإنسان جديد ومدن جديدة وعصر جديد خالٍ من البغضاء والكراهية والأنانية وحلمه هذا كلّفه كثيراً في دأبه المثير من أجل الحصول على الحرية، مقتفياً في ذلك أثر الطبيعة كمسّاح ديموغرافي، باحثاً عن الأسطورة في ثنايا الأحفوريات، ومن هنا وجد في الطبيعة ضالته الكبرى، هرباً من طبيعة الحياة الآلية، هرباً من البشاعة باتجاه الجمال، هرباً من الظلام والصقيع، باتجاه فجر صيفي، هرباً من الخريف الدائم باتجاه ربيع طويل،... لقد ولد رامبو حالماً وعاش حرّاً، ومضى كشهاب ساقط في حضن الأبدية.

twitter: @ketab_n

في تلك الآونة الزمنية من مطلع السبعينات، كانت بغداد طفلة نائمة فوق الحشائش والثيّل والعشب المندّى، مغمورة بالمياه والحكايات والنوادر والأساطير السحرية المحفورة فوق أبوابها التاريخية، تدل القادمين إليها والقاطنين فيها إلى جلالها الباذخ الذي تتحدّث به الملحمة والحكمة والقصيدة والألوان، في الحقيقة هي كانت طفلة، تتكشّف عن جمال آسر وروح مترعة بالمرح والأضواء... أمّا نحن أبناء تلك الآونة، فكان يحلو لنا أن نوقظ الطفلة من نومها الساحر الحالم بالمستحيل لكي نلعب معها بين المياه والأنوار، كنا نحن المشاكسين نجرّها إلى الطرقات والأزقّة، لتدلّنا على خفاياها وثمائنها الفريدة المخبّأة بين دروبها القديمة، ذات الشناشيل والقلل والسطوح المفتوحة على بعضها والشبابيك المتماسّة مع شبابيك وأبواب الجيران، هي كانت تركض ونحن نلهو بأذيالها، نلملم حواشي ثوبها المزخرف الهفهاف في هواء المساءات والصباحات، وكلّما اكتشفنا طريقاً قالت: هذا شريان آخر، كنت أخفيه عنكم، نسألها: أهناك شرايين أخرى غير مكتشفة؟ كانت تقول : بلى، هناك أشياء مستورة وخبيئة، سرّية لا تكتشف بسهولة، ولا تُعرف إلّا ببصيرة نادرة، قادرة على سبر الأغوار، وحساسية مرهفة وعليمة بالخوافي بإمكانها إدراك القواصي والداني، لكي يسهل الولوج إلى سرّ من نبع أسراري الدفينة، كنّا نعجب ونقول إنّها بئر نرجس معجب بجمال نفسه، ولكنّنا كنّا مخطئين لأنها كانت سرّ الأسرار وأمثولة تاريخية لا تضاهى.

twitter: @ketab_n

إذاً داخل هذا السر الذهبي وهذا الحضن الحالم نشأنا، فانضمَّ إلى فريقنا الثلاثي خليل الأسدي وزاهر الجيزاني وأنا رابعٌ هو سامي عبد الجبار، فشببنا نحن الأربعة شعراء في مطلع العشرين، نخطو باتجاه حلم سرمدي، هاجسه الشعر، في بلد ولدتْ فيه أول قصيدة في العالم، ولدت على أرضه العذبة والمُعذّبة، في أرض الأساطير والحكايات والحضارات القديمة.

كان الشعر في تلك الآونة الذهبيَّة، هو زادنا اليومي، بغداد كانت معنا على الدوام، كانت تقول اقرأوا جيّداً، كي تعرفوني جيّداً، ولهذا انطلقنا في ماراثون القراءة فيما بيننا، بملابسنا الغريبة وشعورنا الطويلة، بوهيميِّين، عدميِّين، محبوبين ومنبوذين، شتّامين ومشتومين، كنّا نجسِّد الشعر الملعون والناس تتهامس من حولنا إنّهم الشعراء الملاعين، مرذولون، يبحثون عن الرذيلة والغرائبي، وأين؟ في الباب الشرقي، في باب المعظَّم، في شارع أبي نواس والرشيد والسعدون وشوارع الكرادة، وحيّ الميدان والفضل وعقد النصارى وحافظ القاضي وجديد حسن باشا، وسوق الهرج وسوق الشواكة والغزل والشورجة، ودروب الرحمانية حيث قبر الحلّاج والجُنَيْد، وفي شارع الشيخ عمر السهروردي وصحن المتصوِّف الكبير عبد القادر الكيلاني ومنائره دائمة الإضاءة حيث حلقات الدراويش وضاربي السكين وقارئي البخت والطالع والمستقبل المخبوء والغد الآتي.

بعد أن قرأنا رامبو الهاذي بالتحوّلات، قرأنا إلى جانبه مايكوفسكي المنتحر ويسينين المنتحر وفرجينيا وولف المنتحرة

twitter: @ketab_n

بكتاب "الأمواج" وأراغون وانتحاره الرمزي في قعر عيون إلزا وبريتون المنفي في المكسيك أيام الحرب الثانية، ولوركا المقتول غيلة على يد الفاشست وقصائد لغيفارا وماوتسي تونغ وهوشي منه بترجمة سركون بولص، أحببنا عوالم جاك بريفير وهو يعدّ لويس السادس عشر على أصابعه إلى العشرين، وصخب وجنون انطوانان آرتووهَوَس إيلوار بالحرية وشغف هايدغر بهولدرلن وريلكه بالنساء الغنيّات وسان جون بيرس بالبحر وأندريه جيد بقوت الأرض والسمفونية الرعوية وكافكا بغريغوري سامسا وتحوّلاته اللابشرية، وشغف إليوت بالمعادل الموضوعي وبإخراج القصيدة من باروكيّتها إلى حيِّز التفاصيل اليوميّة، المبنيَّة بطريقة تداخل الأزمنة والحوادث والتحوّلات المعاصرة في أرضه الخراب، وتصوُّر ويتمان للتحرّر في خلطته من أوراق العشب، وكشف طبقات من تيار اللاوعي في الصخب والعنف لوليام فوكنر والتصوّر الطفولي واللعب الساحر بالكلمات لدى انطوان إكزوبري وخصوصاً في رائعته "الأمير الصغير"، وقرأنا ديكارت وشكه الدائم، وحين كنّا نقرأ الفلسفة ولا نفهم ما يقول الفلاسفة نتجادل حتّى يصل الجدل إلى حالة من الصراخ والعراك فيما بيننا والناس يتهامسون من حولنا، إنّهم ثلة من الموتورين والمجانين والشيوعيين والتائهين في الشوارع- إنّهم أولاد شوارع ، كما نعتنا قصاب يبيع اللحوم عندما رآنا نشرب الكحول في المقهى بطاسة الماء التابعة للمقهى، فطردنا من المقهى بعد أن شهر سكينه الطويلة في أوجهنا، فولّينا هاربين لنستبدله بمقهى آخر وفي الحي ذاته من أحياء الكرادة.

twitter: @ketab_n

وعندما أصابتنا لوثة السفر التي خلّفتها القراءات وشرقط العقل باتجاه المجاهل ولكي تكتمل العدّة الشعريّة دون نقصان، أخذنا ننفرط لندخل متاهة الرحيل، وكالعادة بدأ السفر بالذي هو أكبر منا، حيث ارتحل زاهر الجيزاني إلى فيينّا عبر رحلة متعبة وشاقة وقلقة أوصلته إلى هناك ليعيش ليالي البؤس في فيينّا، وارتحل سامي عبد الجبار، الذي سينقطع عن كتابة الشعر فيما بعد، إلى اليونان ليعمل وقّاداً على ظهر سفينة متجوّلة عبر موانىء العالم، وأنا إلى باريس كما سلفت الإشارة في موضع سابق، وخليل الأسدي قدَّم أوراقه لاستحصال جواز سفر ولكن اسمه كان في قائمة الممنوعين، فقوبل طلبه بالرفض، رغم محاولاته الكثيرة في رفع المنع ولكنَّها كانت بلا طائل بسبب عمله حينذاك في صحيفة شيوعيّة، ليظلّ خليل في بغداد شاهداً على تتالي الخراب الذي سيحصل لاحقاً، نحن أيضاً لم نواصل المسيرة، لأنَّ الطريق بدا لنا طويلاً ومليئا بالعثرات والعوائق والمشاكل التي لم نعها كوننا بعيدين عنها فعدنا أدراجنا ناكصين إلى بغداد، بعد أن جرّبنا الأحلام الرومانتيكيّة للشعراء، ولكنَّنا سرعان ما عاودنا الرحيل مرّة ثانية بعد أن تدهورت الأوضاع السياسية في بغداد وصعود الديكتاتورية والرموز الفاشيّة وقيام الحروب، فغادرت أنا باكراً نهاية السبعينات من القرن المنصرم مرة ثانية إلى باريس وسامي عبد الجبار في الثمانينات إلى نيوزيلاندا وزاهر الجيزاني في منتصف التسعينات إلى أميركا وخليل الأسدي بقي كما هو في بغداد حارساً للحروب والخراب، وفاقداً في حرب الخليج الأولى

twitter: @ketab_n

الحركة في ذراعه اليسرى جرّاء إصابة بليغة حصل عليها في الجبهة الحربيّة بين العراق وايران، ولولا يده اليمنى لمات خليل الأسدي من الجوع، في بلد لم يُعِرْ أية أهميّة لمبدعيه من الشعراء والكتّاب والفنانين، يده اليمنى هي معينه في كتابة الشعر ومعينه في عمله اليومي مصحّح بروفات في الصحف العراقية .

twitter: @ketab_n

الشعر والبحر

لكلِّ مدينة ذاكرة، هي بمثابة الدعامة التي تستند عليها أيّة مدينة في العالم، فالمدن الفاقدة للذاكرة، هي ليست سوى خرائب أو مجرَّد خرائط و لم تُبْن بعد وتخرج من بين يدي معماري ومهندس، فالمدينة الناجزة هي ذاكرة مفتوحة على تواريخ وأزمنة وأحداث وفصول حياة أُترِعَتْ ذات يوم بشخصيات وخطوب وحوادث، وأُفْعِمت بانتصارات وتحوّلات شملت جميع بناها الثقافية والاجتماعية والسياسية، بحيث عزّزت من مكانتها التاريخية لتغدو هي الحياة والعالـم، هي الكون لصفاء ذاكرتها وامتلائها بالقضايا اليوميّة والميثولوجيّة ذات الآماد البعيدة الموغلة في التكوّن الأوّلي للأسطورة ولتكوّن نور الأبجدية التي ستقف وقفتها الأبدية أمام الحضارات والأزمنة المعاصرة.

لكلِّ مدينة ذاكرة، وكذلك روائح وطبائع وعادات، بعض المدن كالنساء تنطوي على عوامل الغموض الشفّاف والجهر بالفتنة والإغواء والغُنج الظاهر والمستخفي وعوامل أخرى من السحر غير المنظور لا تُكتشف بسهولة للذي يسعى في المحاولة، فسحر النساء لا يظهر في الوجوه فقط، إنّما هو متوغّل في طبقات سفلى من دواخلهنّ الإنسانية.

twitter: @ketab_n

إذاً لكل مدينة ذاكرة ومن الصعب تغيير آليات عمل هذه الذاكرة، في محاولة لفصلها عن سياقها التاريخي مع الروح، روح الأشياء والإنسان والزمن، لا يمكن هدم مدينة في محاولة لإتلاف تفاصيلها وشلّ ذاكرتها الكرونولوجية الممتدَّة في تراب الأساطير، والضاربة في عمق البدايات الأولى للحضارة البشرية، وخير مثال على ذلك هولاكو وبغداد ذات البعد التاريخي.

لقد وفَّر هولاكو ذبحاً للمدينة وهيّأ موتاً وطقوساً وأدوات تغييب، جلبها معه لغرض تكفينها ودفنها تحت طبقات لا تحصى من حقد الطغاة.

لقد حاول ويحاول طغاة كثيرون على الأرض، محو ذاكرة المدن بشتى الوسائل التي يتيحها تاريخهم المؤقَّت لهم، بتغيير إيقاعها وشلّ نبضها وحركة أنفاسها ومحاولات مَحْوِ ليلها ولياليها وصبحها وضحاها، وكل ذلك يتمّ على أيدي سلسلة من اللصوص والمرتزقة والجلّادين وعيّنات من المخبرين الذين يرتبطون بأجهزة القمع والقتل والإبادة البشريَّة.

لذا بغداد تعرَّضت إلى لمحاولات لطمسها وطمس تاريخها ومَحْوِ ذاكرتها ولكنَّها كانت تعاود النهوض مرّة أخرى، متحدِّية، واقفة في وجه الجانحات، وبيروت كانت كذلك، تعرَّضت للتنكيل والهدم أكثر من مرة وهي الآن تنفض عنها رماد الحروب وغبائر الخرائب لتقف بكلّ جلال متجاوزة محنها الكثيرة والخراب الذي طاولها غير مرة، وحاول ثني انطلاقتها الجمالية والحضارية ولكنَّها أبت أن تركع لمن كان يحاول بطلّته الظلامية أن

twitter: @ketab_n

يطفىء وجنتها اللامعة، بيروت الذكريات، بيروت الإنارة والتفتّح والمدنيّة، بيروت البحر والكتاب وسحر الموجة الضاربة طرف المقهى، القمر الجالس بأبّهة على صخرة الروشة، لبنان الأرزة الطالعة في الثلج والصنوبر الحاني على المرتقيات والمرتفعات والسهب والضباب الحريري المتماوج والسائل كالفضة في طرقات الجبل.

كيف نصف البحر الطالع في بيروت مثل حورية تمشّط شعرها أمام مرآة هي الشمس الرئيفة، بيروت القديمة لا يمكن أن تُمحى من الذاكرة، بأسواقها الناعسة المغرقة بالفيء والظلال، كسوق الطويلة وسرسق وإياس وساحة النجمة والبرج ورياض الصلح، وشوارع المعرض والزيتونة والحمراء، والروشة ودور السينما، الحمراء والبيكاديللي والسارولا وسلوى ومقهى داوود والمختار ودبيبو ونصر والأكسبريس والدولتشي فيتا، والويمبي والمودكا والكافيه دوباريه، والهورس شو، كيف أصف بيروت يوم زيارتي الأولى لها، يوم كنت فتى في الرابعة والعشرين حين مسّني جنون جمالها وناداني لزيارتها، أجل أذكر ذلك اليوم من تموز العام ١٩٧٥، ساعة ذهبت من منطقة الصالحية في بغداد، وكان ذلك لحظة استحصالي على جواز سفر فدشّنته بخير مدينة، ركبت في نقليات " النيرن" الكبيرة، قاطعاً طريقاً صحراوياً طويلاً تجاه دمشق التي لها حديث آخر ليس هنا محلّه، لأمضي من هناك إلى بيروت، ناشداً الغرابة والحرية والغواية والكلمات الآسرة المطبوعة في كتاب، طالباً البحر بأقصى سرعة، فرؤيته في

twitter: @ketab_n

الحقيقة، كانت هدفي الأوّل من الزيارة، لكي أتمّم وصايا الشعر التي أُمْلِيَتْ عليّ، فكان لا بدّ من رؤية البحر والاتصال به ومعاينته عن قرب، وجسّ موجه عن حقّ بملامستي له والسباحة في ساحله لأستاف طعم الملح المتروك على الجلد كنثيث من الثلج، لأتذوّق الملوحة بلساني وأتحسس التيار والحصى الراكد في القاع، مداعباً إياه بأصابع قدمي وراسماً على الرمل خطاً طويلاً من سيري على رمله الذهبي، معرِّضاً جسدي للشمس النحاسية التي ألهبتْ مخيّلة الشعراء والفنانين والكتّاب بأبدع السطور والتعابير والحكايا والقصص السحرية، لكي أعود فيما بعد الزيارة إلى بغداد وسيصبح بإمكاني كتابة القصائد الشعرية عن البحر، لا مجرّد قراءته في الكتب الشعرية لسان جون بيرس ونيرودا وإيلوار، لا مجرد مطالعته في قصائد أدونيس ويوسف الخال وأنسي الحاج وخليل حاوي والماغوط، صار باستطاعة البحر أن يزور قصيدتي، هذه المرة سوف أرحّب بالكلمة، أفسح لها مجالاً لتجلس في الصدر من حيّز القصيدة، سأستقبل البحر إذاً في بيتي مثل أيّ شاعر في العالم، ولا أخشى لومة لائم، خصوصاً النقاد العراقيّين، ولا أنسى هنا ذلك اليوم الذي تحدّث فيه صديق شاعر عن البحر في قصيدته، يوم كنّا شبّاناً في بواكير حياتنا الأدبية، فلاقى الشاعر من الناقد النعوت الكبيرة التي انهالت عليه بعدم فهمه ومعرفته بأسرار البحر كونه لم يسافر في حياته خارج العراق، أي الشاعر و لم ير البحر في حياته فكيف تأتّى له أن يصف البحرفي قصيدة ؟ حين قرأ الشاعر الشاب نقد الناقد المعّد للتجريح بشاعريته وإمكاناته، حيث شهر

twitter: @ketab_n

مبضعه النقدي مشرّحاً القصيدة ومضفياً عليها أجواء عدم اكتمال التجربة ونقصانها والتطاول على البحر بإلصاق ملامح النكوص والتكاذب وانعدام الصدقيّة في التجربة الشعرية، بعد ذلك، ويا للطرافة من الشاعر الذي وقع ضحية المبضع النقدي والتشريح المغالى به للقصيدة، أعاد الشاعر الكرّة مرة أخرى في ذكر البحر، ولكن التوظيف الرمزي أتى مختلفاً في القصيدة بطريقة عجيبة، وتدعوالى الرثاء والدهشة من قدرة الشاعر على تكرار التجربة مرّة أخرى وإظهار محبّته للبحر بشكل ملتوٍ ومتحايل وخائف، محاولاً قدر الإمكان تجنّب الناقد والزوغان من قلمه ومن كلماته النارية، ومن الشرر الذي يرمي به إليه في كلّ هنة وزلّة وفجوة وخلل يراه الناقد في شعره، ولن أنسى ماحييت هذا المقطع من القصيدة الجديدة للشاعر المبضوع بعد أن تحدث عن البحر قائلاً هذه الجملة المعتذرة ضمنياً داخل القصيدة وعلى نحوٍ تبرز فيه فوبيا الشاعرمن الناقد المتربّص والملوّح بمبضعه النقدي :

"ولوأني ما شاهدتُ البحرَ " .

وحين رأيت البحر للمرّة الأولى في بيروت، لم أتفاجأ، بل قلت في نفسي، هذا هوالبحر إذاً، معشوق الشعراء والفنانين، البحرالذي نام طويلاً في لوحات العظماء من الرسامين والذي سَرَح يشقّ عباب القصيدة بهديره وأمواجه المتلاطمة بين البحور والقوافي، لم أتفاجأ كوني قد رأيت دجلة وهويسير في بغداد مثل امرأة مغناج، تمشي وإيقاع مسيرها يضرب الأرض ويترك رنّة على الحجر، لم أتفاجأ كوني قد رأيت شبيهاً له، أونظيراً، أو وصيفة

twitter: @ketab_n

تشبهه تقريباً ألا وهوشطّ العرب، فهويكاد أن يكون بحراً، لا حدّ له، وقد رأيت بحيرة الحبّانية وأنا صغير، وكانت بالنسبة لسنّي حين كنت أراها حينذاك كأنها بلا نهاية، ضباب فضي وغبش سائل في الأبعاد ولا شيء بعده، بالإضافة إلى سدّة الهندية وسدّة الكوت الوفيرتين على ماء رقراق يتشبّه بأمواه بحرية.

هناك على شاطئ البحر البيروتي، كنت أذهب كلّ يوم، لأتملى وأستزيد، لأتفكر وأتأمّل، أحياناً كنت انزل للماء لكي ألامسه وأتحسس ملاسته، فوجدته مزيّتا ومالحاً ومختلفاً عن ماء دجلة الحلو والصافي حينذاك أيضاً، كنت انزل لمسافة قليلة أجذّف وأرى لمن هم حولي من سبّاحين يقفزون ويشقّون بجباههم الفَتِيَّة دفق التيار، فصرت قريباً منهم، أرمي بنفسي إلى الموجة، لا أبتعد عن الشاطئ أبداً بل بقيت ملازماً له وقريباً من السبّاحين الفتيان الذين كانوا بسنّي أيضاً، لم تكن هناك مسابح وشاليهات، بل كان البحر شائعاً للعامة ولك أن تختار البقعة التي تريد وتشتهي، كنت أقطع الساحل وأجمع الحصى والمحار والأصداف واللقى البحريّة، إنها عادة وتعازيم، ربّما جاءتني من اهلي، انتقلت العدوى إليّ، حين كنت أجد لديهم الخرز الملفوف بقطع من قماش، خرزات زرقاء ومثقوبة، لها أشكال مثل قرون ووجوه وعيون، وكانت لدينا حصاة، موضوعة في صندوق خشبيّ ومقفل عليها، ومدثَّرة بقطعة مخمل، هذه الحصاة، كان أهلي يتباركون بها، ويعدّونها نوعاً من الرقى الحارسة، حين كانوا يفتحون الصندوق، كنتُ أمدّ يدي وأزيح المخمل عنها وأتملّاها، فكانت تنتابني رعشة خفية،

twitter: @ketab_n

فأعيدها إلى مكانها وكأنّ مسّاً كهربائياً كان يسري في شكلها الإفعواني الغريب.

لقد جمعت من شاطىء بيروت الكثير من الحصى والأصداف والمحارات، لتضيع فيما بعد مثل أشياء كثيرة فقدتها في خضمّ حياتي القلقة.

في المساء كنت أميل إلى سقيفة، تشكّلتْ على هيئة حانة صيفيّة مرتجلة، كان هذا المكان يقدِّم الأسماك الصغيرة مع العرق اللبناني، كنت أختلف إليه يومياً، وكنت أحمل معي كيساً صغيراً من المكسّرات اللبنانية، أجيء وأطلب بضعة مازّات، في حال عدم طلب السمك، أقضي الليل وأتمتّع بجمال الليل البحري الذي يغلِّف شاطىء بيروت، أرحل مع المراكب والبواخر العابرة إلى كل مكان، كنت أتمنّى لو أكون في واحدة من هذه السفن العابرة للقارات ولموانىء العالم، أقول لو كنت خدمت في الجندية البحرية العراقية لكنت وصلت شواطىء لم أحلم في الوصول اليها، ورأيت بهاء الدنيا النائم عبر الفنارات وصفير السفن وأضواء السواحل الفاتنة، كلّ يوم كنت أجيء إلى البحر، لم يكن لديَّ خلال زيارتي تلك أصدقاء سوى البحر الذي كان خير صديق لي في تلك الرحلة، بعد أن رأيت أدونيس لأكون مقتطعاً من وقته ساعة في ساحة النجمة، كان لديَّ شغف لرؤية أدونيس صاحب "مهيار الدمشقي" و"كتاب التحوّلات في أقاليم الليل والنهار" وصاحب "الثابت والمتحوِّل" الذي كان ممنوعاً آنذاك في بغداد، على فنجان قهوة التقينا، كان رائعاً كعادته، لم يتغيّر أدونيس ويلبس أقنعة ووجوهاً

twitter: @ketab_n

ويبتعد عن تواضع العظماء البتة، لا يزال أدونيس حتى كتابة هذه السطور كما هو، شاعراً كبيراً قلّ نظيره، ودوداً، ضاحكاً وساخراً بعمق وحزن كبيرين من أوضاع هذه الأمة، والتقيت أيضاً سليم بركات الذي كان يعمل حينها في مجلّة "الحوادث" اتّصلت به من مقهى في" ساحة النجمة " كنت أجلس فيه بعد أن أتناول فطوري في هذه الأماكن الشعبيّة القريبة من الفندق الذي أنزل فيه، اسم الفندق كان " نزل الأدباء " فحبّاً بالأدباء نزلت فيه، قلت علّي أن أعثر على الأدباء في هذا المكان، ولما تحرّيت المكان واستجليت مواقعه وجدته فندقاً يؤوي في الغالب فتيات الهوى، لم أنتقل منه، كونه كان قريباً من كل مكان، خصوصاً وأنَّ أيامي البيروتية كانت قليلة ومعدودة ولا ينبغي تضييع الوقت في البحث عن مكان جديد، كنّ نسوة متبرّجات ومتزيّنات على طريقتهنّ ويذكّرن بالبهجة والحياة الملوّنة. إنّ "نزل الأدباء" هذا لا يزال قائماً حتى الآن، لقد دلّني إلى موقعه وأنا أحدّث الصديق الكاتب والصحافي وليد نويهض من شرفة جريدة "الحياة " في مكتبه في بيروت، كان بيني وبينه خطوات، نزلت من مبنى الجريدة ومضيت إليه في منطقة "الجمّيزة" التي تغيَّرت كثيراً، إذ ثمة بقايا ملامح لزمن قديم وجميل، النُزُل كان ماثلاً بآرمته السوداء وغرفه العتيقة في بداية شارع السهر والليل وعلى مرمى حجر من مقهى " القزاز " حين رأيته وقفت ذاهلاً أمامه، مسترجعاً أكثر من ثلاثين عاماً مضت على هذه الأرض الدامعة، وما عَتَم أنْ كتبتُ بعد هذه الزيارة قصيدة عنه بعنوان " نزل الأدباء " نشرتها في ديواني الخامس عشر " حميميّات "الذي كانت كلّ قصائده تتحدَّث عن المكان.

twitter: @ketab_n

إذاً وأنا جالس في المقهى في ذلك الزمن البعيد أحتسي قدح الشاي، كنت أسمع دويّ المدافع وانطلاق القذائف والصواريخ، أحد الجالسين قربي في المقهى على الرصيف قال بلهجته اللبنانية الغاضبة: "الله لا يعطيكم العافية" جملة لم أزل أتذكّرها، حين أنهيت قدح الشاي واتصلت بسليم، قال لي: "انتبه إنّ الطريق خطر، عليك توخّي الحذر" كان قد مضى على اندلاع الحرب الأهليّة اللبنانية حيث انطلقت شرارتها من منطقة "عين الرمّانة " قرابة الأربعة شهور.

وصلت إلى مقرّ المجلّة، أظنّ أنّ سليماً كان يعمل مساء في مكتب دار نشر نزار قباني أيضاً فضلاً عن عمله هذا، التقيته في المجلّة ومضيت معه فيما بعد إلى مكتب دار النشر، ومن ثَمّ صحبني فيما بعد إلى غرفته التي كان يقيم فيها في أحد أزقّة شارع الحمراء، أطلعني سليم حينها على نشاطاته في المجلة، عبر صور منشورة وهويقوم بتأدية عمله الصحافي وتغطياته للنشاطات الثقافية والاجتماعية، وأهداني ديوانيه الأوّلين "كلّ داخل سيهتف لأجلي وكلّ خارج أيضاً" و"هكذا أبعثر موسيقانا" كان ذلك أوّل لقاء لي بسليم بركات الشاعر الطالع حينها بموهبة فذّة ولافتة.

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

الشعر والمقهى

غالبية الأجيال الشعريّة والأدبيّة والفنيّة في العراق، كانت تلوذ بالمقهى، المقهى في تلك الأزمنة لم يكن يقلّ عن مستوى البيت، لا بل كان هو المسكن والملجأ والمأوى، البيت كان فقط للنوم في الليل، بينما المقهى هو المكان الذي كنّا نكتب فيه ونقرأ ونأكل الشطائر ونشرب الشاي والحامض والبارد من سينالكو ومِشِنْ وبيبسي وميراندا، وكنّا حتى نأخذ احياناً قيلولة فيه وقت الهواجر، كانت بيوتنا بعيدة، وهي في الغالب تضجّ بأطفال الزقاق والحارات القريبة، فالأطفال يلعبون حتى في عزّ الظهيرة، واللعب يتمّ أمام أبواب المنازل الرقيقة التي لطالما كان الصوت يخترقها بسهولة ويجعل اللعب والنوم والراحة والضجيج تختلط بعضها ببعض، بحيث يصعب فصلها، لأنّك تعيش في أزقّة شعبية وفولكلورية، ضيّقة ومتماسة البناء .

فالجيل الأدبي الخمسيني دأب في أيامه على الجلوس في مقاهيه الأنيقة التي بقي منها الكثير في أيامنا فكان مقهى "البرازيلية" قائم، و"حسن عجمي" و"الأعيان" و"الزهاوي"، وأخرى غابت واندثرت حسب ظروفها مثل "السويسرية" و"البلدية" وبالطبع قامت بدائل عنها هنا وهناك.

twitter: @ketab_n

عالم المقهى، هوعالم خاص، له تقاليده ورائحته وطبائعه، ونكهة الشاي فيه تختلف من مقهى إلى آخر، كل مقهى يتفنّن في تحضير الشاي، وفي وضع السرّ في النكهة والطعم وطريقة إعداده، فثمَّةَ الفحم والجمر الوردي المائل إلى الماسي بسبب قشدة الرماد الناعمة الشبيهة بالبودرة الرقيقة عليه، والأباريق الخزف، ذات الجمال الصيني، عدا عن السماورات الداغستانية والكازاخستانية والسمرقندية، فضلاً عن الأقداح الشفّافة الصغيرة، التركيّة والعراقية، إنّه عالم ملوّن من الحكايات والقصص والسرد الذي يمتاز به روّاد المقهى، وهو مكان لتلاقي الأمزجة المختلفة والمتنوّعة والغريبة، مكان للبهجة المستدامة، العاب يدوية كالدومينو والنرد والورق والشطرنج والدامة تدور بين مئات الأيدي ومن مختلف المشارب والمقامات والأرومات تطلّ يومياً لتتحدَّث بعالم السياسة والإقتصاد والشعر والفنون، تروي وتقصّ وتعيد الزمان الماضي آلاف المرات في اليوم إلى الحاضر من الزمن المعاصر.

جيلنا تحديداً، كان يرتاد أكثر من مقهى ولكنّه كان يديم التردد على اثنين هما مقهى "البرلمان" ومقهى "المعقّدين".

إلى مقهى "البرلمان" كان يأتي الكلّ، بقايا من جيل الخمسينات غير المشهورين، لفيف من جيل الستينات، بينهم القاص والروائي والصحافي والشاعر، وجيلنا المتنوِّع في اتجاهاته الأدبية والفنيّة فهناك الشاعر والرسام والنحّات والموسيقي والممثِّل والمخرج والقاص والناقد والصحافي، والإذاعي والتلفزيوني والسينمائي، جيل متعدِّد المواهب، وكان جلّه يميل إلى كفّة اليسار واليسار

twitter: @ketab_n

الجديد، عدا استثناءات قليلة كانت تميل إلى الجناح القومي، في المقهى كنّا نتبادل الكتب والمجلات، وإذا أتيح لنا سرقة ذلك فلن نتوانى في تنفيذ المبادرة، أغلب الكتب المستعارة كانت لا تعود إلى اصحابها وإنْ عادت فبشقٍّ الأنفس والإلحاح المتواصل، كلّ الكتب التي سرّبها لنا سعد عبد الوهاب البياتي الذي انضم إلى شلّتنا لم تعد إلى مكتبة البياتي، بعد أن نستنفذها قراءة كنّا نبيعها كي نشربها في الحانات ونأكلها في المطاعم، ونسدّد ديون أقداح الشاي في المقاهي وخصوصاً مقهى الكرّادة في منطقة "رخيته" والمطاعم الرخيصة المجاورة لها، وندفع ما تراكم في رقابنا من أثمان الشاي والقهوة لصاحب مقهى البرلمان، ذلك الرجل الطيّب الذي كان يتحمّلنا ويتحمّل صخبنا وضجيجنا وأصوات جدلنا وأصوات قراءاتنا للشعر، ناهيك عن الشجار الذي كان يقع بين الحين والآخر، جرّاء الجدل الثقافي والسياسي والأدبي والفنّي والإجتماعي.

إذاً الأصبحة والظهيرات، كانت في الغالب من حصّة مقهى "البرلمان" والمساءات والأصائل كانت من حصّة مقهى "المُعَقّدين" كما يحلو للذين لا يرتادونها تسميتها، أو مقهى "العظماء" كما يحلولروّادها وزبائنها أن يطلقوا عليها، أومقهى "٨ شباط" كما سمّتها الجهات الأمنيّة، حين دَهَمَت المقهى ثلة من زوّار الفجر ذات فجر من أصبحة العراق ووضعت اليافطة هذه عليه، حيث الجميع يعلم ماذا يعني هذا التاريخ، وهويوم أسود من حياة وتاريخ العراق يوم جاء البعث إلى السلطة بطريقة دمويّة بشعة العام ١٩٦٣

twitter: @ketab_n

جرّاء انقلاب مرّوع راح ضحيّته الآلاف من خيرة ابناء الشعب العراقي.

هذا المقهى الصغير الذي يقع في زقاق نحيل، يمكن الدخول اليه، من مدخلين الأوّل من مطلع شارع السعدون المحاذي للمكتبة العربية، والثاني من مطلع شارع أبي نُواس، وكان يتردّد على المقهى طيف كبير من الروّاد بشتى شرائحهم الإبداعية، شعراء وقصّاصون وروائيّون وكتّاب مسلسلات إذاعية ومُعِدُّو سيناريوهات، رسّامون، نحّاتون، خزّافون، كتّاب مسرحيات وممثّلون ومخرجون مسرحيّون وسينمائيّون، موسيقيّون، مغنّون، ملحّنون، كتّاب أغنيات، ورّاقون، طبّاعون، هواة أدب وفن، ومتبطّلون ومتسكّعون وصعاليك فنّ وحياة.

هذا المقهى على صغر مساحته كان يستقبل الجميع، المثقّف والثوري والسياسي المبشّر بتعاليم حزبه، ناهيك عن رجل الأمن، الدائم الحضور، الذي يسجّل في ذاكرته ما يرى ويسمع، وحين يتعب يميل إلى أديب ما، كان قد تعرّف عليه من شدة الملازمة والدوام في المقهى ليلعب معه الدومينو ويدخّن من علبة المثقّف ويشرب أحياناً على حسابه الشاي اللذيذ الذي يعدّه المعلّم مجيد، أو صانعه ابراهيم وهما خبيرا نكهة ومذاق، وربما كان مجيد هوصاحب المقهى وابراهيم هو ولده ومساعده في المقهى الذي له طعم نادر في إعداد الخلطة المميّزة والسرّية لشايهم الذي لم يزل يُقدّم ذي النكهة الفريدة عن شايهم الليلي اللون ذي البصمة السحماء الغامقة والعميقة .

twitter: @ketab_n

كان سجناء الرأي من كتّاب وفنّانين، حين يتمّ إطلاق سراحهم، لا يعرفون إلى اين يمضون، فيضطرون إلى اللجوء إلى المقهى من دون جلبة وعناء ودوخة رأس، لكي يتدبّر أمرهم مَنْ سيرونهم هناك من الأصدقاء، كانت تحدث هذه الحوادث منذ الستينات وظلّت متواصلة حتى أيّامنا في فترة السبعينات، حوادث الاعتقال وإلقاء القبض وغيرها من المشكلات السياسيّة كانت تمارس دون هوادة ضد الناشطين من المثقّفين، وأذكر مرّة في هذا المجال، غياب صديقي المخرج المسرحي كاظم الخالدي الطويل عن المقهى، ولكنّه حين طلّ مرّة ثانية وسألته عن سر غيابه هذا، قال إنّه قد اعتقل في دائرة الأمن العام، ونال ما نال على يدي جلاوزة النظام السابق من تنكيل وتعذيب وقهر وإذلال، وقال محذّراً إيّاي بضرورة الانتباه، أو السفر والهروب بجلدي بحيث لا أحد يستطيع آنذاك النجاة من كمائن المخابرات في تلك الأزمنة، فعلى مَنْ يستطيع السفر تدبير أمره والرحيل إلى الكون الواسع.

كان الكلّ يأتي إلى المقهى، حاملاً كتبه معه الأدبية والدراسية، إذ كان الكثير من الأصدقاء لم يزل على مقاعد الدراسة، وهم يتوزّعون بين كلية الآداب وأكاديمية الفنون الجميلة وكلّية اللغات، وكان أغلبهم يسكن بيوت الطلبة التابعة للدولة، لأنّهم من سكان المحافظات البعيدة عن بغداد، وهم ليس لديهم من مكان لتزجية الوقت سوى المقهى والحانة ودور السينما، فالمقهى كان البديل الأليف عن البيت، والمكان المريح لقضاء الوقت في القراءة والجدل وعرض الشؤون الإبداعية الشخصية، من مهارات فنّية وجماليّة،

twitter: @ketab_n

من شعر وموسيقى وقصص ونقد أدبي وترجمات أوّليّة، فالشعراء كانوا يحملون دوماً أشعارهم معهم بغية قراءتها على الأصدقاء، أويتطارحون الأفكار حول مسألة أدبية معينة لتدور حولها الآراء النقدية والفنية، آراء تحتدم وتتشابك حول لوحة أوقصيدة أوقطعة موسيقية واقصوصة أجنبية أوعربية ومحلية، جدل يسخن كمرجل من الألفاظ حول هذه الفنون ولا يحسم إلّا برِهانٍ على أكلة أودفع حساب شراب في حانة، وفي الحانة يتجدّد النقاش وتعلو وتيرته ليتدخل أحياناً أدباء من جيل آخر عارضين رأيهم والدليل والبرهان لكي يُفَضّ النزاع.

ـ كان جيلنا جيلاً مخضرماً، عاصر جلّ الأجيال الذهبيّة التي سبقته، جيل تقاسمته الأيديولوجيا والتكتيكات الحزبيّة، تكتيكات لم تصبّ في مصلحة الفنّ قدر صبّها في مصلحة السياسة والسياسيّين الديماغوجيّين، أولئك الذين يتشبهون بجدانوف وغيره من حثالة الفكر الشمولي الذين لا شاغل لهم غير فرض القيود على الحريّات وإلغاء عمليّة التفكير لدى المبدع المؤمن بالإنسان وبالرؤى الماركسيَّة الحقَّة، غير الستالينيّة، تلك التي تؤمن بالعقل الواحد والرؤية المحدودة.

من هنا، ومِن هذا المنطلق اكتسب جيلنا حسّاً نقدياً، وامتلك رؤية جمالية إنسانيّة، وعدة معرفية ومفاهيم حداثيَّة جديدة مكّنته من المواصلة وتحدّي القيم الماضوية والأفكار السلفيّة والتصوّرات الفاشية للفن والأدب والحياة وللطبقات الاجتماعية على نحوعام.

twitter: @ketab_n

هكذا عشنا في يوتوبيا حقيقية وليس في ديستوبيا وهميّة، عشنا مع العقل الحيّ، العقل اليساري وليس اليميني الطامح إلى التباهي بالشوفينية والعنصريّة والمذهبيّة، عشنا مع الانفتاح على الحالة الإنسانية في كل مكان، ولن انسى ذلك الصوت الغنائي الذي غنّى يوماً في منتصف السبعينات هذا الشعر " لا تسألني عن عنواني، في كل العالم عنواني، لا تسألني عن سكناي أنا بيتي في كل مكانٍ ".

إذاً والحالة هذه، اخترنا باكراً فكرة التعدّدي، وليس الأحادي، التشّوف إلى عصر الأنوار وليس الظلمات، المسوَدُّ الطروحات، إلى الوعي المدني وليس الوعي القروسطي ، إلى التفكير الحر المتفلّت من القيود الأبوية ـ البطريركيّة، ولهذا كانت لنا حرية السفر والتنقل وقول الذي لم يُقل وتحدّي القبضة البوليسيّة ودكّ أوكار الفكر الفاشي بما نحمله من رؤى وبراهين وحجج وقرائن متحدّية ومتقدِّمة وعصريَّة، ذات منطق نقدي للعقل السلفي والقومي المتزمّت.

كلّ هذا جاء من سهر الليالي والانغماس في القراءة ونحن في البواكير، من التحديق الدائم في المجرى الصحيح للحياة، أي أنّنا انحزنا طبقياً إلى الفكر النيّر الذي كان مع الطبقات التي تعيش في درجة صفر وفي وضع تراجيدي على صعيد الحياة اليوميّة الراكضة تجاه رغيف الخبز الذي خبزته الشموس وعجنه البرد والمطر والقهر الطبقي .

twitter: @ketab_n

كنّا والحالة هذه فقراء الحال، ولكنّنا كنّا أغنياء في العقل والمنطق والحكمة، جيوبنا خاوية دائماً، ووجوهنا يلوح عليها نقص في التغذية، لدينا رهاب وفوبيا من الانضباط العسكري ورجل الأمن والمخابرات والحزبي الصاعد، كنّا نأتي إلى المقهى ونحن نتلفّت يمنة ويسرة، عيوننا مثقلة من قراءة الكتب وشفاهنا يابسة من التدخين وهيأتنا متعبة من السهر والشراب اليومي، والإنهاك والصداع في الرأس والغثيان الذي تخلّفه الكحول والجدل الأدبي المغالى به، خوف كسر عروضي، خوف هنات وزحافات في القصيدة، خوف عدم فهم الفكرة الفلسفيّة لهيغل أو ماركس، خوف "قلق التأثّر" كما يقول الناقد الإنجليزي هارولد بلوم، خوف التشابه والتقليد، خوف التكرار والمباشرة والسيمترية، خوف التلعثم السكولائي والوقوع في المنهجيّة، خوف الشعار والانخراط في التبشير بالأفكار الحمراء داخل القصيدة، خوف الغرور والتطاوس والنفاجة ونحن في المسعى البدئي، خوف أن نقع في الإغراء المالي من جهة سياسيّة، خوف التماثل والثبات، وبالتالي الخوف من أنفسنا أن تكبو وهي في بداية الانطلاقة الأدبيّة.

الآن حين استعيد أجواء المقهى والوجوه الصديقة، أرى كم كان بعضها مخلصاً للشعر ويعدّه خلاصه ومَهمّته الوحيدة في الحياة، كم كان يعدّه الأسمى والباقي نوافل، كم كان يُعدّه الأبقى والباقي زوال، هوالغذاء الروحي وغيره رماد، هوالمسار العريض والباقي طرقات صغيرة وأزقة لا تؤدِّي، هكذا أغلبنا كان يفكّر ويحلم وينافح من أجل بيت شعري، ويسمو بقصيدة، لا يهمّه ماذا كان

twitter: @ketab_n

يعمل ويدرس ويأكل وكيف يلبس وأين وبأيّ السبل والطرائق يعيش ويحيا، كان شاعر تلك الآونة لا يهمّه سوى الشعر وغايته السامية المتخفّية وراء غيوم المجاهل، وراء سُدُم من اللامعلوم، وراء طبقات شفافة من الميتافيزياء المحفوفة بالمطلق، ولكنّه رغم كل هذه السديميّة كان يجري دائماً إلى الحقيقة ويطاردها لأنه يعرف أنّها من انتاج الواقع ومن صناعة الحياة.

الآن حين أستعيد الوجوه الصديقة لتلك الفترة، تقع عيناي مباشرة على شاكر لعيبي حين يدخل إلى المقهى، متحفّزاً، باحثاً عن وجه يجالسه وهويفرك جبينه المتعرّق ويمسح راحة يده المتعرّقة هي أيضاً، حائراً، وسيجارته مشتعلة وكتبه كالعادة بين يديه، يدخل خليل الأسدي، حزيناً، مُطرقاً وسيجارته لا تفارق شفتيه، يدخل صاحب الشاهر بوجهه الطفولي وضحكته الآسرة باحثاً عن الثلة، وديوان شعر قديم في يده، يأتي زاهر الجيزاني، ساهماً، قلقاً وقصيدته في جيبه، القصيدة التي يُجري عليها عشرات التعديلات، حتى تضمحل لتصل بالتالي إلى صيغة نهائية، وقد لا تصل إلى صيغة نهائية حتى بعد أن يطبعها، يدلف خزعل الماجدي مرحاً مع حزن خبيء ينطوي عليه في حالات سرحانه وغوصه في كتاب يتصفّحه، يحضر كمال سبتي مع صوته المتبعثر ولغته السريعة التي تقفز من فمه بعد أن كانت أسيرة في داخله، يجلس رعد عبد القادر، هادئاً بسنّه الضاحك وصمته الرقيق، يأتي سلام كاظم حاملاً طرافته معه وحيويته البهيجة، سلام الواسطي يدخل حاملاً حقيبته الجلدية وضحكته العفوية، يأتي أديب كمال الدين بخطوته الواثقة ونظرته التي تتحرّى المكان، كاظم جهاد يدخل

twitter: @ketab_n

بخطاه الواسعة، مختصراً المسافات والوقت، بموهبته المبكرة، وبحثه في الأفق عن منفذ يُسرِّب اليه طموحه، وربما السفر كان حلّه الأمثل، يدخل مرشد الزبيدي بوجهه البسّام وشاربه الفتي وفي يده كتبه، ويدخل أيضاً عبد المطلب محمود الشخص الدمث والمسالم في حياته الشخصية، يأتي عدنان العيسى، هادئاً، متفكراً ومنزوياً، يأتي رعد مشتّت بطلّته الوديعة وكرّاسة قصائده في يديه، مشفوعة برسومات من ريشته، يدخل هادي ياسين علي قادماً من الإذاعة أو من الجامعة وحقيبته في يديه، يأتي آدم حاتم ملتفاً بشرنقته الحزينة، ومهدي قاسم ببسمته الأليفة، يدلف فاروق يوسف بنحوله الشفاف من وراء نظارته الطبّية وحزمة من الكتب في يديه،وغازي الفهد بطبعه الهادىء، وأحياناً كان يطلّ إلى مقهى "البرلمان" خالد المعالي بلحيته البوشكينية، عواد ناصر بضحكته المجلجلة وفاضل السلطاني بهدوئه الجذاب ومخلص خليل بخفره الشفيف، وحميد قاسم بطلّته المرهفة وعبد الزهرة زكي بصمته الفريد ورياض النعماني بروحه الخفيفة وكامل عويد بترجماته الحديثة وعدنان محسن بصوته المرح وعادل عبد الله بمقترحاته النقدية وغزّاي درع الطائي بسنّه الضاحك وأمين جياد بقذاله المتدلي على جبينه وزهير بردى الآشوري بلطفه السخي، وكان يأتي إلى المقهى من غير الشعراء، وهنا فقط أتحدَّث عن الأسماء التي ارتبطت بمرحلة السبعينات، وشكلت موجة وتياراً إبداعياً في شتى الحقول الفنيّة والأدبيّة والجماليّة.

كان يأتي سعيد جبّار فرحان حاملاً قصصه الجميلة وحزنه الدائم، وسعد هادي بقصصه التي تشي ببدايات واعدة، ونجم

twitter: @ketab_n

والي الذي يمسح المكان بعينه الواسعة، في يده كتبه ومشاريعه القصصية، وفؤاد مرزه بطلته الفتية وقصصه الأولى، وعبد الله صخي بقصصه الجديدة وأساه الكظيم ومحيي الأشيقر بهمومه الثورية، وجبار ياسين بمرحه الطفولي، وفاضل الربيعي بقصصه المحلية وكريم عبد بقصائده الشعبية، ويأتي الفنانون التشكيليّون، ماهر جيجان البديع برسومه الكاريكاتوريّة، وقاسم الساعدي المشرق بلونه وجمعة زيدان الجنوبي الطيّب بوجهه المنحوت من الشمس، وفاضل محيسن الرقيق كالألوان المائية، وكاويان الهادىء كاللون الأبيض، وهيثم عبد الجبّار الودود الهائم باللون، وطالب حسين المتمرّد خارج اللون، وكاظم خليفة الساهم إلى اللون، ويوسف الناصر الحالم بتغيير اللوحة، وهاني مظهر الطالع من ألوان حارة وموسى الخميسي المحرّض على اللون. وكان يأتي المخرجون المسرحيّون جواد الأسدي الحالم بتغيير المسرح، اسماعيل خليل الواعد برؤية مختلفة للمسرح وفلاح هاشم المتطلع إلى مسرح جديد وكاظم الخالدي الطامح إلى التعبير المسرحي، ويأتي الممثّلون الواعدون بمسرح جديد، عرفان رشيد، خليل الحركاني، طه رشيد، أمين عبد الله، أسعد راشد، حازم كمال الدين، فاروق صبري ، مقداد عبد الرضا، كاظم خليل، وكوكبة كبيرة من نقّاد وصحافيين وموسيقيّين جدد.

أما مقهى "المعقّدين" فكان روّاده مختلفين وخليطاً من رواد البرلمان وأم كلثوم وحسن عجمي وكان أيضاً له روّاده الدائمون، فالشعراء من جيلي كانوا يأتون ليلتقوا أصدقاءهم هناك من الأجيال التي سبقتهم بسنوات قليلة كالشعراء والكتّاب والروائيين

twitter: @ketab_n

والقصاصين والنقاد والفنانين والصحافيين والعاملين في مجال السينما والمسرح، أولئك الذين ينتقلون في العصريات والمساءات إليه كونه سيكون قريباً من حانات "شارع السعدون" و"شارع أبي نُواس" وساحة الأندلس حيث "جمعية الموسيقيين العراقيين" و"اتحاد الأدباء" والمطاعم والنوادي الليلية وملاهي الليل الكثيرة ودور السينما الكائنة بالقرب من هذه الأماكن، ناهيك عن دور المسارح العديدة والمقاصف والمقاهي العائليّة ـ النهريّة وحانات "ساحة قهرمانة" والنوادي الآشورية والسريانية المنتشرة بكثرة هناك.

هذا، غير مـمّن كان يُطِلّ ويأتي من شعراء المحافظات، ليقضّي شأناً ثقافياً في العاصمة بغداد، أويأتي لرؤية أصدقائه من الشعراء والفنانين، فكان يأتي على سبيل المثال لا الحصر من الديوانية الشاعر هاتف الجنابي وكزار حنتوش، ومن كربلاء الشاعر مؤيّد الشيباني، ومن كركوك الشاعر جلال زنكبادي، ومن بعقوبة الشاعر خليل المعاضيدي، ومن الرمادي الشاعران حمد الأنباري وعلي الأنباري، ومن ديالى الشاعر ابراهيم البهرزي، ومن الموصل عبد الوهاب اسماعيل، ومن البصرة الشاعرعبد الحسن الشذر، ومن السماوة الشاعر خالد المعالي، ومن الناصرية الشاعر عقيل علي، ومن السليمانية الشاعر لطيف هلمت، ومن الكوت الشاعر حميد حسن جعفر وعادل العامل ومن بابل الشاعران موفّق محمد وناهض الخيّاط ومن العمارة الشاعرجمال جمعة وغيرهم من شعراء المحافظات والقرى والنواحي والدساكر التابعة لها.

twitter: @ketab_n

الشعر والحانة

في تلك الأيام الخوالي، كانت حانات بغداد كثيرة، مرّة أجْريْتُ خلال زيارتي الأخيرة لبغداد العام ٢٠٠٤ بعد سقوط النظام السابق وغياب امتدّ لثمانية وعشرين عاماً، أجريت مع الشاعر سعد صاحب احصاءً لحانات بغداد السبعينات، فكانت الحصيلة أكثر من خمسين حانة، هذا عدا النوادي الخاصة بالمسيحيِّين ولكنّها كانت تستقبل الجميع دون استثناء ونوادي الموظَّفين والعمّال، وعلى ذكر العمال، كانت حانة نقابات العمال، من أجمل الحانات لامتداد مساحتها وكثرة الظلال الشجريّة والمسافات المزروعة بالأعشاب وشتائل الورد وغيرها من المصابيح الصغيرة الملوَّنة التي يسمّيها العراقيون "النشرة" وتستخدم عادة في الأعياد والاحتفالات الخاصة والعامة.

وكان بالقرب منه تقع حانة "سرجون" الشهيرة، وكان هناك "نادي المهندسين" بالقرب من "ساحة الأندلس" عند مدخل "شارع ٥٢" و"نادي جمعية التشكيليِّين العراقيين" بالقرب من "معرض بغداد الدولي" ونادي "العدلية" الخاص بالمحامين والقضاة وموظَّفي وزارة العدل و"نادي الجباة" في باب المعظم وهومخصص للجباة والسائقين والعاملين في الشركة العامة للنقل

twitter: @ketab_n

العام، ويحقّ للجميع ارتياده، و"نادي العلويّة" في العلوية ونادي المسبح في "منطقة المسبح" و"نادي الدورة " لموظّفي وزارة النفط، حيث كل وظيفة لها ناد يقدم الشراب والطعام والمقبّلات، ناهيك عن الحانات الصغيرة المنتشرة في الباب الشرقي، وهي حانات رثّة تضمّ شتّى الأصناف من البشر المتكسّبين والعاطلين والمياومين والمتقاعدين وباعة الملابس المستعملة والباعة الجوّالين والجنود المجازين ورجال الأمن وباعة اليانصيب والقرويّين العابرين وبعض الحانات التي كانت تقع في أزقّة صغيرة من الكرادة داخل والباب الشرقي، وطريق بغداد الجديدة، مثل مناطق "الأمين" و"البلديات" و"كمب الأرمن" و"الآشوريّين".

و"باب المعظّم" و"الوزيريّة". فضلا عن ذلك كانت هناك حانات ذات طراز حديث تتميز بديكورها الجديد وإضاءتها الرومانسيّة، وهي لا تقدّم غير الجعة العراقية والأجنبية، وكان جميع الروّاد يقْدِمون بلهفة على الجعة العراقية ذات المواصفات الممتازة، بالنوعية المقدّمة وفق شروط حضارية وعالمية راقية كجعة "فريدة" و"لاكر الذهبي" و"شهرزاد" و"أمستل".

كانت الحانات، تتناثر على ضفة دجلة في شارع أبي نُواس والسعدون، والبعض الآخر في منطقة الكرخ الجهة الثانية من بغداد ولكن الذهاب إليها كان قليلاً، بسبب من حركة الحياة الدائبة التي كانت تقع في الغالب في منطقة الرصافة، وأقصد حياة الليل والبحث عن المتعة وتزجية الوقت، هذه كلّها كانت تتم في شارع السعدون وشارع الخيام وشارع النضال وشارع أبي نواس.

twitter: @ketab_n

كان معظم أبناء جيلي من الشعراء والكتاب والفنانين يتعاطى الشراب، و لم أرَ شاعراً أو رسّاماً أوممثّلاً أو موسيقياً أو كاتب أغنية أو صحافياً أو قاصّاً وروائياً أو كاتباً ومترجماً من هذا الجيل لم يشرب إلا في حالات نادرة واستثنائية، لا بل كان هناك الكثير ممن يفرطون في الشراب، في الظهيرة والليل، كان أغلبنا يلوذ بالزق في ظهيرات بغداد القائظة، فبعد تمضية بعض الساعات في المقهى وعندما كنّا نأتي من الجامعات أو إحدى الوظائف حيث الدوام الرسمي ينتهي في الثانية، كنا نذهب بعد الشاي الكثير الذي شربناه وبعد الدخان الذي تعاطيناه وبعد الثرثرة النهارية ، نلجأ إلى الكأس البارد والشفاف الذي كان يطرّي بهيأته الرقيقة جلسات اللهب الساخن في آب وتـمّوز وأيلول وأيار، أنت والحالة هذه تكون منغمساً في غابة من الفيء والظلال والمبرّدات التي تدفع بالهواء اللطيف تجاهك وثمَّةَ صديق نديم إلى جانبك تتعاطى معه الأنخاب والأبيات الشعرية، جُلّ هذه الحانات الناعمة كانت تقع في شارع الرشيد أو في نهايات شارع النهر، كحانة "جبهة النهر" و"شريف وحداد" و"سولاف" و"ألف ليلة وليلة" لي في هذه الحانة صورة تجمعني مع أصدقاء تلك الأيام ونحن في العشرين من العمر وغيرها من تلك الحانات التي لم تكن تحمل أسماءً، حانات ناعسة، ملتمَّة على نفسها، بغُرَفٍ كبيرة وباحات وشرفات، هذه الحانات ومعظمها كانت تقع على نهر دجلة، أدركتُ فيما بعد أنّها كانت بيوتات بغدادية جميلة ليهود العراق، وبعدها أصبحت من أملاك الدولة العراقية، تابعة لدائرة الأملاك المجمّدة.

twitter: @ketab_n

حانة "شريف وحدّاد" كانت من الحانات الجميلة بواجهتها الزجاجيّة المفتوحة على نهاية شارع البنوك من جهة ومفتوحة من جهة أخرى على جسر الأحرار والشارع النازل باتجاه ساحة الأمين، كان المبنى مكوّناً من طبقتين، وهويقدم الطعام والشراب، كان الحان مزدحماً دائماً، كونه يقع على مرمى النظر، من هنا كان يعج ويمتلىء بالرواد القادمين من شتى الإتجاهات، شعراء وفنانين آتين من باب المعظم وملحِّنين وكتّاب أغنية وشعراء شعبيِّين، وبعض المغنِّين الهواة ممن يعمل في كورس الإذاعة و"فرقة الإنشاد" العراقية، ومَنْ ينتظر أن تواتيه الفرصة ليصبح نجماً تلفزيونياً وإذاعياً أو مطرباً ذا شهرة.

في "شريف وحداد" الصاخبة، والضاجة بالأصوات والنقاشات والقراءات الشعرية وكلام السكارى من تجار صغار يميلون ليحتسوا بضعة أقداح من العرق الأبيض أوالأسود، وهما ينتميان إلى فصيلة ما يعرف بالعرق "المستكي" والثاني هو "الزحلاوي" وكلا الصنفين من نتاج محلِّي، يُصنّع في شركات عراقية عريقة، تحضّره من التمور العراقية، داخل مصانع انشئت منذ مطلع القرن الفائت.

حين كنّا نميل إلى هذا المكان، كنا نختار الطبقة الثانية، لكي لا يدهمنا أحد الأصدقاء الثقلاء من السكارى، ويتطفّل على مائدتنا ويترك شرخاً في الجو الذي هيّأناه لقراءة ما كتب أحدنا من جديد، كان مَنْ يتردّد على هذا المكان بكثرة هو الشاعر النجفي المُجيد عبد الأمير الحصيري الذي كان يقرأ قصائده التي يحملها

twitter: @ketab_n

في كيس ورقي تحت إبطه مقابل أقداح من العرق، كان الحصيري الشاعر البوهيمي من الطراز الأوّل يجد ما يشتهي ويريد، مرّات كان يتشاجر لشدّة سكره، ولكنّه كان من ناحية ثانية محبوباً من الجميع وذا ثقافة شعرية لا تخفى على لبيب، ممن كانوا يُطربون للشعر المسبوك بإتقان عدا قلّة من الذين لا يفهمونه، وهم على أية حال كانوا من الروّاد العاديين والمستطرقين، وكان الحصيري، كريماً، ذكياً، ورعاً وحافظة للشعر الكلاسيكي، كان لا يتوانى، إذا حصل على مبلغ من المال أن يبذره في الحال على اصدقائه وإذا أحسّ بك بأنّك في حاجة إلى المال، أو إلى دفع مشروب وجائع إلى وجبة، فيلبّي لك الطلب مباشرة، حتى لو لم تند منك إشارة تشير إلى ذلك.

مرّات كنّا نجد أنفسنا محشورين في دائرة ضيقّة، فننسلّ بهدوء لنختار الحانة القريبة من شريف وحداد وهي تكون على مرمى خطوتين منه، مطلّة على النهر من جهة المطبخ، ونوافعه،، كان المكان غرفاته في الصيف باردة وفي الشتاء دافئة تفي بحاجاتنا وتغنينا عن الذهاب إلى المنازل القائظة غير المريحة صيفاً وشتاءً، في هذ المكان، كنّا نقرأ مطوّلاتنا من القصائد لكي نتمكن في النهاية من الوصول إلى حوار مثمر، ذي فائدة، بسبب هدوء المكان وانزوائه الظليل وتعدّد الغرف التي تحتويه، وهي عادة كانت تجمع وتضمّ جماعات من أصدقائنا الفنّانين، رسّامين ومسرحيّين.

على مقربة منها وعلى الناحية الثانية من جسر الأحرار، كانت تقوم حانة "جبهة النهر" كانت أسعارها أغلى من الحانتين السالفتين وكان يرتادها المخرجون المسرحيّون والرسّامون والنحّاتون الكبار

twitter: @ketab_n

والروائيّون من جيل الخمسينات، وبعض الشعراء ممن تبقّى من جيل الرواد، وهم كانوا يأتون من مقهى البرازيلية وحسن عجمي والزهاوي، بعد قضاء صبيحتهم في تلك المقاهي، لم نألف المكان هذا بكثرة، لأنّه أيضاً كان يضمّ في المساء بعض الرواد من الضباط والرتب العسكريّة العالية.

في بداية شارع الرشيد من جهة اليسار لجسر الجمهورية، كانت تقع حانة " سولاف " الساحرة، وهي لم تزل ماثلة حتى الآن، ولكنّها قد تحوّلت إلى بار ليلي ومطعم يسهر حتى الصباح، لقد زرتها وتحرّيت مكانها من الداخل في زيارتي الأخيرة إلى بغداد.

هذه الحانة البديعة، كنت أرتادها منذ كنت فتى في السابعة عشرة، لي صورة تذكاريّة في هذا المكان مع بعض الأصدقاء.

إلى هذا المكان كنّا نأتي، لوسعه، ووسع باحته الصيفيّة الجالسة عبر دعاماتها الحجريّة في جزء من نهر دجلة، له طلّة فاتنة على النهر والقوارب التي تقطع النهر جائية، ذاهبة، وشريط طويل من صف النخيل يتراءى إليك من الضفة الثانية، كان منظر الغروب ساحراً، نسمات عذاب كانت تحرّك خصل شعرنا الطويل النازل على الجبين، والماء كان لا يبعد عن يدينا سوى مسافة بوصة واحدة، للمكان درابزينه الحجري المشبَّك الشبيه بطراز ملكي، بريطاني أو إسباني، يوحي تصميمه بالذوق والرفعة.

أما إذا كانت الظهيرة قائظة جداً، وهي هكذا كانت دائماً، فبوسعنا عندئذٍ الذهاب إلى حانتَيْ "رومانس" أو"الركن الهادىء"

twitter: @ketab_n

وهما تقعان في شارع سينما الخيّام، في هذين المكانين الأليفين نستطيع أن نتبادل الأفكار برويّة، دون ضجيج حانات شراب العرق وشاربيه، فهاتان الحانتان كانتا تقدمان البيرة الطازجة، المثلّجة التي تضفي على الجلسة طابعاً حميمياً، عتمة خفيفة تميل إلى البرودة وهدوء إلى حدٍّ ما، لكن هذه الأمكنة هي أمكنة عامة قد تصبح في الليل مكاناً خليطاً لشتى المشارب، ويقصدها الجميع، فنحن كنّا نأتيها في الظهيرة لخلوّها من هذه الجماعات، أي نستفرد بهدوئها قبل أن يدهمها الصاخبون وروّاد الليل من المهنيِّين وتجار شارع الرشيد وروّاد السينما.

حين نكون في هذا المكان، سنكون دون شك في قلب الحياة الموّارة بالمتعة، وأقصد متعة أن تكون في شارع أبي نُواس، شارع السهر والليل والحانات الممتدّة منذ بدايته حتى أواخره المتّصل بالجسر المعلّق وأزقّة شارع الكرادة.

كان يتميّز شارع أبي نُواس في الستينات والسبعينات وعلى مدار عشرين عاماً بسلسلة طويلة من الحانات والمقاهي والمقاصف والمطاعم الجميلة، فأنت لوبدأته من بدايته من قرب جسر الجمهورية فإنَّك ستمرّ حينها بحانة "السقيفة" وهي كانت ملجأ الفنانين وبضعة من الشعراء اليساريِّين، حانة بسيطة ومتقشِّفة، بصريفتها المكوَّنة من جريد النخيل، موسى الساقط، أحد روّاد مقهى المعقّدين كان مكتشفها ومنَ روّادها الدائمين لسعرها الزهيد ومقبِّلاتها المتواضعة التي لم تكن تتعدى رأساً من الخس، وصحناً صغيراً من الحمص المسلوق، وكانت تقع على ساحل النهر مباشرة بحيث تستطيع أن تدلي قدميك في الماء، أوتنزل إلى

twitter: @ketab_n

النهر وتسبح قليلاً، خصوصاً في أواخر الليل، حين يخلو الشارع من المارة الكثيرين، فالكراسي كانت غائصة في مويجات النهر وحين كان يهبّ الهواء يمسي يهزّ السقيفة.

مقابل سقيفة موسى الساقط التي دلَّني عليها الصحافي مظهر المفرجي، سترى حانة "البحرين" بحديقتها الواسعة المعشبة، وأضوائها المتراقصة التي تلوّن الحشائش وأجمات الآس وتلوّن زهيراتها المنتشرة حولها. أتذكر مرة حين قرأت قصيدتي الجديدة في حديقتها الندية على الشاعرين فاضل السلطاني وحسين حسن، أنّ مساحتها في الداخل كانت صغيرة، في الشتاء جلستها تغدو حميمة ودافئة إذا ضربتها شمس الشتاء، كانت بلا ديكور، شبه عارية، ولهذا كان البعض يفضِّل الحانة المجاورة لها حانة "غارديني" وهي الحانة التي ارتبطت إلى حدٍّ ما بالشاعر فوزي كريم، فكان هو من روّادها الدائمين، لصحبة بطرس نادل الحانة، أوصحبتنا نحن الشعراء الشباب كما كان يطلق علينا آنذاك، في الحانة واجهة زجاجية وفي الداخل بعض الزوايا التي جعلت منها حقاً حانة بامتياز، ففيها تعرَّفنا زاهر الجيزاني وخليل الأسدي وأنا ذات ظهيرة مالت بنا إلى المساء تعرَّفت بالفنانين والشعراء، منهم الكاتب والناقد عادل كامل، الممثِّل ماهر كاظم، الرسّام هيثم عبد الجبّار، الرسّام ماهر جيجان، الشاعر فراس عبد المجيد والرسّام عبد الرحمن سلمان الوجودي الذي انتحر وهو لم يزل شاباً في أوائل العشرينات، كان رسّاماً موهوباً، يقال إنَّ الوجودية وكتب كولن ولسن وسارتر وكاموقد أثّرت فيه بقوّة مما أدى إلى أن يحسم حياته وهوفي عام تخرّجه من الأكاديمية.

twitter: @ketab_n

لحانة " غاردينيا " كانت تأتي كوكبة لا تحصى من الفنّانين والشعراء والأدباء والكتاب والمترجمين والروائيِّين والقصاصين.

كانت الخيارات آنذاك كثيرة، وبالقرب من "غاردينيا" كانت تمتدّ على صفّها ورصيفها حانات "الصحن الفضي" حانة "بلقيس" والأخيرة هذه كانت من الحانات النادرة والجميلة، لأنّها تقع على السطح، كنّا نصعد للسطح الواسع والبهي المضاء بمصابيح صغيرة ملوَّنة، لنراها وهي تطلّ بجمالها على نهر دجلة الذي كانت تتراقص فيه أضواء اليخوت المارّة وزوارق صيّادي السمك والقصر الجمهوري بقبَّته الكبيرة الذي كانت فيه تُحبّك المؤامرات ومشاريع الإنقلابات، والتصفيات الرفاقية، ففيه سحب صدام التكريتي مسدَّسه على عبد الرزاق النايف وابراهيم الداوود في أولى المؤامرات التي حبكها خياله المتآمر، كبداية لانفراد البعث في السلطة وبداية لصعوده الغامض والمدفوع من عدة جهات عربية وعالمية لكي يتبوأ تلك المكانة الدموية، وحين جاء إلى سدة الحكم، مذ حلّ نائباً للرئيس أغلقت فيما بعد جلّ حانات شارع أبي نُواس المطلة على القصر الجمهوري وقبة المجلس الوطني والدور الأمنية الكثيرة، بحيث سُوّر الشاطئ بسور من الأسلاك المكهربة وتمَّ عزله عن المارة بغية عدم التمتع برؤية الساحل الساحر لدجلة، أو عدم محاولة التفكير بعبور النهر لغرض السباحة والصيد، أو لغرض قد يبيّته كائن من كان في نفسه للقيام بعمل ما، نسف القصر بمن فيه، محاولة انقلاب عبر زوارق نهرية، محاولة عبور وتسلُّل إلى سرّ القتلة وبهو الإجرام والتآمر.

twitter: @ketab_n

هذا ناهيك عن "حانة سرجون"، فهي من الحانات التي ارتبطت طويلاً بالشعراء والكتّاب والفنّانين.

تتكوّن حانة سرجون من طابقين كبيرين وواسعين وهي من أملاك الأموال المجمَّدة، تتمتَّع بمدخلين أمامي وخلفي، وبغرف واسعة في الأسفل والأعلى، وبحديقة شبه ملكية، لكبرها وشتلات الورد والآس والرازقي والدفلى التي تحفّ بها، كان يرتادها الشيوعيّون، من شعراء شعبيِّين وشعراء فصحى وممثَّلين ورسامين وكان من روّاده الدائمين بالإضافة إلينا ومن جيلنا من شعراء العاميّة عريان السيّد خلف، جمعة الحلفي، ذياب كزار المعروف بأبي سرحان، فالح حسّون الدراجي، كاظم اسماعيل الكاطع، كريم العراقي، وخيون دواي الفهد وغيرهم من الشعراء الشعبيِّين، فيه التقيت ذات مرة أثناء اختفاء الشيوعيِّين في مرحلة نهاية السبعينات بالشاعر القتيل خليل المعاضيدي الذي جاء هارباً من بعقوبة لكي يختفي في بغداد، ولكنَّه في الأخير وبعد مضي أكثر من عام على لقائنا به وحين كنّا نقيم في بيروت سمعنا بأنّه قد صُفّي ومات تحت التعذيب في أحد السجون الرهيبة لسلطة البعث.

هذه الحانة كانت تشهد معارك في آخر الليل حين يضرب الشراب في عمق الدماغ ويختلط بحرارة الليل التي تختلط بدورها بالجدل الأدبي والسياسي والفني، فترتفع درجة الدم مع درجات منسوب الصوت وارتفاع الأيدي والقناني والأقداح المكسورة جراء الشجار الليلي، كنت أرى العديد من المعارف الذين تشاجروا ولحقت بهم آثار ما، من غارات الأصدقاء المحمومين، أو أرى

twitter: @ketab_n

صديقاً مقرّباً مدمىً، ومقطَّباً ولديه ندوب وشروخ وكدمات في وجهه وجبهته وحاجبه ويديه، كنت إذاً واحداً منهم وشاهد عيان ايضاً على مناكفاتنا الشبابيّة والجدال الدائم والمثابر حول الأدب والشعر والفن.

ولَكَم هربنا مِن حانة "سرجون" هذه من الباب الخلفي من دون دفع الحساب، مرّات كان النُدل يركضون وراءنا، ولكن هيهات أن يمسكوا شيئاً، لأننا كنا نملك أقداماً من ريح ولدينا أجنحة من هواء فتي وطازج، أجنحة قابلة للطيران في أيّة لحظة حرجة.

كان شارع السعدون بينه وبين حانة سرجون بضعة ياردات، وفيه حانات برّاقة ولكنّها من دون حدائق، وجوّ مكشوف ومفتوح، حانات السعدون مغلقة ودفيئة، ذات نزعة شتائية في الغالب، فإلى حانة "المرايا" كان يختلف إليها ظهراً الشاعر المجدّد حسب الشيخ جعفر، لائذاً بالجُعة المتعرّقة، قبل أن يعرّج إلى المُدام مساءً في حدائق "اتحاد الأدباء"، كانت أغلب حانات السعدون تقع في الطابق الثاني من البناء الذي كان لا يتعدّى على أيّامنا الطابقين، وهذه الحانات كانت تقدّم مازة لبنانيّة، غير العراقيّة المتكوّنة من صحن اللبلبي "واللبلبي هي كلمة تركية تعني الحمّص المسلوق" وصحن الباقلاء والجاجيك وهوعبارة عن اللبن الخاثر يضاف اليه الخيار المقطَّع والثوم، وهي كلمة يونانية يسميها اليونانيون والقبارصة "زازيك". مائدة حسَب الشيخ جعفر، كانت دائماً لا تتعدّى الشخصين، المترجم سامي محمد وسليم السامرائي، أو ثالثاً غير مرغوب فيه، فحِسَب شخص هادىء وبالكاد تسمع صوته

twitter: @ketab_n

إذا نطق وتكلم. وإذا ما تخطّينا السعدون قليلاً ومررنا ببعض الحانات والملاهي الليلية والسينمات، سنعثر على حانة "النصر" بجانب "سينما النصر" كانت هذه الحانة الصغيرة والوديعة تشكل ملاذاً للصحافيين الشيوعيين العاملين في صحيفة "طريق الشعب " وكان من روّادها الدائمين الشاعر الرومانسي المرهف رشدي العامل وشلّة من أصحابه اليساريين من الكتاب والأدباء .

لا زلنا في شارع السعدون الذي أمسى يكشف في فترة تألّقه تلك عن حانات الفنادق وبعض المطاعم الراقية كـ"فوانيس" الذي يُعدّ الطعام بطرق رفيعة ويقدِّم الشراب بوسائل متحضّرة، ومطعم "الدار" القريب منه، وكانت الدولة في مرابدها تستضيف المدعوِّين العرب في هذه الأماكن الكثيرة والجميلة التي كان يزدحم بها شارع السعدون وعطفاته التي تؤدّي إلى نهر دجلة.

حين نصل إلى "ساحة قهرمانة"، كانت هناك حانة شفيفة اسمها "مصايف لبنان" في هذه الحانة كان يأتي سعدي يوسف، كون عمله في مجلة "التراث الشعبي" يطلّ عليها، هناك كنّا نلتقيه، وكان يأتي إليها في الجلسات التي تمتدّ من الظهيرة حتى المساء، ثلة من الشعراء والنقّاد والمترجمين، في تلك الأثناء كان الشاعر سعدي يوسف يحدّثنا عن ظروف ترجمته للشاعر اليوناني الكبير يانيس ريتسوس، وعن جوّ المتعة التي كانت تحيطه وتنتابه وهو يترجم هذا الشاعر الذي كان يُعدّ من أعظم شعراء القرن العشرين، كان سعدي للتوقّد أصدر عن وزارة الثقافة العراقية ديوان "أوراق العشب" لوالت ويتمان الشاعر الأميركي الذي نادى باكراً بالتحرّر والاشتراكية ونبذ القيود حول الحريّات الشخصيّة.

twitter: @ketab_n

الشعر والسينما

مثلما تقاسمت الحانات والمقاهي وغيرها جزءاً من حياتنا، فإنَّ السينما كان لها دورها المتنامي ـ المثالي الذي صقل الوعي والروح ووسّع من مساحة الذاكرة.

لعل الذي يعرف الخارطة الجمالية لبغداد الستينات والسبعينات، بالتأكيد باستطاعته أن يحدِّد تلك الأماكن الغافية بين الظلال، والمصمَّمة على ايدي أمهر المهندسين المعماريِّين العراقيِّين، الأماكن الساحرة، بطرز بنائها الواسع والكبير ذي الشرفات والمقصورات والدرابزينات التي تذكِّر بالطرز الإيطالية والإنجليزية لعمارة السينما، دور السينما في بغداد كانت واسعة المساحة، عالية وذات أبّهة، هندسيّة معماريّة، صمّمها فنانون بارعون في مجالهم الفني، كسينما الخيّام ورسومها الداخلية التي هي عبارة عن لوحات تمثِّل الشاعر عمر الخيّام مستوردة من إيطاليا، أما المقاعد فمستوردة من أميركا ولقد زارها الزعيم عبد الكريم قاسم ليشاهد فيها بعد أن اقتطع تذكرة من قبل مرافقه فيلم "أم الهند" لمدّة ثلاث ساعات متواصلة، وكان أول وآخر رئيس وزراء عراقي يقصد السينما، وتنبغي الإشارة إلى بِنْية سينما غرناطة الرائعة

twitter: @ketab_n

التنفيذ في تصميمها وطريقة بنائها وسعة المساحة التي شغلتها قبتها وأجنحتها وأروقتها والمقصورات الفارهة المتعدِّدة فيها ذات الطراز الإيطالي الرومانسي، وسينما بابل بتصميم واجهتها ذات البعد الفني الباذخ، من دون أن ننسى سينما سميراميس ولوحتها الخزفية التي تُطرِّز مدخلها والواجهة وتدل فنيا على زمن المرحلة التاريخيّة والأسطوريّة سمير أميس التي تشكل جزءاً من تاريخ العراق القديم، وسينما النجوم التي تتوسَّط شارع السعدون ببنائها الرواقي اللافت من ناحية الإطلالة والبروز، مثل سيّدة من العصر الفيكتوري تدفع بصدرها إلى الأمام، وسينما النصر بقبّتها الرائعة الكبيرة الموحية بالفن الراقي المتداخل مع بُنى عهود الطراز الروسي للقبّة العالية والجذابة ذات الإمتداد الأفقي الذي لا يعدم التصاعد العامودي السلس المتوازي مع امتداد الأفق .

إنّها أبنية منطوية على أسرارها الجمالية، وسحرها الداخلي الذي نـمّى لدينا الجانب الخيالي والفانتازي من الصورة، هذه الصورة التي طورّت الذائقة البصرية وجعلت من البصيرة في داخلنا تهجس وتوحي وجعلتنا في المآل نمتلك وعياً وحساً ومعرفة في تذوق التحفة السينمائية الفنّية.

من هنا شاهدنا ونحن في تلك السن الصغيرة، روائع السينما الإيطالية الشاعرية لخلّاقين من أمثال فسكونتي وفلّليني وبازوليني، وعباقرة من السينما الهوليوودية والروسيّة، كوودي ألن وإيليا كازان وإيلسون ويلز وهيتشكوك، وراقبنا كيف يتحرّك أمام الكاميرا همفري بوغارت وكلارك غيبل وجيمس ميسون

twitter: @ketab_n

وأنتوني كوين وعمر الشريف وهنري فوندا ومارشيللو ماستورياني، وصوفيا لورين وجين فوندا وجينا لولو بريجيدا وإليزابيت تايلور وانغريد برغمان وبرت لانكستر وكيرك دوغلاس وروبرت متشام وروجر مور وغيرهم من العمالقة، هذا ناهيك عن أفلام رعاة البقر والأفلام الهنديّة والعربيّة الرومانسيّة بالأسود والأبيض.

إنّ افلاماً من عيار "مرتفعات وذيرنغ" و"ذهب مع الريح" و" كازابلانكا " و" الدكتور زيفاغو" و"سبارتكوس" و"القرصان الأحمر" و"زِد" و"اغتيال المهدي بن بركة " و"الوسادة الخالية" و"باب الحديد" و"الأرض" و"حكاية غرامي" و"صراع في الوادي" والهندية "سنغام" و"الجسدان" و"أم الهند" وغيرها الكثير عربيّاً وأجنبيّاً لا يمكن أن تزول من الذاكرة.

لقد أضافت الأفلام لمخيِّلتنا الشعريّة حساسيّة جديدة، وقوّت حاسة الفن لدينا المتمثِّل بالصورة الناطقة والمجسَّدة في عمل سينمائي، كأنه الحياة الثانية، تعاش مرة أخرى، ولكن هذه المرّة بطريقة حالمة وإكزوتيكية ، منفتحة على السنتمنتالية واليوتوبيا والأحلام التي تراود الفتى.

كنّا نقطع الشوارع ونذرع الخطوات، لننتقي ونختار، السينما والفيلم الذي نريد بَدْءاً من باب المعظّم حيث دور السينما كانت تمتد وتنتشر في شارع الكفاح والجمهورية والرشيد كسينما مترو والرشيد والوطني والفردوس وعلاء الدين والشعب وريكس وروكسي ودنيا والرصافي والسندباد، هذه الدور المكلَّلة بالأفياء،

twitter: @ketab_n

كنا نميل إليها في بعض الأحايين لكي ننام ساعة أوأكثر في فترة القيلولة دون أن نهتمّ بما يدور حولنا من شخوص، الصالات تكون في الصيف مبرّدة، ملفوفة بالسكون، في هذه الحالات نكون قد أثقلنا في الشراب نهاراً ولا نودّ الذهاب إلى بيوتنا البعيدة، ناهيك عن الرائحة التي لا يتقبّلها الأهل وعائلاتنا في الغالب الأعمّ محافظة ومتديِّنة وترى في الشراب نوعاً من الخروج على التقاليد، فنحن كنّا نتحاشى هذه الظهيرات بطرائقنا الخاصة، مرّات كنّا ننزل إلى الشاطئ، لنتبلّل ونعوم قليلاً ونُذهب ما علق بنا من شراب وضعضعة جسد، أونسرق غفوات متقطِّعة في مقهى مبرَّد معزول ولا يتردَّد عليه الا القليل من أمثالنا الباحثين عن قيلولة.

أما الآن، فالوضع مختلف تماماً، لقد أحيل الزمن الرومانسي إلى التقاعد، والجمال أصيب بشظايا ودخل إلى مستشفى الطوارىء، والفن يعاني من أزمات نفسيّة، وليس ثمة من عناية وعلاج يلوحان في الأفق لترميم الشفافية والرهافة والرقة التي خدشتها الأزمنة والفاشية والقوى الظلامية والحروب التي أنهكت البلد وجعلته يمشي على عكّاز، الطاغية ساهم بتعقيد الفتنة ورجل الدين يتدخّل بما لا دخل فيه، وبما لا يعنيه، رجل الدين صارت وظيفته سياسيّة واجتماعية ذات نزعة سلطوية، نسي الجامع والمهام الدينية، وجاء ليدسَّ أنفه في مهام الدينونة، والقضايا الفكرية التي بات يحلِّلها بطريقته الفقهية، والسياسي المتنطع والمنافق استهوته عوالم اللصوصية والقتل، والعِلج تحالف مع النوايا السيئة ليحط من قيمة الميثولوجيا والأرومة التاريخية والبعد الروحاني المتجذِّر

twitter: @ketab_n

في البلد ويحطّ من قيمته الدهرية ومن شروقه الأول في بدايات الخليقة.

هذا الكلام المساق اعلاه مفاده، ليس ثمة الآن دور للسينما وكلّ ما كان موجوداً منذ الثلاثينات وحتى العام الفين اندثر وتحوّل إلى طلول وخرائب وخردة، فالمربّع المخملي الذي كان في مطلع شارع الرشيد، والذي كان يضمّ سينما ريكس وروكسي ودنيا، تحوّل الآن خلال زيارتي لهذا المكان العام ٢٠٠٤ و٢٠١١ إلى مكان لتصليح السيارات وورش لتبديل الدواليب والسمكرة وواجهات لبيع لوازم المركبات والدراجات النارية وما شابه، وبعضها تحوّل إلى مخازن لتكديس البضائع الصينيّة التي يغصّ بها البلد وهي في الحقيقة لم تكن سوى نُفايات حديثة، ومن هذه السينمات التي طالها التحوّل الجديد المتماشي مع الزمن المتدهور الجديد وحوّلها إلى اسطبلات وكراجات وحاويات للبضاعة، سينمات الضواحي، مثل سينما "البيضاء" في منطقة بغداد الجديدة و"زبيدة" في منطقة الشيخ معروف وسينما "بغداد" في الكرخ، منطقة علاوي الحلّة ومثلها " اليرموك " في منطقة البياع، وسينما "الأعظميّة" في منطقة الأعظميّة، إضافة إلى دور سينما العاصمة القديمة مثل سينما "الأحرار" عند جسر الأحرار في جانب الكرخ، وسينما "ميامي" في شارع الرشيد، وسينما "سلوى" في بداية شارع الكفاح من جهة "ساحة الطيران" وأختها "الفردوس" في الشارع ذاته وغيرها من الدور الجميلة والراقية التي تم ذكرها، فسينما "النصر" على سبيل المثال كانت أثناء زيارتي الأولى لبغداد

twitter: @ketab_n

العام ٢٠٠٤ قد حُوّلت إلى مسرح تهريجي، يعرض الفن الهابط والثرثار، مسرح البلطجة والتهريج وصيد المال، وهذا يدلّ أنّ المسرح في العهد السابق كان مشمولاً بحالة الخراب هذه، ولكي يزداد الطين بللاً تحوّلت هذه السينما في زيارتي الثانية إلى مكان للتخزين وحفظ المواد الإستهلاكية والحاجيات المستوردة وما أكثرها الآن في العراق الجديد.

لقد ذهب ذلك الزمان الذي كان يضمّ دور سينما صيفيّة، ففي الباب الشرقي كان هناك اثنتان، واحدة مختصّة بعرض أفلام فريد الأطرش طوال فصل الصيف، كانت عبارة عن سطح تصعد اليها لترى سطحا كبيراً حيث تنتصب شاشة بيضاء كبيرة من الكتان فيه، لنرى عبر هذا الجو الصيفي المطل على ضفاف دجلة، الممثلات اللواتي مثّلن مع فريد الأطرش كسامية جمال ومريم فخر الدين ولبنى عبد العزيز وماجدة وفاتن حمامة وغيرهن، كان الرجال الأكبر سناً يأتون بالشراب الذي كانوا قد أعدّوه بخلطهم إيّاه بالماء، ليشربوا من رأس القنينة والمازة لا تتعدّى الحمص "قضامة" توضع في جيوبهم، أو بذور البطيخ المحمّصة، أو قطعة ليمون، مُملّحة، وربما ملح فقط، أو كيس صغير من الذرة وحفنة صغيرة من الفستق السوداني، كان العالم رخياً بهذه البساطة وبهيّاً بهذه الهناءة وهذا العالم الصغير والملموم كالجالس على سطح السينما الصيفيّة، حياة صغيرة من غير رتوش وماكياج وليس ثمة من شاغل كبير، سوى هذه المتع الأنيسة، كانت هناك دور صيفيّة أخرى جميلة تقع بالقرب من سينما الشعب، تعرض أفلام رعاة البقر، وأخرى

twitter: @ketab_n

في بغداد الجديدة، أرضية وتقع في متنزّه تَعْرض في الأعياد الأفلام العربيّة والهندية، كنّا نذهب له نحن الفتيان ومعنا بذور البطيخ والذرة الشاميّة لنتطلع إلى الفتيات اللواتي كنّ بريئات كزمنهنّ، ساحرات بجدائلهن وأثواب العيد الملوّنة كأفراحهن المتواضعة، حلوى في اليدين، شعر بنات، أوأكياس ورقية صغيرة من الكستناء المشوي، كان العالم ناحلاً وليس بديناً، أو متورّماً كما هوالآن، فالفتاة الجميلة كانت تبدو جميلة وليست نسخة مزوَّرة، مضروبة بعشرة، بإبر نفخ الشفتين والخدَّين والحواجب والثديين، عبر مستحضرات البوتوكس والسليكون عمليّات التجميل وخربطة الوجه لتغدو مخيفة وفاقدة لجمالها الطبيعي كما خلقت بيد الصانع الأعظم ربّ الكون والخليقة، كنا نتصيّد الفرص من أجل الفوز بنظرة أو اقتناص ابتسامة أو موعد عابر، أو رمي ملبّسة لغرض التعارف والتقرّب من الأنثى التي كان يبدو عالمها غامضاً بالنسبة لنا نحن الفتيان، بسبب العزلة القسرية للمرأة، وبالأخصّ الفتاة التي تكون في سن المراهقة من هنا كنّا نتحيّن الفرص لنرى هذه الوجوه الناعمة التي تنزوي خلف الشبابيك والكوى والأبواب والأسوار العالية ، لنرى الجمال المحجوب والمغيّب عن أفق فتوّتنا وشبابنا البريء والطري.

لعلّ سينما النصر التي مرّ ذكرها، كانت تبدو صومعة للرومانتيكيّة وعرض الأفلام العربيّة التي تفيض عاطفة ووجداناً وحبّاً، صرنا نتعرّف من خلال هذه الأفلام على عوالم الاستديوهات المصرية والسينوغرافيا التي تتوزّعها، مثل ستديو

twitter: @ketab_n

الأهرام ونحّاس وجلال وما زالت هذه الأماكن حتى كتابة هذه السطور تستخدم في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، يُضاف إليها ستديو الإسكندرية الذي عُملت فيه الروائع من الأفلام العربية، التي شكلت ذائقتنا لمخرجين كبار مثل بركات ويوسف شاهين ونيازي مصطفى، ومحمود ذوالفقار وعلي عبد الخالق وصلاح أبوسيف وحسن الإمام وشادي عبد السلام وغيرهم من العمالقة الذين أرسوا بفنِّهم مبادئ السينما وعالمها المتنوِّع والمتداخل في تفاصيل عديدة ومتشابكة مع صورة الحياة في الصورة وصورة الواقع المُصوّر بذائقة فنية راقية لا تقل عن الذائقة الفنِّية العالمية.

إذاً في سينما النصر رأينا قسطاً وافراً من هذه التحف الجمالية، ورأينا واطلعنا على شريحة اجتماعية من طبقات المجتمع العراقي، ألا وهي الشريحة المخملية من الطبقة الوسطى العراقية،، تلك الطبقة الأنيقة، الموارية، المتحضّرة، التي لها رؤية متطلِّعة إلى الحياة، فمن خلالهم، حين وصلنا سن البلوغ، اكتشفنا الجمال البغدادي الملفوف بالقطائف الخضراء والقرنفليّة وأنواع من الفراء المرمي على الأكتاف الباسقة والصدور الوثيرة المنمَّقة بالقلائد والعقود البارقة بالأحجار الثمينة، وعبرها أيضاً تواصلنا مع الرقة الخبيئة واللهجة الناعمة والمثيرة، حيث تحسّسنا عن قرب انواعاً لا تحصى من العطور الباريسية، كريستيان ديور، شانيل، باكورابان، تلك الأسماء الغريبة علينا، حين كانت النسوة المجتمعات في الصالة قبل الدخول يتحدَّثن عن نوعيّة عطورهنّ العابقة في فضاء الصالة، إنّني أتذكّر ذلك الآن من خلال فيلم "أبي فوق الشجرة" بطولة

twitter: @ketab_n

عبد الحليم حافظ وناديا لطفي وميرفت أمين وعماد حمدي، ولن أنسى أيضاً ذلك اليوم الذي جاءت فيه إلى بغداد مجموعة من الفنّانين المصريين ليغنوا في صالة هذه السينما وبينهم أيضاً ممثّلون، من بينهم رأيت وأنا واقف بين الحشود الكبيرة والمتدافعة اسماعيل ياسين ولكنّني لم أر عبد الحليم وهو يخرج عن كثب، من فندق بغداد إلّا في نهاية الحفل الذي ختمه بأغانيه الذائعة والفريدة، لقد سهرت الحشود حتى الصباح لترى الطلّة الساحرة والأخاذة للعندليب الأسمر عبد الحليم حافظ، كان سعر التذاكر وقتذاك مرتفعاً، ولكنّني بسبب الثغرات الموجودة في الباب الخلفي حاولت التسلّل وسماع عبد الحليم حافظ واقفاً مع المئات من الواقفين في خلفيّة صالة سينما النصر الفارهة والأنيقة.

في سينما " البيضاء " الواقعة في منطقتنا بغداد الجديدة، كان من النادر أن تأتي فتاة إلى السينما إلّا الصغيرات وفقط أيام الأعياد، كانت سينماتنا ذكورية، تغصّ بالفتيان الأشقياء الهاربين من مدارسهم لرؤية فيلم يدخلون اليه مكتشفين عالمه البعيد والغريب، مثل الأفلام البوليسيّة لجيمس بوند وأفلام رعاة البقر لجون وين وألان لاد، وغاري كوبر، وأفلام المغامرات ليولي براينر وأنتوني كوين وريتشارد برتون، كانوا يحضرون إلى السينما غائبين عن بعض الدروس المملّة، أو متملّصين من رؤية أساتذة خشنين، يردّدون كالببغاوات دروسهم التي حفظوها من شدة التكرار والإعادة اليوميّة على مدار السنة، ولكنّهم في الغالب كانوا يواجهون الطالب الذي ينساها و لم يحضّرها إما بالسباب

twitter: @ketab_n

والبصاق، أوبالعقاب والضرب بالفلقة على القدمين ووضع نواة التمر بين الأصابع والضغط عليها، أو الضرب بعود الرمان والخيزران على اليدين حتى تتورّم لدرجة لا يعود بمستطاعك حمل القلم والكتابة فيه ومن ثم تصفّح حتى ورقات الكتاب ودفاتر الدروس والواجبات.

كان جو السينما يُدخلك في عالم مرئي من الأحلام والأجواء النضيرة والمركّبة، عالم يبدو لك كالوهم، كالإسطورة، ولكنّه يتحرّك وينطق في مناخ منسوج من القصص والحكايات والسيرورات الفنيّة التي تشدّك لتكون مثلهم، لتحلم بأن تكون نجماً، وبطلاً، فتقوم بتقليد ملابسهم وقصات شعرهم وحركات أيديهم، لا بل يصل بك الأمر إلى تأدية دور مشابه لما قاموا به من فن تتصور انك قادر على تمثيله فتلجأ إلى صحبتك، تتنازل معهم، وتدخل في معمعة من الشحناء، قد تصل إلى الخدوش وكسر اليد والجروح التي تخلفها تلك المنازلة الفلميّة المقلّدة التي تصنعها كوهم أيضاً، ولكنّه وهم مرح سابح في الهواء وممرّغ بغبار الطفولة.

twitter: @ketab_n

الشعر والكتب

عالم الكتب غريب، تتحرّك فيه حياة وكائنات، مسرح هو هائل الأنوار، تقصده شعل من شتى المراحل والأزمنة، تضيء خباياه وترقد في منعطفاته أفكار رجال رحلوا وتركوا أنوارهم تومض في بهائها الأقصى. داخل أنفاق معتمة للأبدية، في أقبية واسعة لتاريخ يترامى من البدايات إلى النهايات.

ليس في الكتب عوالم لها خواتيم وبواكير، انما هناك إشراق باطني، كامن في عصور البشريّة، عصورها الغامضة والملتبسة، عصورها المشعّة والمنطفئة، عصور اليأس والهزيمة، عصور الانتصار والنهوض الشفّاف للبشريّة.

إنّ الكتب تُخبر دائماً عن مراحل الانقطاع والتواصل، مراحل التداعي والبناء، ثمّة موت للعصور يعقبه انبعاث أنوار وإشعاعات، ثمّة أثلام في الوجود، انهيارات ضياء، تحطّم صباحات وقناديل، غياب مكان واندثار مدن ورحيل كائنات، لكن الكتب هي ما يبقى، هي وثيقة الحياة للارض، وثيقة البشرية عن ضمور زمان وذبول عيش عابر لعناصر ومكوّنات بايولوجية، اختفت في عصور ماضية، أحياء وأجنّة وأجساد، تكوّنت ونشأت وسط مظاهر العدم والعبث واللاجدوى، ووسط مظاهر الخلود

twitter: @ketab_n

والبقاء والديمومة، ولكنَّها انقرضت كأسلافها، لتترك لنا مدوّنات لا تحصى في أفنية الحياة.

تركت لنا أرواحها وعقولها وإبداعاً محفوراً في بحور لا متناهية من مجلّدات وفهارس ومخطوطات.

تركت لنا انواراً أضاءت مراحل التاريخ البشري، أضاءت أعصراً غابرة،وأضاءت أزمنة عدّة، كان شاهدها الإنسان، مؤلِّفها وكاتب وجودها وحاضرها ومخترع أساطير وقائع لا تنسى، ماثلة في عالم الكتب.

إنّه عالم سحر ودَهَش وفتنة وإسطورة، عالم الخيال الخلّاق، والإثارة الفاتنة لأقوام وأجناس ومدن وأماكن وتواريخ، عالم الكتب هو السحر ذاته، هو الضوء السائل في عروق العقل والقلب، الضوء الطافح في دهاليز الروح، أيّة روح، إن كانت روح الأوائل والقدامى والغائبين، أو روح الراهنين، الباقين الذين سيفسحون مكاناً من وقت الحياة للآتين.

في الكتاب أجد مكاني، أجد نفسي، جالسة بين الحروف، هل الكتاب موضع أقيم فيه أم بحر أرحل في أعماقه ؟ هل الكتاب مدينة فيها منزل لي ؟ أم الكتاب بحر والأمواج حروف وأني المتنقل بين سطر وسطر، كمن يتنقل من شاطئ إلى آخر.

في الكتاب تعرّفت إلى أشخاص ارتبطت معهم بصداقة متينة، لم تفارقني، وهناك أشخاص تعرّفت عليهم، لكن سرعان ما نسيتهم ونفتهم الذاكرة، هناك أشخاص مدهشون، أسطوريون، نقشتهم الذاكرة ولفظتهم الروح فرسبوا في قرارها.

twitter: @ketab_n

هناك أشخاص مملّون ومحايدون ودجالون، في الكتاب تعرّفت إلى طغاة وجلادين ومهندسي حروب، إلى عبيد وأسياد وخاضعين، تعرفت على أنبياء ومدّعي نبوّة وكذّابين، شهدت في الكتاب غزوات وسبايا وثارات وغنائم وأسرى وأضاحي وثارات قبليّة، سلالات بكاملها كانت تقطن في كتاب.

دخلتُ إلى أروقة كتاب، فشاهدت شعراء جاهليّين، صعاليك، منبوذين، مُشَعْوذين، أحببت أغلبهم فدعوني إلى قوارير، واقداح قهوة صرفة، مقطّرة، بيضاء، صافية، مستنزلة من ماء بدريّ، ومن كرْم دهري، كنّا نشربها في خلاء باهر، بين خدور وقصور وجنان مغمورة بعطور، عرّفني بعضهم إلى نساء شبقات، وعلى نساء شواعر، وعلى نساء محاربات، ثملنا فنمنا على صليل سيوف واحتكاك خوذ ودروع ورماح.

كانت الخيول ترعى النجوم في الليل وتصهل في مرايا الصحارى، ذئاب وخيام وعضايا وسحليّات ويرابيع وقصائد مكتوبة على جلود ورقائق حجريّة، قصائد معلّقة بمسامير فضيّة، ومكتوبة بماء الذهب، كان هناك قوّاد ينتشرون في أركان الكتاب، وثمّة وسائد خزّ وحرير للعشاق، مصحوبة بمباخر وساتان وكمنجات، كانت هناك في أبهاء الكتاب راقصات ناحلات كالشموع، رقيقات كالقصب، جوارٍ وخرائد، كواعب وثيّب، حسناوات يستولين على الألباب، كان هناك عازفون ومنشدون ومغنّون ينحدرون من بطون الكتب وقيعانها، وعليهم عمامات وسراويل فضفاضة وأخفاف من كتان، يجلسون بمحاذاتي،

twitter: @ketab_n

يشبهونني في الكلام ، يشبهون أفعالي وحركاتي ويتحسّرون على المستقبل، على الراديو والسينما والطائرة.

في الكتاب وفي باحاته العديدة، تعرّفتُ إلى شعراء هجّائين وشعراء مدّاحين، فكرهتُ الإثنين معاً، عرفتُ الأنا من خلال شاعر ذاتي مغرق في أناه، سابح في كينونته، وعرفتُ آخر ميتافيزيقياً عرّفني إلى المطلق، وقادني إلى المجهول، جاء آخر وأخرجني من المجهول وقادني إلى العدم، ثم طل ثالث لينقذني من العدم، فأراني طبائع الصخر ولدونة الرمال، وأنوثة الصحراء، حين يشطفها القمر الصيفي، بضوء حليبي، عرفتُ النار وتدفأت عليها وأنا جالس في كتاب، لكأني قاعد في قعر جمرة، مسّني لهبها ودوّخني، عبر سطور شاعر مجنون، مسّه خبل فتشظّتْ مخيّلته، فتحوّل إلى وحدات وكينونات وأنوات أخرى.

لهذا، وصلت إلى حال من الخلخلة، فأكلت العديد من الكتب، شربتُ الملايين من الحروف في غرف الوحدة والصمت والعزلة، في غرف العراء والشتاء والبرودة، في غرف شرقيّة رطبة، في سطوح شقراء، ذات أصائل شهباء، كانت تستحيل إلى عيون وعيون لتقرأ وتقرأ جدراناً من الكلمات ليس لها طول وعرض، وسوراً مطلسماً بالحروف لا يقاس بالريح والعواصف.

آنئذ، حاولت الصعود إلى جبل، قيل لي أنّه شُيّد من عناوين الكتب، كانت المرتقيات وأنا أحاول الصعود سطوراً ناتئة، تسندني في الصعود إلى المرتقى، غير أني وقتها لم أصل، ولن أصل، إلى متاهة الجبل من العناوين، ولكنّني وبينما كنت أرتقي المعاني العالية، كنت أستريح بين سفوح ومنحدرات من الأوراق عمرها عمر الأبدية، حجمها حجم الكون والكائنات.

twitter: @ketab_n

أيّها الكتاب الصغير، كم عذّبتني حين كنت صغيراً، وأنا أسعى في رحابك رغم صغرك، أسعى إلى فكّ رموزك وألغازك، عشت إلى جانبي طوال حياتي، كعين ثالثة، كيدٍ إضافيّة، كروح ثانية للإحتياط كسؤال لا جواب له، دخلتني ومرحت في كل خليّة من جسدي، ودخلتُ إليك وأنا غضّ، لأتجول في بساتينك وظلالك ومياهك، لأتجوّل في نارك الأزلية الناعمة، بين براكينك الخفيّة، مستمتعاً بالزلازل التي كانت ترشدني إلى منابع الضوء وفيض الهُيام المنبثق من جوف كتاب فتّان، آسر، أسرني وحوّلني إلى نظر، اختزلني إلى عين، عين شرهة تتغذّى بالكلمات، ولا تزال نحيفة، عطشى وجَوْعى إلى الحروف، هل تشبع العين، كيف تشبع العين الطمّاعة ؟ العين الجشعة، عين تأكل الحروف ولما تزل ضعيفة، كيف تشبع وهناك ملايين من الكتب، كتب عذراء، كتب لم تُفَل، كتب لم يلمسها نظر، كتب بكر، مثل حوريات مأهولات بالحكايا والقصص، حوريّات يروين أسرارهن للماء والشجيرات والقمر، أطنان من الحكايات تتنفّس في غابات من الكتب، كم غصناً قرأت من هذه الغابات؟ كم نتوءاً تحسستُ، لكأني كنت أقرأ اللاشيء، لكأني كنت أقرأ اللامرئي، أيّها المرئي هل كنت مقروءاً بالقدْر نفسه لدى المستور، أيها المستتر اظهرْ كي أقرأ صوتك، لأتفحّص نبرتك، إشاراتك حقاً تسحرني، أيها المنزوي والمهمل، أيها الحبّ أحببتك من الوهلة الأولى في صفحات كتاب، أيها الكتاب كم ضيّعتني، شرّدتني حين تبعتك، في كلّ مكان أراك، في كل عين ألقاك، أنتَ الطائع والمطاع، المانح والممنوح، الشارب والمشروب، تشرب النظر من دون أن تعرف العين، أنّك تشربها

twitter: @ketab_n

نفسها، تشرب ذاتها، تشرب شخصيّتها، شخصيّة العين نحفتْ في كتاب، إنّه الكتاب مُدافٌ في شبكية العين، ونسيجها الدقيق.... أيها الكتاب اختصرني إلى حروف، فككْني إلى أسطر، بعثرني فواصل وفوارز وعلامات استفهام وإشارات تعجُّب، أحبّ أنْ أستفهم وأطّلع، بغيتي وصول المدارك والحواس، بغيتي وصول المناطق العليا من العقل، ولكنّني جاهل كحصاة، عارٍ كالصحراء، مفلس كالليل.

أنت ميسور أيّها الكتاب، وأنا قاحل والعسر يعتريني، لديَّ القليل من الكلمات، كلمات شعثاء... كلمات رثّة.... لديَّ لغة مصوغة من الأحجار، لغة عمياء... لغة متداولة منذ آلاف السنين، تهرّأت من شدة التنقّل بين الحناجر والأصابع، بين الدم والخناجر، بين الخطاب والسجع، بين الأدعية والإبتهالات، وأنا منصت وأخرس إلى لغة عمياء لا تراني، لغة صلدة لم تُعجن بماء الطبيعة، لم تترقرق بين جسد وجسد، و لم تنقل إلى كواكب موغلة في غموض الجهات.

أيّها الكتاب أعنّي عليك، إرفعني قليلاً من قاع الكلمات، إلى مرتبة قليلة من مراتب الكلام، إفتح كوى ونوافذ في وجهي، أرشدني إلى المرتقى، حرّضني على الرضا والقبول، عبّئني بالشرارة، قُدني إلى شلالات المعاني، ودبّرني أنا الشارد في غابات الإسمنت ـ الهاجع تحت لعاب الآلات الحديثة، دُلّني، أجب عن أسئلتي يا كتابُ.

منذ كنتُ صغيراً، زرتك، وحين أمسيت في العشرين، ازددت فتوناً بعلاماتك، بمجازك أُخِذتُ، وبإعجازك قعدتُ أتملّى

twitter: @ketab_n

وهج نورك في الأوراق الذهبية، في الغبار الأشقر المحيط بجسدك الورقي، شهقتْ أناملي، وهي تتصفّحك.... غابة ... غابة .

كنّا عصبة آنئذ من المجانين ـ المأخوذين بسحر الأوراق وفتنتها، كنّا نقرأ في الحدائق وعلى سطوح البيوت، وأحياناً كنّا نقرأ الكتب والسطوح والحدائق معاً.

كنّا عصبة مسّتها بروق كتاب، نتجوّل في مكتبات بغدادية، نصعد أدراجاً ونقلّب رفوفاً، نهبط من كتاب إلى كتاب، ندلج كالسراة إلى " سوق السراي " المزدحم بكتب مرّتْ عليها أعين سابقة، نتلقّف النوادر والثمائن منها، ونمضي إلى شارع المتنبي مخترقين جوفه السرّي ـ الحابل بالحروف، نتحرّى القديم والجديد، ثم ندلف في شوارع وأزقّة سوف توصلنا إلى مكتبات، فيها ولائم لا تحصى من الكلام، كلام الأسلاف، كلام الفلاسفة والمتصوّفين، كلام الأعيان والساسة، كلام الجاهلية والأحبار، كلام صدر الإسلام والأمويّين والعباسيّين، كلام الأندلسيّين والفتوحات، وكلام وكلام وليس غير الكلام، كلام كثير وعين حسيرة، تتحسّر على ثمن الكتاب.

كنّا إذاً فتية، مهووسين بمفاتن الكتاب، كنا نُجلّده، ونحمله في أيدينا، أنّى ذهبنا ـ للمقاهي والحانات، للحدائق، والباصات، لأماكن العمل وفي السفر والرحلات بين المحافظات العراقيّة التي تتطلّب ساعات لكي تصل اليها، صار الكتاب عضواً مضافاً إلى أعضاء الجسد، وكم هي المرّات التي طوردنا فيها نحن حملة الكتب، طاردتنا فرق الانبعاث البوليسيّة، لأنّ الكتب كانت علامتنا الفارقة.

twitter: @ketab_n

كتب لا تنتهي تجري كالسيل، في حياتنا ونحن لم نزل جاهلين، وكلّما أوغلنا جنوباً فيها، قالت لنا الكتب اذهبوا شمالاً، كنّا فرحين لأنّنا سنجد المراد والمنتهى، بيد أنّنا لم نلبث أن نعود باحثين عن منافذ تجاه شرق الكتاب، ونذهب إلى هناك، ليقول لنا الشرق، قد تجدون ضالتكم في الغرب، والحقيقة هي أنّه ليست للكتاب جهات ومساحات أو أماكن لاستراحة الأفئدة، إنما هناك شبابيك ونوافذ تطلّ على استيهامات وأشكال هلامية، على أفق متعدِّد يتشبّه بألف صورة وشكل ولون، لأنّ مراكز الجذب معدومة هناك، وإنْ وجدت فهي رخوة، إهليليجية، مقطَّرة من عصارة القلق والتفكير، ثمة حبّات نور سابحة في فضاء لا تهجسه سوى العين، عين الروح والقلب والعقل، تتجمّع لتكون الخلاصة، لتكون الرحيق، رحيق الكلمات الماثلة ككائنات حيّة وصغيرة، تتراقص فوق صفحات كتاب.

كانت بغداد في العصر العباسي، منارة للثقافة العالميّة ومركزاً للعلم وطلب المعرفة، إذ كان يؤمّها الأدباء والكتّاب والعلماء من شتى البلدان، من أجل الاستزادة من الغذاء الثقافي، وتطوير مَلَكتهم الإبداعية ونيل العلم من مختلف الحقول المعرفيّة، ففي تلك الفترة كانت تستخدم المساجد كمستودعات للكتب، تلك التي تناولت مواضيع متنوّعة كالمنطق والفلسفة والفلك، فضلاً عن خزائن أخرى أنشأها المتأدِّبون من أمثال الخطيب البغدادي، الذي جعل مكتبته وقفاً للعامة وللعلماء وذوي المكانة الأدبيّة من شعراء ومنطقيِّين وفلاسفة وباحثين في العلوم.

وممّا يذكر في هذا الصدد أيضاً، أن الموصل اشتهرت ابان

twitter: @ketab_n

القرن العاشر الميلادي، بخزانة كتب كانت تضمّ جميع العلوم، حيث كان يعطى للداخل إليها ورق، كي ينسخ عليه ما يريد من معلومات، وكانت في هذه الفترة نفسها، دار اخرى للكتب أجرى صاحبها المال على من قصدها ولَزَم القراءة والنسخ فيها وكثيراً ما كانت الدور الكتبيّة آنذاك منتدى للعلماء والكتّاب والخيميائيين يتداولون فيها الأبحاث العلميّة ويجرون الجدل والمناظرات الأدبية.

أما حوانيت الورّاقين فإنّها كانت من السعة وكثرة الكتب بمكان، وكان في السوق الواحدة يومئذ أكثر من مائة حانوت للورّاقين، بينما باعة الكتب كانوا في الغالب من الخطاطين، أو النسّاخين أو المتأدّبين الذين جعلوا من حوانيتهم، لا مخازن كتب فحسب، بل مراكز للأبحاث الراقية.

إنَّ الكاتب والمؤرِّخ ياقوت الحموي على سبيل المثال، كان في أوّل عهده في العمل كاتباً لبائع كتب وكان ابن النديم العلامة والباحث المؤرِّخ نفسه بائع كتب، وأميناً لمكتبة في عهده ذاك.

كذلك كان العراقيّون أوّل مَنْ استخدم الورق في دواوين الحكومة حيث أنشأوا مصانع للورق في عهد الخليفة هارون الرشيد، أي في القرن الثالث للهجرة.

من هنا تبدوالمقارنة جارحة، بين تلك العصور والعصر الحديث، في أزمنة الحداثة وعالم التواصل الإجتماعي عبر التقنيات الألكترونية الجديثة التي هي في غاية التطوّر بعد اجتياز القرن الحادي والعشرين وبعد القضاء على الطاغية والحاكم المستبدّ، وهيمنة الحزب الواحد على مقدّرات بلد، ثمَّة مَنْ يأتيك

twitter: @ketab_n

مرتدياً زي المغول الجدد، ليعيث بالمكتبات العراقيّة وبسطات الكتب في شارع المتنبي حيث ثمّةَ معرض دائم للكتاب، وحيث شباب الفيْس بوك أطلقوا حملة "أنا عراقي، أنا أقرأ" لإعادة القيمة للكتاب وللقارىء العراقي الذي كان في المقدِّمة كما هومعروف عنه من ارتباط وثيق بينه وبين الكتاب تمثّل في أزمنة مختلفة عمرها أكثر من ألف عام، بينما الآن ثمة مَنْ يأتيك وأنا أكتب هذه السطور في الشهر التاسع من العام الفين وأثني عشر ليدمر المؤونة الجميلة التي تزيّن شارع المتنبي بثمار العلم والأدب والمعرفة.

وحين أرى ما يحدث ويدور تجاه الكتاب من حملات للنيل منه والتنكيل به تحت شتى الذرائع والمسمّيات من أجل الإيقاع بجماله والحطّ من قيمته الفنيّة، حين أرى كلّ هذا، تعود بي الذاكرة إلى مطلع السبعينات التي لم تخل بطبيعة الحال بعد وصول البعث آنذاك للسلطة من مَنْع لأمهات الكتب الأدبية والسياسية ، فأرى أنّنا كنا نرفل رغم ذلكَ، بنعيم الكتب، فالمنع كان محصوراً بكتب تستهدف أسماء محدَّدة وعناوين معيّنة.

إنّ غالبية مَنْ كنت أراهم في مطلع السبعينات من جيلي وعلى مختلف توجّهاتهم الثقافية، إنْ كان شاعراً أو رسّاماً، قاصاً أو مسرحياً، كان يحمل كتاباً في يديه لغرض القراءة، أو ليريه لصديقه، من أجل الجدل والتوقّف عند بعض الفقرات والسطور المنتوي مناقشتها، وكانت الكتب المحمولة متنوّعة، فبعضها في الشعر والنقد والمسرح وحياة الفنّانين من الرسّامين والممثّلين والمخرجين، وبعضها في الرواية والقصة والمسرحية والمذكّرات، فكان الشاعر يقرأ في المسرح لكي يكون على بيّنة من هذا الفن حين يلتقي

twitter: @ketab_n

صاحبه الفنان في المقهى أو في الحانة، أو في حدائق الجامعات والكلّيات العراقية، والعكس يجري كذلك، كان القاص يقرأ في الشعر والشاعر يقرأ في القصة والرواية، ثمّة متلازمة كانت تجري بين هذه الحقول وتوافق تبادلي بين الفنون جميعاً، صراع في الأفكار والرؤى، كانت تُدعم بالشواهد والدلالات، كان البعض يميل إلى استعراض المعلومات والتباهي بما كان يقرأ، والبعض كان يقرأ ويحوّل ما هضمه إلى مادة إبداعية.

كان الكتاب يشكل جزءاً مهمّاً من حياتنا، كان الكتاب عضواً فاعلاً من أعضاء الجسم، يندغم ويتهيكل معنا، وبدونه كنا لا نستطيع حتى أن نمشي، كان هويضيف التوازن لنا ويُحسّن من حركة المشي والسير والذهاب هنا وهناك.

في مطلع السبعينات، كنت أعمل موظّفاً في "دار الحريّة للطباعة" وهي دائرة تابعة لوزارة الثقافة، وتطبع كل كتب الدولة، الكتب الرسميّة والكتب الدراسيّة المخصَّصة للطلبة والكتب الإبداعية والفنيّة التي تطبعها الوزارة على نفقتها الخاصة للكتّاب والأدباء والفنانين العراقيين، مقابل مكافأة تعطى لهم مع نسَخ معدودة من الكتاب، كان عملي جميلاً، فهو يقع ضمن ما أحبّ وأشتهي، ولكن هذا لم يرضِ طموحي وشغفي وولعي بالكتاب، فكنت ألجأ حين أنتهي من الدوام الرسمي، إلى مكتبة "الدار الوطنية" وهي أيضاً تابعة للدولة، تضمّ أمّهات الكتب الأدبية والفكريّة والفلسفيّة العربيّة والأجنبيّة .

في هذه المكتبة كنت أقضي جلّ ظهيرتي، ولا أخرج إلى

twitter: @ketab_n

الشارع حتى يستطيب المناخ ويعذَب النسيم في الخارج ويكون المساء على أهبة الهبوط ماسيّاً على نهر دجلة.

خلال وجودي في هذه المكتبة قرأت كل الشعر العربي الموجود فيها، القديم والجديد، وركّزت حينئذ على الشعر الحديث بالذات كونه الأقرب إلى ذائقتي بعد أنْ مررت بفترات عديدة من التحوّل في القراءة.

أما حين أكون في مقاهي الميدان مثل "البرلمان " و"أم كلثوم" أو "الأعيان" و"حسن عجمي" فكنت أخرج مع ثلة من الأصدقاء مندفعين إلى "سوق السراي" منزل الكتاب ومأواه باحثين عن الفرائد، نابشين الحوانيت رفّاً.. رفّاً علّنا نعثر على الخرائد من الكتب الخبيئة، الغارقة في الظل والعتمة وطبقات الغبار، نحن كنّا نعيد الروح إلى الكتاب المنزوي، المعرّض إلى الذبول في زاويته، لم تطله يد وتقلّبه وتنفض عنه عَطَن السنوات والعزلة.

كان جميع الورّاقين من باعة "السراي" يعرفوننا واحداً.. واحداً، أحياناً يخبّئون النادر لنا والفريد، وحين نكون في حضرتهم تبدأ المساومة على الجمال النائم في الكتاب.

كانت ثمة مكتبتان تقعان في شارع "المتنبي" هي "النهضة" الفرع الثاني، والأخرى ليس لها اسم، أظنهما احترقتا عندما فجّر الشارع دعاة التخلف والجهل والحقد المؤسس ضد المعرفة والثقافة والعلم والبشرية المتحضّرة، فجرّتهم حثالة من شرذمة "القاعدة" فاحترق الشارع بما فيه من كنوز ثمينة، إنها هجمات المغول تتّخذ بين الحين والآخر أكثر من زيّ ومبذل وطريقة.

هاتان المكتبتان، كانتا تحنوان على كتب التراث، حيث يجد

twitter: @ketab_n

الباحث عن المعرفة مراده في طبعات مصرية لأشهر الدور القديمة، من لبنانيّة وسوريّة ومصريّة.

في الباب الشرقي، اتسعت رقعة المكتبات منذ مطلع السبعينات من الألفية السالفة، كان رصيف ضريبة الدخل في الباب الشرقي المقابل لنصب جواد سليم الخالد، يضمّ كشكاً كتبيّاً ناشئاً للبائع هاشم الذي سيصبح مشهوراً ويفتتح إلى جوار "المكتبة العربية" مكتبتين كبيرتين منافستين للمكتبة العربية ولمكتبة "النهضة" الفرع الأصلي الموجود في ساحة الباب الشرقي.

كانت الكتب تصل طازجة من بيروت، لم تزل محزّمة وفي صناديق المقوّى، حين كنّا نحجز نسخنا وكانت تصل المطبوعات الحارّة الخارجة توّاً من وزارة الثقافة العراقية، لنحجز ترجمات خليل خوري وجبرا ابراهيم جبرا ونجيب المانع والكتب الجديدة للكتّاب والأدباء العراقيّين الصادرة حديثاً في مجال الشعر والقصة والرواية.

بعد نصب " محسن السعدون " في شارع السعدون نهضت أكثر من مكتبة، كانت تقع على يمين ويسار الشارع، جلّها كانت تأتي بالكتب السياسيّة والأدبيّة المتنوّعة ولطالما سرقنا من هاتين المكتبتين الكتب التي نستطيع سرقتها خصوصاً حين نكون مفلسين ومُعْوزين ولا نملك ثمناً لشراء فطيرة فكيف بكتاب.

إنَّ الحديث عن الكتاب حديث شيّق ويطول لتشعّبه وكثرة حكاياته، وعلى سبيل ذكر العَوَز والحاجة والحال، وسوء الحال كنّا أيضاً نلجأ إلى الكتاب كأخ ومساعد ومعين ينقذنا من أزمة مالية وسدّ حاجة ما، فنضطر إلى بيع ما اشتريناه من الكتب، فنعيد بيع

twitter: @ketab_n

"ألف ليلة وليلة" وكتاب "الأغاني "لأبي فرج الأصفهاني و"يتيمة الدهر" للثعالبي وديوان "المتنبي" و"أبي تمام" و"البحتري" بنصف السعر أو أقلّ.

مرّة، كنت لا أملك فلساً، وكنت نائماً خارج البيت، أما في حديقة " اتحاد الأدباء " أوفي حدائق شارع ابي نُؤاس وكانت معي نسختان من ديواني الاول "قصائد أليفة" فلجأت له كمنقذ لأبيع النسختين بدرهم واحد، كنت جائعاً و لم أفطر بعد، بعتهما لبائع كتب ومجلات على الرصيف في الباب الشرقي، مما وفّر لي هذا المبلغ الزهيد صحن حساء من العدس وقدحاً كبيراً من الشاي الذي كنت بأمس الحاجة اليه في تلك اللحظة من صباح بغدادي مشمس ومفتوح على المجاهل واللامعلوم.

كان الكتاب الذي يستعار على أيامنا في الغالب لا يرجع إلى صاحبه، وكأن الذي استعاره راح يطبق المثل القائل: مَن يعير كتاباً فهوأحمق ومَن يعيده فهوأكثر حماقة. كانت الكتب بيننا تقرأ وتهدى بعد قراءتها، وكانت هناك كتب تنسى في الحانات وفوق طاولات المقاهي، هناك كتب كانت تستخدم كوسائد توضع تحت الرأس إذا ما نمنا في حديقة، كانت هناك كتب ترهن لصاحب المقهى إلى حين ميسرة وحلّ عقدة الإفلاس وتسديد ثمن الأقداح المتراكمة من الشاي والقهوة وكؤوس الحامض "النومي بصرة" وربّما الدين من نادل المقهى ومن روّادها الدائمين، وهناك كتب كانت تحمينا من رجال التحرّي والمخابرات والأمن، حين نفتحها بالقرب من وجوهنا حتى تغطي نصف وجوهنا لِنُموِّه رجال المباحث على من هم يبحثون وهم في الغالب زوار مواظبون للمقهى.

twitter: @ketab_n

الشعر والموسيقى

في بيوتات بغدادية، تشبه الدمى، تتألّف من طبقة واحدة وذات زيّ مشترك، غرفتان وحمّام ومطبخ، وهذه البيوتات التراثية الطلعة، المبتسمة للشمس والمطر، والضاحكة للهواء إذا ما هبّ ومسّ جدرانها وسطوحها، في هذه البيوتات نشأت طبائعنا وأحلامنا الأولى، مدعومة بخيال بكر، ووعي متفتّح كزهرة جوري بين هذه الحواضن الصغيرة.

هناك بدأت تتنامى الحاسّة الأسمى، حاسّة السمع، وتلتقط الفواصل الموسيقية الأولى والنغمات التي كانت تلقى هنا وهناك، في الشارع، في زفّة العرس، في حفل ختان، في يوم الحنّاء، في التهاليل والموشّحات الدينيّة التي كنّا نعثر من خلالها على النغمات، على الرنين الدفين في الكائنات والأشياء وصدى الطبيعة المنعكس في صوتٍ ما ذي رنّةٍ خفيّة تكمن في جوهر الكون والعالم.

هذا التلمّس البدئي، هوالذي كان المنطلق في رحلة البحث عن الحسّ والنغمة، يوم كنّا فتياناً لم نتعد السادسة عشرة، حين كنا نصغي إلى النبرة القادمة عبر جهاز الراديو والتلفاز والحفلات التي تقام في الشوارع والساحات من أجل الاحتفال بشيء ما.

twitter: @ketab_n

كان جهاز الشاشة الصغيرة، وافداً جديداً وحديثاً، يوم كنّا ننصت إلى برنامج "الرفوف العالية" لمعدّه ومقدّمه حافظ الدروبي، يوم كان يقدّم من خلاله الروائع العالمية في الموسيقى، وعَبْره استدللنا إلى سيمفونيّة "حلاق اشبيلية" لروسيني، لأنّ برنامج "الرياضة في اسبوع" لمقدّمه ومعدّه مؤيّد البدري اختار متلازمة لبرنامجه مقطعاً من تلك السيمفونية لتكون مقدّمة لبرنامجه الرياضي، حينها أدركنا أنّ هذه المقطوعة هي مقتطعة من عمل جبّار لموسيقي إيطالي شهير.

هنا بدأت أحسّ بجمال هذا الفن وروعته، وأحسست كم هي لذيذة تلك الرفوف العالية، كنت أتشهّى أطباق تلك المأدبة العالية، ولكنّني كنت أحتاج إلى سلم لكي أصل إلى هناك، درجة... درجة... لكي أطال وأتذوق بملعقة الإحساس الصغيرة هذا الفن الرفيع والراقي.

يومئذٍ دهمتني فكرة اختراق هذا الفن وصعود السلّم، فقرّرت حين كنت أتدرّب على الضرب على الآلة الكاتبة، في معهد مخصّص لتعلّم هذه المهنة، في شارع السعدون وفي الطبقة العليا المحاذية لمطعم " تاجران " كنت أتدرّب على النغمة التي بدت لي شبه ضربة موسيقى على رتابتها، بالقرب من هذا المبنى وعلى مرمى خطوات، كان ثمة محلّ صغير يعلّق عوداً في واجهة المحلّ وثمّة صور موزّعة على الواجهة لفريد الأطرش حاملاً عوده وعبد الوهاب ببدلته البيضاء وربطة عنقه المعقودة على هيئة فراشة، هذا المحلّ كان قد وضع تسعيرة لتعلّم العزف على العود ولمدة ثلاثة أشهر فدفعت القسط الأول لشخص بدا لي للوهلة الأولى

twitter: @ketab_n

مُلمّاً ومُشجّعاً وضامناً تعلّمي وواجداً الرغبة فيّ والاندفاع، وصعود السلّم النغمي لهذا الفن الشفّاف diatonic scale لكيما أتعلّم المبادىء الأولى لكنّني والحقيقة ينبغي أن تقال، اكتشفت هذا الفخّ باكراً، حالما شعرت أنَّ الحانوت الموسيقي، هومجرّد مكان لابتزاز المال، أو الوقيعة بفتى بريء، لا يفقه كنه هذه الأماكن التي بدت مثل فخّ لتصيّد الفتيان، ومكان لسحب المال دون التقدّم في كلّ ما قاله عن سبر أغوار البعد الخفيّ لمزايا العود.

كان الشعر في تلك الفترة قد بدأ وهو يبثّ جمرته في كلّ كياني وراح يشعل نيران الإبداع في اعماقي حيث بدأ بالانتشار في كلّ مكان لكأنّه مرض عضال، وكونه لا يقبل تحمّل ضرّة منافسة له، حتى لو كانت من نفس الأرومة، ومن ذات النسب، فضلت حينها تطوير الموسيقى الداخلية للشعر من خلال سماعي للموسيقى كونها الجزء المتمّم لوصايا الشعر التاريخيّة، فواصلت رحلتي في استكشاف المناطق المجهولة والغامضة لي في هذا المجال الحيويّ والجمالي، مستعيناً بحاستي وذائقتي وقراءاتي، ومعاشرتي لجيل محبّ للفنون جميعاً.

من هنا كانت البدايات تتبّعاً واستماعاً وإنصاتاً، لكلّ ما يقع في يدينا من أسطوانات بسيطة، إن كانت عربية لصالح عبد الحي وزكريا أحمد وعبد الوهاب، وتتبّع الفنانين العراقيّين المشهورين آنذاك لموسيقيّين كبار مثل جميل بشير وسلمان شكر وفريد الله ويردي، وترقّب أمسياتهم في بغداد، أو الانطلاق من مقهى البرلمان والذهاب بضع خطوات من المقهى إلى حيث موقع وزارة

twitter: @ketab_n

الدفاع في باب المعظم لوقوع مكان الفرقة السمفونيّة العراقيّة هناك.

أكثر مَنْ دلّنا على الموسيقى وهذّب الذائقة وصقلها، هي هذه الفرقة النادرة التي كان أعضاؤها يحملون أرقى الشهادات في هذا الحقل الصاقل للحواس، نالوها من معاهد وجامعات متخصّصة في الإتحاد السوفياتي سابقاً والبلدان الإشتراكية المجاورة له ومن أكاديميات إيطالية وفرنسيّة وإنجليزيّة، ناهيك عن معهد وأكاديمية الفنون الجميلة في بغداد الذي كان يدرّس الموسيقى كمادة جمالية.

كانت الفرقة السمفونية مفتوحة للجميع، كنّا نجد مقاعد خالية فنستمع ونستدلّ من خلال التقديم إلى هذا الموسيقار وذاك، شروح وفيرة وتفاصيل دقيقة كنّا نحصل عليها في زياراتنا وحضورنا لما نقع عليه مصادفة، من أسماء غريبة لم نعرف عنها شيئاً وإذا بها هي مَنْ كانت تقدِّم غذاءها الروحي للبشريّة عَبْر سنوات وأجيال وحقب زمنية، فصرنا نعرف بيتهوفن وسمفونيّته التاسعة والخامسة، وموزارت في رائعتَيْه، الأربعين والواحدة والأربعين، كنسيّات باخ وصلاته الدائمة للموسيقى، فيفالدي وفصوله الأربعة، فيردي وأوبرا عايدة، رمسكي كراساكوف صحبة شهرزاد، شتراوس وليالية الراقصة في ليالي أعياد الميلاد، وتلمّس الرذاذ المنطلق من بحيرة البجع لتشايكوفسكي، ونعجب مسحورين بما يقدّمه حلّاق إشبيلية على يد روسيني، ومقطوعات خالدة لرخمانوف وسوستاكوفيتش، ناهيك عن غيرهم من العمالقة.

twitter: @ketab_n

كان في العراق كتّاب كبار يهتمّون بالموسيقى وقد سبقونا اليها، علماً ومعرفة واطّلاعاً، كنجيب المانع وعلي الشوك ومحمود البريكان، ولا أنسى تلك الأيام التي كنت أذهب فيها بصحبة الشاعر المبدع فوزي كريم لسماع الموسيقى في سكنه الذي كان يقيم فيه بالصالحية، كانت لفوزي من بين جيله اهتمامات مبكرة بهذا الفن الراقي، طورّها في ما بعد في لندن العاصمة التي يقيم فيها منذ اكثر من ثلاثين عاماً.

أحياناً، كنّا نُهرع إلى جمعية الموسيقيّين العراقيين في ساحة الأندلس لنستمع لمحاضرة وعزف عن موسيقى الغرفة، عن تأريخ الموسيقى، عن تطوّرها وتحوّلاتها في العالم، وكنّا حين تنتهي الأمسيّة نفرش مائدة الشراب، ليستمرّ الجدل حول الأمسية ومدى أهميّة المحاضر وأهمية الموسيقى التي قُدّمتْ، إلى أن يطوي الشراب مفعولها وننفضّ مترنّحين إلى منازلنا الموحشة والتي تخلو من أيّة لمسة موسيقيّة، أو أدواتها الرقيقة كون بيوتنا هي للطبقة الفقيرة وليست الغنيّة التي كان أغلبها يمتلك هذه الآلات مثل البيانو والكمان والتيشلو والعود والغيتار.

قبل أن أدخل عالم النشر والصحافة وأنا فتى في التاسعة عشرة، كنت أتردّد على مقهى "القناديل" في الصالحية، هذا المقهى كان ملتقى الملحّنين والمغنّين وكتّاب الأغنية كونها تقع بمحاذاة مبنى الإذاعة والتلفزيون، حشد من رعاة الفن وخبراء في الصوت والدندنة، وهناك كنتَ ترى المطربين رضا علي وفاضل عواد وحسين نعمة وعبد الجبّار الدراجي وبعضاً من المطربين

twitter: @ketab_n

الصاعدين من الشباب الذين كانوا يتأهّلون للطرب وبعضاً من فرقة الإنشاد وممن يردّدون في الكورس وترى الملحّنين فاروق هلال وعبّاس جميل، وسعيد العجلاوي وأحمد خليل ومحمد جواد أمّوري وطالب القرغولي، محمد نوشي الذي كان له محل خياطة في شارع الرشيد، حين كنت أمرّ بمحلّه أتوقّف لدقائق لأراه تاركاً عمله وأمامه شخص يدندن له وفي يده العود، وكذلك الملحّن والمغنّي سعيد العجلاوي الذي كان له محل خياطة ايضاً، جنب سينما النصر، يعلّق العود أمام المحلّ مع بدلات القماش التي كان يفصّلها و لم تكتمل بعد، وكان العجلاوي رجلاً طيّباً، حين يراني أتوقّف طويلاً وهو يلحّن أغنياته لنفسه، كان يدعوني لشرب قدح شاي عنده أنا وصديق طفولتي عبد الرسول عيدان، وأهداني صورة له مع توقيع، واكتشفنا بعد أنْ استمعنا إليه، ونحن نحدّثه عن الأغنية أنّه لم يكن يسمعنا جيداً، فبدا لنا شبه أصمّ، وفيما بعد حين كبرتُ، عرفتُ أنّه كان شيوعيّاً وقد تعرّض للتعذيب على يد الحرس القومي في انقلاب الثامن من شباط في مطلع الستينات.

إلى مقهى "القناديل" كنت أذهب حاملاً ما أكتبه من أغنيات ومن كثرة تردّدي تعرّفت إلى شاعر أغنية كانت له مساهماته المعروفة في هذا المجال، الشاعر هو محمد سمارة، من أصل فلسطيني، وهو فيما بعد سيهجر كتابة الأغنية ليتحوّل إلى كتابة القصة والمقالة، لمحمد سمارة كشفتُ ما أحمل من مقاطع غنائيّة فهو كان يسدي ما لديه من نصيحة، في ذات الوقت عرّفني سمارة إلى صديق آخر كان يعمل في "فرقة الإنشاد" هو حسين علي، حسين هذا كنّا حين

twitter: @ketab_n

نطيل الجلسة في المقهى نذهب معاً لنذرع شوارع بغداد وهو يؤدّي أغاني لعبد الحليم وعبد الوهاب وحين يفرغ يأخذ منّي مقطعاً مما أكتبه ويشرع فوراً بابتكار لحن له، مع تصويب هنا وآخر هناك بأنَّ هذا غير صالح للأداء وآخر جميل وآخر ينبغي أن يكون بصيغة أخرى، وحين بدأت النشر في الصحافة أخذت زياراتي لمقهى "القناديل" تخفّ، وتخفت في الوقت عينه كتابة الأغنية لديّ، حيث الشعر سحبني تماماً من كل شيء لأواجه مصيري معه في رحلة لم أعرف أنّها ستطول وتنأى بي صوب موانىء وشواطىء المجهول ونحو محطّات العالم.

وعوداً إلى صديق الطفولة، عبد الرسول عيدان، ممّا أذكره حوله، أنّه كان يردّد أغاني عبد الوهاب حين نكون معاً، وخصوصاً حين وصلنا إلى سن المراهقة، وصار يفهم ما تعنيه هذه الكلمات، كنّا في نفس السن، أقصد تاريخ الولادة، وفي سنّ السادسة عشرة، على أيامنا وأعني هنا منتصف الستينات، كان ثمة برنامج غنائي للهواة، اسمه "ركن الهواة" وكان من إعداد وتقديم كمال عاكف، ولقد تخرّج من هذا البرنامج مطربون مشهود لهم، أصبحوا نجوماً فيما بعد.

هذا البرنامج الجميل أخذ بلبابنا، وجعلنا كالآخرين نبحث عن فرصة لنا، عسى ولعلّ، والطامة هي ليست في عسى ولعلّ بل بالخامة والحنجرة والموهبة التي قد تمتلكها هذه الحنجرة مع حبالها الصوتية، وبالأخصّ أنا الذي أبدو لا أمتلك تلك الحبال مطلقاً، ماذا تقول لفتى في تلك السن، فإنّه من دون شكّ كان يمتلك اليقين

twitter: @ketab_n

الدامغ والكافي بأنّه موهوب في هذا المكان الحسّاس من هذا الفن الذي يتقبّل المداهنة والعيوب والخلل.

على أية حال، نحن مثل أيّ شاب في سنّنا كان لديه قناعة تامة بنفسه تقدَّمنا إلى برنامج " ركن الهواة " هذا، عبر رسالة بالبريد، انتظرنا قليلاً، واذا بالبرنامج يذيع أسماء مَنْ عليهم أن يأتوا ويحضروا إلى مقرّ "الإذاعة والتلفزيون" من أجل الاختبار، كان البرنامج بطبيعة الحال بالأسود والأبيض وقبل ظهور الفيديو، فرحنا حين سمعنا أسماءنا و لم ننم ليلتها كوننا قد نصبح نجوماً بين ليلة وضحاها وننقذ أنفسنا من منطقة فقيرة غارقة في الوحل والتراب وتعيش في الهامش، بعيداً عن الأضواء البغدادية.

صباحاً ذهبنا، لمّعنا احذية مهترئة، ولبسنا ملابس مكوية ورتقنا ما استطعنا رتقه، ودهنّا شعرنا بكريم أبيض مخصَّص للشعر فبدا لامعاً ومتوهّجاً تحت شمس الصباح، ثم وضعنا ربطة العنق المربوطة على شكل فراشة، اشترينا الواحدة بدرهم من الباب الشرقي، فظهرنا بحلّة قشيبة، مزخرفة، فبدونا ساعتئذ مثل المنشدين بكورس الإذاعة والتلفزيون، دخلنا واثقين إلى الجمع، وهم هواة مثلنا، سوف يتقدّمون إلى الاختبار، كانت القلوب تهبط من الأعلى لتنزل وتصبح بين القدمين ونحن نرى كمال عاكف ولجنة الإختبار وفرقة العزف الموسيقيّة، كنّا قرابة العشرين شخصاً، من سن العشرين وما دون ذلك، جاء دور عبد الرسول عيدان قبلي، فعزله كمال عاكف دون أن يكمل المقطع من أغنية عبد الوهاب، الكلّ مضى وغنّى وكنت الأخير ، فالمناداة كانت تتمّ وفق الحروف

twitter: @ketab_n

الأبجديّة، وحين وصل دوري، كاد صوتي يختفي، بحثت عنه وأنا أمسِّد رقبتي وأبلع ريقي وأفتِّش الحنجرة عنه وأتنحنح كعبد الوهاب قبل أن يدهمه مقطع الأغنية، نودي على اسمي وبدأ صوتي دون وعي مني يظهر ولكنَّه كان يتكسَّر بين يدي مثل قطع من زجاج، وحين سمع كمال عاكف مطلع أغنية " صافيني مرة " لعبد الحليم حافظ وألحان الموجي اللامع ، ندّت عن كمال عاكف إشارة، تعني أن أتوقَّف وعزلني مع خمسة عشر صوتاً غير صالح، لجنة التحكيم قالت رأيها في كلّ واحد منا، وأضافت أنَّها ستنتقي من هؤلاء الخمسة، صوتين لا أكثر وتشتغل عليهم من أجل الصقل والتدريب لكي يقدَّموا كمطربين ناشئين، وبالتالي عليهم العمل على أنفسهم لأن المنافسة كانت قوية بوجود مغنِّين محترفين، أحد أعضاء لجنة التحكيم قال لي: "لوغنّيت صافيني مرّة ألف مرّة فلن تصبح مطرباً، نقّبْ في قاعك وداخلك عن الموهبة التي هي فيك وتستطيع اتقانها، وأضاف بتحبّب ولطف ظاهرين، ألديك موهبة أخرى؟ قلت بخفر: "أجل كتابة الشعر" فنبر حينئذ وقال: "هذا شيء عظيم، فالشعر هوغناء ولكن من نوع آخر".

حين استوى عودي، وتصلّب قوامي، وطبعتني تجارب الحياة بصروفها وتحوّلاتها وويلاتها التي تتناسل مثل خيوط العنكبوت، أضفت لحصيلتي الموسيقيّة المتواضعة شغف البحث وتطوير الذائقة، وهذا ما كان ليتمّ لولا وجودي في لندن عاصمة الفنون دون منازع، عاصمة الضوء والحرية الملقاة على الرصيف وما عليك إلّا أن تلتقطها وأنت مارّ على أرصفتها، لتتمتَّع بها،

twitter: @ketab_n

وفق أصول وقوانين تطبّق على الجميع، فالحرية لا تعني الفوضى والتخريب والاعتداء على الآخر، بل تعني احترام الآخر والتزام ما يجري في البلد من مواضعات عامة.

من هنا انطلقت أبحث عن الفن في كل ألوانه، فهوموجود في كل مكان، في الساحات والحدائق والأبهاء الفارهة، والصالات الملكيّة، قدر المستطاع أنصت إلى ما كان يدور، وأيضاً لعب فوزي كريم دوراً في التفاتي إلى الموسيقى، ففي لندن كنت أزوره كثيراً في دارته الموسيقيّة، كانت لدى فوزي وهوشاعر رقيق ومبدع، أعمال كلّ عمالقة الموسيقى الكبار، عبره وعبر صحبتي له، استدللت إلى الجواهر الخبيئة في هذا الفن الفاتن والمريح للدورة الدموية، فكان فوزي حين يذهب للمكتبات ينقّب ويشتري العديد من الأقراص والرقائق الإلكترونية التي تضمّ الفرائد، في غرفته الرهيفة استمعت إلى سوناتا ضوء القمر لبتهوفن وكدت أذوب وأنا أنصت للحركة الثالثة في هذه السوناتا التي تعدّ من التحف الفنيّة القليلة.

من هنا اشتريت الروائع الكبرى، لكيما اطّلع وأفتح حاستي على ما لا أعرفه، فاقتنيت الروائع من ابداعات الكبار والملهمين ورحت بتؤدة أستمع إليهم، هذا عدا ما كنت أسمعه من نقاش ومداولات ومن تسجيلات بينه وبين الفقيد نجيب المانع، ولن أنسى تلك الأيام المرهفة حين كنّا نذهب للأسواق والمكتبات من أجل العثورعلى ما يروي الغليل من نوادر تباع بسعر زهيد في أيام سوق "الكاربوت سيل" حتى القاموس الموسيقي الذي معي الآن اشتريته من هذه الأسواق الزهيدة.

twitter: @ketab_n

حين اقتنيت النوادر اكتفيت بما لديّ، فغرضي كان الاطّلاع والمتعة، وليس بناء مكتبة موسيقيّة، إنّ هذه الإطلالة البسيطة والمتواضعة، جعلتني أعرف كيف تسلّل بتهوفن وشوبرت وشوبان وجورج بيزيه في رائعته "كارمن" إلى عبد الوهاب، وكيف ألمّ الرحابنة بالموسيقى العالمية وهضموها لنعرف كيف استلهموا موزارت وبماذا أوحى لهم وأين، وكيف توغل فريد الأطرش في عوالم اسحق البانيز ليُسطر مقدِّمة اغنية "الربيع" وأغنية "أوّل همسة"؟ وكيف كان السنباطي وزكريا أحمد يميلون إلى هذا وذاك من المشاهير في المجال الموسيقي العالمي ليبنوا رؤاهم بقالب عربي ويمزجوه ويضيّعوه في اجتراحات معجزة وساحرة ؟.

إذاً الموسيقى رغم إلمامي البسيط بها، كونها عالماً واسعاً ورحباً فهي قد عرّفتني إلى الأوبرا وجمال الصوت الأوبرالي وعرفتُ من خلالها الصوت السوبرانو وكم أوكتاف يمتلك وأين الإتقان والنشاز في الصوت، وعرفنا ما هوالجواب والقرار والعُرَب التي تُلوّن الصوت وتمنحه التموّج واستدللنا عبر الأوركسترا التوزيع الجمالي للآلات في العمل الموسيقي الجماعي وقد حسّنتْ الموسيقى، وطوّرتْ من أدائي الشعري دون شك، ولوأني عرفتها أكثر لأصبحت شاعراً أفضل، أتذكر مقولة لكاتب معجب به شديد الإعجاب هواميل سيوران، قال في شذرة من شذراته الفلسفيّة "مَنْ لم يستمع للموسيقى هوكائن خطر" .

أيضاً الموسيقى حبّبتني بالآلات الرقيقة والبهيرة، فمنذ طفولتي وبشكل خاص كنت أحب آلة الأكورديون إنّها آلة لها طعم الفاكهة النادرة، نغمها ملوّن وعذب، حين كنت صغيراً

twitter: @ketab_n

اقتنيت واحدة صغيرة من سوق الهرج في بغداد، ولكنَّها كانت معطوبة، استخدمتها لفترة قصيرة، ثم حوّلتها إلى لعب الأطفال، فهم يحبّون الطبل والطبلة والدفوف والآلات والصنج والآلات الصائتة التي تستخدم في الأعراس، كل طفل كان يحب الطبلة الصغيرة وحين كنّا نذهب "سيران" في سفرة إلى "السلمان باك" و"طاق كسرى" في منطقة "المدائن" كنا نأخذ معنا الرق والناي والطبلة الصغيرة ليضرب عليها الأهل صغاراً وكباراً، من أجل تلطيف مناخ الرحلة النفسي.

وكذلك كان حبِّي للآلات الوتريّة، الكمان والعود والهارب والرباب والجوزة والقانون الذي أعدّه من الآلات العربيّة المدهشة، برقّته وبسلاسة تعابيره وما يحتويه صندوقه من جماليات شرقية ناعمة نائمة في خشبه وجوفه السري المترع بالنغمات الحالمة.

هذا بالطبع دون أن ننسى الغيتار والكمنجات والسَكْسفون والصوائت النحاسية النافخة، تلك التي أذهلتنا بموسيقى الجاز الستينيّة والبلوز والبيتلز وما يتواتر من عازفي اليسار في تلك الحقب الجمالية، ناهيك عن جان لينون، جون مكارتني وثالث له نكهته الخاصة هو فرانك سيناترا الملهم بأغانيه العذبة "تلك هي الحياة" و"أغنية المقهى" التي تجعلك تتأرجح في نجمة، إضافة إلى ملك الروك ألفيس برسلي وغيرهم من مجانين هذا الفن المُقدّس والعظيم.

هذا دون أن أنسى ما كان يبدعه البيانو للموسيقيِّين، فهوكان لهم بمثابة الرئة الموسيقية التي كانوا منها يتنفسّون، البيانو

twitter: @ketab_n

بجلاله الباسط نفوذه في المكان، كان يُسحر مَنْ يؤدّي عليه، وينقل عليه اصابعه فهو الآلة الأسطورة بمفرده، وهوالأوّل من دون منازع والسبّاق لمعونة الموسيقار والمايسترو والمؤلّف لاجتراح العطاء الخالد، كونه يمتلك سبعة أوكتافات، أي طاقة هارمونية عالية ويوازيه بهذا وربمّا بوتيرة أقلّ وأنا على أية حال متذوِّق ولست عازفاً، الأورغ ببحّته الحزينة التي تعطي انطباعاً بالجلال والأبهة والهيمنة الماسيّة وبالأخص في الأبهاء والصالات الكبرى والكنائس ذات البنى القروسطية.

هنا وأنا أصف آلات الجمال الموسيقيّة، لا أحبِّذ الخوض في التحليل والبحث، لأنّي ببساطة لست محلِّلاً وباحثاً موسيقياً، بل شاعر، يحبّ الرقيق والناعم والساحر من هذه اللدائن الصائتة، ولَكَم أرغب ولديّ الشغف اللامحدود في معانقة الكمان، إنّه شبيه بمن نحبّ، وهوشيء قريب إلى الشغاف، قريب من وتر الحنجرة قريب من الترقوة والكتف والرقبة، وكلّ لدن وقابل للعناق، هو شيءٌ معشوق، الكمان آلة العشق الاستثنائي، آلة خلقت للعناق، للتواصل والذوبان في العناصر الأولى للخلق، آلة خلقت لكي تُقبّلها، فبينها وبين الفم مسافة قبلة، إنها الجهاز المتمّم لتمكين الكرة الأرضية من الانغمار في الدندنة واستخراج البلسم الناجع للإنسان.

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

الشعر والمسرح

في تلك السوانح الفضيّة، من ذلك الزمن الرومانسي الطافي على موجة الستينات، ذلك الزمن المرصّع بالأحلام والبراءات، ونحن لم نزل في سن السادسة عشرة والسابعة عشرة، سنّ البحث عن المعنى البكر، انخرطنا، عبد الرسول عيدان، صديق المحلّة، وجار الرضا، وصانع الطفولة من عجائن التراب المحلي، انخرطنا في البحث عن المسارح البغدادية، كان لدى عبد الرسول الذي سمّيته باسم فنّي في تلك الأثناء هو" رسلي العيد " مستنبطاً إياه من اسمه الأوّل والثاني، كان لديه ميل إلى التمثيل، وكان يمتلك حسّاً ساخراً ومتهكماً، مشرَّباً بالفكاهة، وهذا الميل طوّره من خلال الفِرَق المسرحيّة المدرسية التابعة للمدرسة.

بدأنا معاً في البحث عن دور تمثيلي، وحقاً جاءت الفرصة، فمثّلنا في المدرسة المتوسّطة أدواراً أعطيت لنا في مسرحية اسمها "أبودلامة" وهي شخصية تراثية، تاريخية، آنذاك كانت تأتي فرق تبحث عن المواهب وتُنمّي حسّ التمثيل وهاجسه داخل الفتيان، كنّا في الدراسة المتوسّطة، حين كان يأتي المبعوثون الفنيّون المرسلون من الإدارات العليا في وزارة التربية والتعليم، لتدريبنا على مسرحيّة ينتقونها وينتقون الممثّلين من الطلبة، في المدرسة، وكانت الرغبة

twitter: @ketab_n

لمن يحس في نفسه أنّه مؤهَّل لتقديم دور في مسرحية، فتقدَّم كلانا لها وقُبلنا ومثّلنا أدواراً ثانوية، وأذكر صديقاً اسمه ونّاس راضي، كان يشعر بانه ممثِّل، مثّل دوراً رئيساً في احدى المسرحيّات وحين تجاوز مرحلة الدراسة المتوسِّطة ومن ثَمَّ الإعدادية تقدَّم إلى أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد وقبل وقتها في فرع التمثيل.

من زاويتي، وفي ذات الفترة كتبت مسرحيّة باللهجة العامية تحت اسم "بائعة الحلوى" قدّمها على مسرح "ثانوية الجمهورية " صديق يهوى الإخراج المسرحي، كان يتقن الإخراج دون دراسة، مُثلَّتْ المسرحية وتمّ عرضها لمدة اسبوعٍ للطلبة، ورفض هذا المخرج الصديق أن أمثِّل فيها بحجة إني مؤلفها بينما الحقيقة كانت غير ذلك، فلقد أجرى اختباراً لي ووجدني غير صالح للتمثيل، ولقد مثّل فيها وأجاد "رسلي العيد" وفور انتهاء العرض، هببنا صديقي وأنا باحثين عن فرصة أخرى، فذهبنا إلى فرقة "١٤ تموز" نطرق أبوابها وكان مقرّها في شارع "النضال" مُقدِّمين أنفسنا على شكل مواهب ترغب في التمثيل، فما كان من البوّاب، إلّا أن أبعدنا، قائلاً إنّ الدخول فقط لأعضاء الفرقة.

حين كبرنا قليلاً، غادر صديقي العراق نهائياً إلى الكويت بعد أن أدّى الخدمة العسكرية، كان في الثانية والعشرين من عمره، فتقطّعتْ بيننا السبل، و لم ألتقِ به حتى هذه اللحظة، إنّه الآن يعيش في مدينة "ماينهام" الألمانية، أحادثه عبر الهاتف بين الحين والحين لنتواصل مع تلك الأزمنة الجميلة.

إنّ البدايات الطفوليّة هي ما تشحن الجسد بالغذاء الفني،

twitter: @ketab_n

ينمّيه ويطلقه حراً في هواء طري، رغم أنّني لم أصبح ممثلاً، لكن النظر نحو الأباعد، له قسط وافر في دفع الشاعرية لكي تتجدّد، وتُطوّر أداتها، ولا تجعلها وأعني الشاعرية لتصبح مترهّلة في خدمة اجترار النمط والتكرار ومن مسرح الطفولة ذاك العائم في النسيم، أذكر ممثّلاً مسنّاً في مطلع الستينات، اسمه جعفر لقلق زادة، كان يعتلي مسرح "سينما غازي" في ساحة الطيران، ليقدِّم لنا أطفال تلك الأيام نوادر فكاهية ومقاطع تمثيليّة، مُعدّة من قبله، ليقدِّمها لنا في الأعياد مقابل أجر زهيد، كنّا نستغرق في الضحك المتواصل وهو يترنّح على الخشبة بزيِّه الشبيه بملابس مهرِّج، جسد صغير، وقليل، ووجه ناحل ومستطيل، وأنف منقاري مدبّب وطويل كان يتمدّد على وجهه فيبدو لنا مع ما يرتديه كاريكاتورياً، مترعاً بطاقة هائلة من التعبير الساخر لإسعادنا، نحن كنّا نراه، مثلنا، طفلاً، يلعب معنا لعبة الاختباء.

أما في مطلع السبعينات وأواسطها، فكنّا نحن صحبة أصدقائنا الممثّلين والمخرجين، نذهب معهم إلى أكاديمية الفنون الجميلة، لنحضر التدريبات، أو لنشهد عرضاً مسرحياً جديداً معدّاً عن مسرحية عالميّة سيقومون بتمثيلها واخراجها، وكانت أغلبها تعدّ بمثابة شهادات تخرّج، والنصوص لمؤلفين عالميِّين، مثل "في انتظار غودو" لصموئيل بيكت ومسرحيّات شكسبير وماكبث وعطيل وهاملت والملك لير وغيرها من تراجيديات أبدعها عقل خلّاق، غدَت تُمثَّل على مدار قرون منذ ما يقارب الخمسمئة سنة، وحتى كتابة هذه السطور، لقد أذهل العالم شكسبير

twitter: @ketab_n

بفنّه الذي صمد طيلة هذه السنوات، لأنّه كابد وعانى وعرف سيكولوجية الآخر، عرف محنة الوجود وقدر الانسان على الأرض، وعرف معاناته، صبره، شكّه، ثأره، حزنه، تردّده، عرف كيف يواجه المجهول ويستغور أبعاده ليظهر هذه الدرر المسرحيّة، المأساة التي تتداخل في الملهاة، العقل المشتبك مع الجنون، الأرث والحبّ المتوَّج بالموت، بالإنغمار والمماهاة والذوبان في الآخر الذي صار بفعل الحبّ كائناً واحداً، كما كان مع أوفيليا وهاملت، السخرية المرّة في الملك لير، الإقدام والتراجع لدى البشر، القتل والانتصار والهزيمة، كل ذلك أبصرناه في مسرح شكسبير الذي يبدو أنّه أبدي، وشاهدنا على يد أصدقائنا المتخرّجين وقرأنا في تزامن مع التمثيل، مسرح جورج شحادة بترجمة أدونيس، مثل "مهاجر بريسبان" و"السيد بوبل" و"سهرة الأمثال" و"حكاية فاسكو"، وحضرنا مسرحيات لا تنسى، من أمثال "دائرة الطباشير القوقازية" و"بونتيلا وتابعه ماتي" و"أوبرا القروش الثلاثة" لبريشت، وتلمّسنا مفهومه للمسرح عبر منظومة دلالية تهتمّ بالوعي الماركسي، وتشرك المشاهد في العمل، أي يصبح المشاهد مؤلِّفاً وممثِّلاً في آن من خلال الفهم الدلالي للنص، وتوصّلنا إلى التحوّلات الفنية والسايكولوجية والحداثة في المسرح عبر صيغ وأطروحات ستانيسلافسكي و"إنَّ الشخصيّة ليست شخصاً في مكان ما في وقت ما، بل هي أنا، الآن، هنا، اليوم".

لقد أصبحت غالبية مَنْ كنت أعرفهم مخرجين كباراً، وممثِّلين بارزين، ولقد أمدّوا طيلة وجودهم في المنفى، كونهم يساريِّين،

twitter: @ketab_n

أعلنوا قطيعتهم مع الديكتاتورية السابقة والأيدولوجيا الفاشيّة، أمدّوا المسرح بفنّهم الذي طوّروه وأضافوا له بعد احتكاكهم مع المجتمعات الجديدة التي استضافتهم وأقاموا فيها.

كان عراق السبعينات يعجّ بالصالات المسرحيّة، تلك التي قدّمت العروض المحليّة والعالميّة، مثل فرقة " مسرح الفنّ الحديث "و فرقة" مسرح اليوم" وفرقة "المسرح الشعبي" و"مسرح الستين كرسي" وفرقة "المسرح العسكري" وفرقة "مسرح العمال" وفرقة "المسرح الحر" وفرقة "١٤ تموز" و"المسرح الجوال" وفرقة "مسرح الطليعة" وغيرها من الفرق التي لا أتذكرها الآن، كلّها ساهمت في تنشئة جيل مسرحي جديد، اطلع على المسرح العالمي الطليعي، وقدّم عبره رؤيته الخاصة، المشرّبة بنكهة محلية، فحضرنا مسرحية "النخلة والجيران" المستوحاة من رواية للروائي غائب طعمة فرمان، و"بغداد الأزل بين الجد والهزل" المستلهمة من التراث العربي، وغيرهما من الأعمال الكبرى، كلّها ساعدتنا في تهذيب الذائقة الشعريّة، بغية معرفة المونولوغ والدراما والديالوغ الذي أفادنا في شحن الطاقة الشعريّة بأمصال فنيّة من فن آخر، لكي نتمكّن في الأخير من تأدية الحوار داخل القصيدة، متعدّدة الأصوات والطبقات، ونسمو بها إلى طبقات جماليّة وفنيّة متباينة، فالحركة في القصيدة وظهور الشخوص فيها جاءنا من المسرح أيضاً، وعبرالمسرح فهمنا ما هومسرح القسوة، والمسرح النقدي، والمسرح الإغترابي، ومسرح الظلّ، والمسرح الهادف ـ الإشتراكي وكيف تُوظَّف الشخصيّات في المسرحيّات الشعرية،

twitter: @ketab_n

وكيف تُكتب، كما كان في مسرحيّات أحمد شوقي وصلاح عبد الصبور وخصوصاً في مسرحيّته "مأساة الحلاج" و"مسافر ليل" ولقد كتب العديد من الشعراء مسرحيّات تستوحي الأساطير تارة، وأخرى تحاكي التراث الرافديني والفرعوني والفينيقي، ولكنَّها لم تنجح أو تصل إلى المستوى الذي حقّقته مسرحيات عبد الصبور، كتب أدونيس وعبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف ومعين بسيسو والماغوط الذي عرف بمسرحيّاته النقدية الساخرة ولكنَّها ظلت دون وزن وثقل فنيِّين وتنقصها الخبرة الجماليّة، وكتب أيضاً الشاعر يوسف الصايغ مسرحيّات وربما الأخير أراه الأقرب إلى فهم المادة المسرحيّة ومن ضمنه بالطبع مسرح صلاح عبد الصبور الذي وظّف تقنيّات جماليّة عدّة في مسرحياته التي أُدِّيَتْ في أكثر من بلد عربي.

في أوروبا، سنحضر الأعمال الخالدة إيّاها، ولكنّها هذه المرّة، بلغة مختلفة، أي بلغتها الأم وخصوصاً مسرح شكسبير، فهنا سنكون على صلة تامّة بأجواء السينوغرافيا، بالمُشاهد الذي سنرى كيف هو يتلقّى المشهد الشكسبيري، وكيف سينفعل معها، أو كيف سيتعامل مع الدهشة، وهي تقفز من الخشبة إليه؟ وهل سيُعامل العمل الشكسبيري بنوع من الوقار والترحاب والإنصات مثلنا، فوجدنا من خلال هذا التماس، أنّ الإنسان واحد أينما كان وأينما عاش، رغم اختلاف الثقافة والهوية، فهوكائن واحد، مشاعره هي هي إزاء المآسي الكبرى، إزاء الوجود والمحن الإنسانية التي يستعصي عليه حلّها، إزاء الموت والخلود ومآثر الحياة وانتكاساتها

twitter: @ketab_n

وهي تقود الكائن البشري إلى مطبّاتها الكثيرة خلال عمره القصير، تراجيديّات مثل عطيل وماكبث والملك لير وهاملت، كلّها كانت ترسم نفس التعابير على وجوههم وملامحهم، وخصوصاً أنّها نابعة، أي هذه المآسي الكبرى الشكسبيريّة، من عالمهم وآتية من وحي معاناتهم ومكابداتهم الوجودية.

في المنفى عربيّاً وعالمياً، سيتألّق مخرجون موهوبون لتقديم منجزاتهم الجماليّة للعرب وللأوروبيّين، وسيُشرِكون في أعمالهم المسرحية الإبداعيّة فنانين عرباً وأوروبيّين، وسيعيدون ما قدّموه في بغداد وسيجترحون الإضافات الجديدة لعالمهم ويقدّمون الخبرات التي اكتسبوها في هذا المضمار والفوائد الفنية التي درسوها وتعلّموها في الخارج، دون أن يتخلّوا عن عالمهم المحلّي، وهنا لا بدّ من ذكر ما قدّمته روناك شوقي وجواد الأسدي واسماعيل خليل وفاضل السوداني وفلاح هاشم، وحازم كمال الدين وكاظم الخالدي هؤلاء جميعهم على صلة وثقى مع الشعر والشعراء، ولقد أفاد الأخيرون من المسرح ومن صحبة هؤلاء الكثير، لقد دخل النص المسرحيّ برؤيته الجمالية والفنيّة وطاقته التعبيريّة إلى القصائد وتسلّل إليها، من أجل أن يكون النص الشعري لدينا قابلاً للتماهي مع الفنون الأخرى وقابلاً للتداول لفترة زمنية أطول، معلّلين النفس بالنصوص المسرحيّة الخالدة.

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

الشعر والفن التشكيليّ

جلّ الأجيال الشعريّة في العراق ارتبطت بعلاقة فاتنة مع الفن التشكيليّ، وغالبيّة الشعراء منذ الروّاد

وحتى الآن أسّسوا لسياق إستيتيكي يجمعهم، وجعلوا من الأفق الفني ضوءاً يجري في حقل الشعر، فانخرطوا في عناق فني دائم، وساروا معاً في نار التجربة الإبداعية، ممسوسين بلهبها الذي انضج أعمالهم، لتكون مادة سحرية مدموغة بلون الكلمات.

إنّ الجيل السبعيني، تمثيلاً لا حصراً، كان معظم شعرائه لديهم علاقات مع الجيل السبعيني في الفن التشكيليّ، فكانت حتى الهموم والتطلّعات والنظرة الفنيّة ـ تكاد أن تكون واحدة، فهم وأعني هنا الرسّامين والشعراء، كانوا يَتَمَقْهَون معاً في مقاهي بغداد المتنوّعة والكثيرة، وكانوا يجلسون إلى مائدة واحدة في المقاصف والحانات والنوادي الليليّة، مدفوعين بوسواس الخلق والابتكار والاجتراح الفني، وكان النظارة لا يفرّقون بين الشاعر والرسّام، أحياناً يكون الشاعر رسّاماً أيضاً وبالعكس، كلاهما كان ينحت جماله الخاص تحت أفق آلهة الفن والجمال، فينوس، وبمباركة مِنْ يَدَيْ أبولو إله الشعر وبمسٍّ من إزميل فيدياس النحات

twitter: @ketab_n

الإغريقي القديم مجترح الجماليات، صانع الوجوه والأجساد والاشكال للآلهات الميثولوجية، وبِحُنُوٍّ من الواسطي، الرسّام العراقي الأوّل وبتربيتة على كتف الشعراء من أبي الطيِّب المتنبي، كي يلهم أحفاده فن الشعر.

كان الجيل السبعيني، جيلاً مخضرماً، وعلى دراية وفهم واطلاع في استبطان أسرار الفنّ التشكيليّ، وقد كوّن حاسة نقدية، عبر اتصاله المباشر بهذا الفن، وتحصّل على رؤية نافذة إلى جوهر العملية الفنيّة وسديمها الرفيع، وكنّا في تلك الأيام الخوالي، نرى معرضاً أومعرضين وربما ثلاثة في اليوم، حين نخرج في مسيرتنا اليوميّة التي كانت تبدأ من أكاديمية الفنون الجميلة، مروراً بباب المعظّم وشارع الرشيد وانتهاءً بالباب الشرقي وساحة الطيران وشارع السعدون وساحة الأندلس، مسيرة أقدام كانت تقهر حجر الطرقات وهي تضرب في جوفها، هائمين، شاردين، باحثين عن الجمال الخبيء في الأروقة الجديدة والصالات والقاعات التي كانت تنتشر في فضاء هذه الأمكنة.

في أكاديمية الفنون كنّا نزور المحترفات الفنِّية، ونرى كيف يعمل اصدقاؤنا مع أساتذة وعمالقة الفن التشكيلي العراقي، تحت ظلال اليوكالبتوس وبين أجمات الآس، كانوا ينشرون لوحاتهم غاطسين في عجائن الألوان الحارّة والنابضة بوليد سيظهر على الحامل الخشبي، بعمل فنّي سنراه وهم يمارسون الفتنة النائمة في الجروح اللونيّة، وفي استنطاق مكنونات المادة السادرة بين الصبائغ من أَكْريليك وألوان مائية وزيتية، ساخنة وبهيجة، تتوهَّج

twitter: @ketab_n

بالولادة والتفاصيل المجسّدة في التتشخيص، وثمَّة فن الغرافيك، فن الجمال الصامت في الكانفاس، في الورق وفي القماشة المبلولة بالسحر الموحي بالرموز والإشارات، والحفريّات العميقة في معاني الطبيعة وأسرارها التي تهب الفنّان الكثير من كنوزها كلّها كنّا نراها في الفضاء الأكاديمي، عدا النصب والمنحوتات التي كان يقوم بها الأصدقاء كتمارين يوميّة على التكاوين الحجريّة ـ المرمريّة، تماثيل من الجبس والخشب والبرونز، ومن خردة الحياة اليومية، متمثِّلين بابلو بيكاسو الذي كان يجمع الحدائد الصدئة والمرميّات والعتائق من أمكنة المتروكات ليعود ويبثّ فيها الحياة مجدَّداً، صانعاً من الصدأ والزنجار والتنك والبراغي القديمة والمسامير المعوجّة عالماً جديداً رافلاً بالحداثة والفن الفاتن الذي به كان يقهر حتى عناد المادة ونهايتها غير السعيدة، لذا اضحى الأصدقاء يذهبون في أقق هذا الفن بعيداً ليبتكروا لوحتهم وطرازهم الخاص بهم وبمحليّتهم وبمنشئهم الشرقي ذي الأفق المحلّي ـ العراقي.

رسّامو هذا الجيل، كانوا مهووسين كالشعراء بالرسم، فهم كانوا يستغلّون أيّة سانحة وبرهة وفرصة عابرة، ليؤكّدوها بتخطيط ورسمة وشخبطات سوريالّية تعنّ في الرأس لتنزل هكذا، على هيئة أشكال فنطازيّة، أو تجريديّة، أو تشخيصيّة، في تخطيط لوَجْهٍ جالس في مقهى، وجه عراقي يحمل تاريخه الشخصي من هموم ومحن وذكريات فائتة، ليخطّطه الرسّام من دون علم من الجالس في المقهى أمامه يدخّن ويشرب الشاي، أو يؤرجِل ويلعب النرد والدومينو، بعضهم يرسم ويخطط حتى في الباصات

twitter: @ketab_n

في رحلاته اليوميّة من البيت إلى الجامعة والمقهى والحانة، يفتح كراسة الرسم ويشرع يِؤرِّخ للحظته العابرة، فهو قد يرسم امرأة متسوّقة جالسة في الباص، أو سيِّدة جميلة بغدادية من الطبقات الراقية لفتت نظره بعطرها أو تسريحة شعرها أو بجمالها الفارع الذي يراه في الباصات الحمراء ذات الطبقتين، وقد يرسم الجابي، وهو يقطع التذاكر للراكبين، البعض ينزل إلى النهر، في وقت الأصائل، كان هناك مقهى نهري، نسمِّيه مقهى الشطّ، قريب من تمثال المتنبي المطلّ الآن على شاطىء دجلة، كنّا في العصريات الشاطئيّة، نذهب إلى هناك لنستمتع بلحظات الغروب والأصائل البرتقالية التي ترسمها الشمس على الأفق، فيرسم الأصدقاء وقتئذ ما يحلولهم من مناظر طبيعيّة، الزوارق الخشبيّة الملوّنة، حركة الشبّاك في الماء وعلى السواحل الرمليّة، الأعشاب في الضفاف، زِيّ السماكين البغدادي، السلال القصبيّة وفيها شتّى الأنواع من السمك النهري، الذي سيصبح على يد مَنْ يقتنيه مائدة لذيذة، أشهرها السمك المسقوف، حركة المراكب والأشرعة الخفّاقة في الهواء وهي تعبر مُحمّلة بالركّاب الذاهبين إلى الكرخ الجهة الثانية من بغداد، وتكون المراكب عادة محمَّلة بالنساء والأطفال والحيوانات وسلال التسوّق والطلاب العائدين في هذا الخطّ النهري الذي كان يبدو لهم أسرع وأجمل ويختصر مسافات هم في غنى عن أن ينفقوها في الباصات والشوارع المزدحمة والعطفات والساحات الكثيرة، ما زال هذا الخطّ النهري يعمل حتى الآن من قبل عبّارين لهم زوارقهم البخاريّة وقواربهم العادية التي تعمل بشكل يومي وبحركة دائبة طوال الوقت.

twitter: @ketab_n

حين يوفي الرسّامون المشهد حقّه، سيميلون إلى الحانات الضاجّة بالشاربين، من شتى المشارب، ليجدوا هناك ضالّتهم، في القدح الذي تعوم فيه المخيّلة، فيرسمون القناني التي تفنّنوا بها والطاولات وشراشفها والثملين المتحلّقين حول الشراب والدخان الطائر على شكل سحابات وحيوانات وهيئات مختلفة وهو يُحلّق في سماء الحانة، شعراء يتجادلون حول قصيدة، شاعر منفوش الشعر، يرتدي زِيّ البيتلز ويتزيّا بأزيائهم، نقّاد يشهرون أقلامهم على شكل رماح في وجوهٍ الكتّاب والأدباء، رجال حزينون يحدبون على أقداحهم، منكسي الرؤوس، شاعر يقرأ في كتاب ولحيته تتدلّى على أوراقه، شاعر يتشاجر مع صاحبه، سكارى يترنّحون، ثمالى يتفكرون ويتداولون أمراً ما، كل هاته الأشياء كان يتنبّه لها أبناء جيلي من الرسّامين السبعينيّين.

إلى بيوت الطلبة، تلك التي كان يسكنها طلاب المحافظات كنا نذهب لنبيت فيها، أو لنشرب، رغم المنع في إدخال المشروبات الكحوليّة إلى هذه البيوت، وهي عبارة عن غرف كثيرة متلاصقة مع بعض، وكان كل طابق يحتوي على أكثر من خمسين غرفة، كما أظنّ، وفيه مرافق ومستلزمات السكن الشبابي، وكانت الغرفة الواحدة يتقاسمها أكثر من طالب، كنّا نأتي إلى الأصدقاء، لنرى همومهم ومواهبهم المعلّقة على الحيطان،أو المتّكئة على الجدران، بعضهم كان يرسم لوحات كبيرة، تأخذ أحياناً مساحة نصف الغرفة، بعضهم كان ينحت وينام مع منحوتته وخاصة إذا كانت امرأة، بعضهم كان يضع النصب الصغيرة في الخزائن الحديد، مع

twitter: @ketab_n

قمصانه وصحونه وأدوات الإستخدام اليومي، كان هناك ممثلون في بيوت الطلبة هذه وموسيقيّون، وكان الجدل حامي الوطيس، وكانت النظريّات الفنيّة تركض وتتطاير في الأروقة وبين الغرف، وتتسلّل مثل الفئران من غرفة إلى غرفة ومن رواق إلى رواق ومن طابق إلى آخر.

كنّا في هذه الأوقات، ندرس اللوحة بكلّ تفاصيلها، ونحلّلها ونشير إلى الطاقة الكامنة في تضاعيفها ومساحاتها الفنيّة، التشريح في اللوحات التشخيصيّة، المسافات بين الأعضاء، درجات الضوء والظل، ودرجات العتمة والفراغ، مساحة الصمت التي كانت تشغل أغلب اللوحات التجريديّة، التأثيرات الحديثة الوافدة والمنقولة، من الرسّامين الهولنديّين والفرنسيّين والإيطاليّين والأسبان، كلّها كانت تُثار وتُناقش، هذا عدا تأثيرات الروّاد على أعمالهم كجواد سليم وفائق حسن ونوري الراوي والشيخلي وجميل حمودي وكاظم حيدر ومن الستينيّين رافع الناصري وضياء العزاوي، من هذا الجيل، وأعني السبعيني، ظهر نقاد تشكيليّون مثل عادل كامل وفاروق يوسف وسعد هادي لهم رؤيتهم وخبرتهم وباعهم الطويل في نقد الشؤون التشكيليّة.

كان هذا الجيل الفنّي، جيلاً قارئاً، متعدّد الثقافات، مطّلعاً على التجارب العالميّة بشكل كبير ومدروس وله إضافاته في استخدام الموروث الرافديني القديم، فنّ سومر وأكاد وبابل، جيلاً اطلع على تاريخه الفني بدراية وعلم ودراسة، وفّرتها الظروف المناسبة إلى حدٍّ ما له، مثل المجلّات التراثية التي كانت تعتني بالتاريخ

twitter: @ketab_n

العراقي القديم، أبرزها مجلّة سومر التي كان يشرف عليها الأب انستانس ماري الكرملي، عدا الكتب التي كانت تطبعها وزارة الثقافة التي كانت تهتمّ بهذا التاريخ، أبرزها ملحمة كلكامش التي ترجمها طه باقر عن السومرية وكتاب عن الواسطي وكتاب عن الحياة اليوميّة في بابل وغيرها الكثير.

لم ألتقِ برسام من جيلي، أوبشاعر لم يعرف شاغال ودولاكروا وخوان ميرو ورافائيل وبيكاسو ودالي وفان غوخ وليجيه وغالْمت، ومارغريت وسيزان وموديلياني ومانيه ومونيه وغوغان الذي انتهج المدرسة الوحشيّة أسلوباً له وتولوز لوتريك الذي يذكرني دائماً بالألوان الساخنة والرقص وعالم الغواني وكوربيه الذي رسم الفرج وسمّاه "أصل العالم" وسمكته التي صارت مثل مادة تعليميّة للرسّامين حيثما كانوا وغيرهم الكثير مِمَّن أغنوا التراث العالمي والفنّي بلوحاتهم الشهيرة.

فمدارس مثل الانطباعيّة والتكعيبيّة، والتنقيطيّة والتجريديّة، والسريالية، والواقعية الإشتراكية، ومراحل مثل المرحلة الورديّة والزرقاء، وغيرها من المراحل التي تختصّ بالتحوّلات الزمنيّة مثل الحروب والمجاعات والاعتقالات والاضطهاد كلّها جُسّدت في لوحات فنية تتحدّث عن مراكز الاعتقال والسجون وقمع الحريّات الفردية، وبخاصة تلك التي ظهرت في الفترتين الفاشيّة والنازيّة، يُضاف إليهما الفترة الستالينية، وخير مَنْ جسّد هذه الأعمال الفنّانون الفرنسيّون والأسبان والإيطاليّون والروس، وثمّة لوحة لا تُنسى تشير وتُظهر الإضطهاد والكبت والإسكات

twitter: @ketab_n

القسري، هي لوحة الصرخة للفنّان النرويجي مونخ التي أظهرت الطاقة الإنسانيّة المقموعة للكائن البشري، تلك الصرخة التي تنشد التخلّص من كابوس الطغيان والقمع والتنكيل بالبشر.

كل هذه الخبرات والتجارب والظواهر والتقليعات الجديدة، ساعدت القصيدة، وأمدّتها بأهمّ عنصر فنّي وهو اللون المتخفّي في نسيج القصيدة، فظهرت لدى شعراء جيلي، القصيدة اللوحة، المشرّبة بالخطوط اللونيّة، ممّا هيّأ للقصيدة الشروع بالتنافذ التشكيليّ، على نحو عام، وذلك مكّن من تطهيرها من فن الزخرفة والتطريز البلاغي ـ اللذين كانا ينهكان هيكل القصيدة.

ما عتم حتى ظهرت إلى العيان القصيدة التي تعتني بالتناسق الهارموني في مزج الألوان بالكلمات والإفادة من الطرق الموحية للّون داخل القصيدة، أي تحويل اللون في القصيدة إلى رمز دلالي كاف ودال من خلال توظيفه بالشكل الذي تريده، فالأحمر بات له مدلولاته داخل القصيدة والأزرق له معانيه، والأسود له مقاصده والأبيض له مغازيه والأبيض له إشاراته الموحية، لم تعد القصيدة تُبنى لغوياً فحسبُ، بل باتت تُبنى وفق رؤى فنّية مختلفة، من ضمنها ما يزخر به الفن التشكيلي من جمال تعبيري صامت وخافت، فيه قرائن تضمّ حقولاً دلالية وشفرات تستبطن المضمر والمستتر القادر على لفت الأنظار إلى اللون والتشكيل داخل القصيدة.

وكذلك بات الأمر مع اللوحة فهي بدورها تماهت مع الشعر،

twitter: @ketab_n

فصرنا نرى اللوحة الشعريّة، تلك التي نقلت قصائد ووظّفتها فنّياً وجمالياً في مساحتها وفضائها اللوني، قصائد كثيرة نقلت في لوحات فثمّة، تجارب لافتة في هذا المضمار لضياء العزاوي، هناك من نقل المعلّقات وآخر مَنْ وظّف قصائد كجواد سليم ومَنْ أفاد مَنْ جو وتفاصيل وحركيّة القصيدة ومشهدها، هذا ناهيك عن اللوحة لوحة الحروف وهي تفيد من تجارب الشعر الصوفي كالحلاج وابن الفارض وابن عربي وظّفت الشعر في لوحات عربيّة ـ حروفيّة، وقد تجلّى ذلك لدى كلّ من الرائد الحروفي ـ التشكيلي شاكر حسن آل سعيد ورافع الناصري، وضياء العزاوي وعبد الغني العاني وحسن المسعودي وغيرهم من الجيل السبعيني مـمَّن استغرقتهم هذه التجربة الملوّنة بالكلمات والحروف وبالجمل والمقاطع الشعريّة .

كان الجدل حول الشعر والفن التشكيليّ شاغلنا اليومي، نقرأ ونرى ونتفحّص ونشاهد، نتعرّف على التجارب العالمية، ونقيس بها ونقارن بينها وبين المواهب العراقية الجديدة، من أجل التطوّر والنهل من المعرفة الجماليّة، كان يومنا مترعاً، بالتواصل مع هذا الفن، كانت هناك رسّامات من أجيال سبقت جيلنا اشتهرن وعرف العالم العربي تجاربهن المثيرة والمستحدثة في هذا المجال المفعم بغابات من الألوان التي تعكس تموّج العالم وحركته وجماله المنطوي في نسيج الطبيعة، ومن جيلنا يمكن الإشارة إلى أناهيد سركيس وعفيفة لعيبي ورملة الجاسم اللواتي واصلن تجاربهن التشكيلية بجدارة وإتقان ومعرفة جمالية بأسرار وخفايا الأبعاد القديمة والمعاصرة لهذا الفن العالمي.

twitter: @ketab_n

كنّا نحن شبيبة ذلك اليوم، نطوي بغداد مشياً على الأقدام، وكان التسكّع مهنتنا، نخترق المدينة المقسومة إلى مقطعين، كرخ ورصافة، ولكأنّنا كنّا نطوي في سيرنا هذا سجّاداً وشراشف ونطوي الهواء الهابّ من الضفاف، نعبر الجسور الجميلة التي لطالما كانت مادّة دسمة للرسّامين وحتى الشعراء، نعبرها إلى الكرخ حيث الدهر يكون رقيد المناطق التاريخيّة، في عاصمة المنصور وهارون الرشيد، فثمّة قبر السيّدة زبيدة في تلك النواحي وضريح الحلّاج والجُنَيْد والخضر والشيخ معروف وثمّة المحطّة العالميّة، تلك التي شيّدها البريطانيّون على الطريقة الإنجليزيّة، كنا نذهب إليها ونرى المسافرين الذين سيذهبون إلى اسطنبول وأوروبا، لقد سافر بعض أصدقائي في هذا القطار في رحلة إلى بلغاريا، منهم مَنْ كان يذهب عبره إلى رومانيا، وهنغاريا، كانت هذه المحطة صلة الوصل بيننا وأوروبا، طريق برّي جميل يذهب بك إلى الموصل ومن هناك تكمل إلى الأراضي التركيّة باتجاه اسطنبول، عاصمة الخلافة الإسلامية سابقاً، كنّا نذهب إلى هذه المحطّة لنشرب القهوة ونحلم بالسفر والإنطلاق في يوم ما من المستقبل في هذا القطار المريح إلى العالم.

كان الرسّامون معجبين بالقبّة الدائرية المزخرفة بالأرابسك والتوريق الفيروزي الشرقي، كانت المحطّة واسعة نذهب إليها لنشرب الشاي والقهوة، وحين نُشْبِع هاجس السفر بالحقائب والمعاطف والقبّعات والبدلات السموكينغ، ننسلّ حالمين بالمناطق البعيدة والمجاهل والعالم الغريب، لنعود مرّة أخرى إلى واقعنا،

twitter: @ketab_n

نتجوّل في الرحمانية، في الأسواق القديمة التي ترك الزمن عليها بعضاً من شمائله، نتسكع في اللحظة الفاتنة ونشير إلى جمال الشناشيل، تلك المشربيّات الخشبيّة الناعسة والظليلة المتاخمة حدودها لبعضها، شناشيل بدت كأنها تُقبِّل واحدتها الأخرى، وحين نكون في الرصافة، تلك المكتظّة بأسواق القماش والحبوب وبالتجّار الذين يقيلون في الظهيرة وهم في دكاكينهم المبرَّدة بمراوح منضديّة وسقفيّة أو المجهَّزة بمبرّدات وطنيّة، تدفع بالهواء البارد إلى السوق ليكون ناعساً في الهواجر والقائظات الصيفية، أسواق تتداخل وتتشابك مع بعضها، وثمَّة مطاعم وباعة شاي في هذه الأزقَّة الصغيرة، كنّا نأتي لنتناول الكباب في مطاعمها ونسترق النظر إلى التجار الصغار وهم يقيلون في الظهيرات، فيبدأ اصدقائي برسمهم، كان هناك مقهى "الخفّافين" وهو قريب من شارع البنوك وصرّافي العملة المنتشرين هناك بكثرة، كنا ننزل إليها أحياناً مع زاهر الجيزاني وخليل الأسدي وشاكرلعيبي الذي لطالما قرأ قصائده الجديدة لي في ذلك المقهى، وقرأت عليه بدوري قصائدي، مستأنسين بآراء بعضنا، وأذكر أني قرأت لشاكر في هذا المقهى الجميل الذي كنّا ننزل إليه بدرج يقع في الأسفل، قرأت قصيدتي الطويلة "بانوراما الأزهار" فوق البسط المزركشة بالقماش الملوّن وعبق سحابات رائحة الهيل وأبخرة الشاي المتصاعدة من السماور الذهبي ذي الموقد الفيروزي المزوّد بأباريق خزفيّة زرقاء، تضفي على المكان نوعاً من الدفء والألفة والتضامن الأخوي، خصوصاً في فصل الشتاء .

twitter: @ketab_n

وإذا ما خرجنا إلى الأسواق المجاورة، سنجد أنفسنا في سوق الشورجة، سوق الأفاويه، والحبوب والمواد التموينيّة، إنّها سوق كبيرة - تضج بالباعة الراجلين والمستقرّين في محلات ودكاكين السوق الكبير هذا يضوع بالروائح والعطور والأريج الغامض لشتى الأنواع من مستلزمات الطعام والتموين المنزلي والحياتي وما يحتاجه الإنسان في تدبيره اليومي.

لذا كان الشاعر والروائي والقصّاص والرسّام، قد يجد هنا مادته الحيّة، فثمّة مشاهد لا تحصى تندّ عن السوق وتصلح لموضوع فنّي وشعري وأدبي، تسدّ حاجة المخيّلة وما يتراقص أمامها من حيوات وتصاوير وأفعال واقعيّة تخوض عُباب الحياة.

حين نكمل السوق وهوعالم قائم بذاته، يذكّرني بسوق كبير، في أمينينوبمدينة اسطنبول، لسعَته ولتعدّده ولاحتوائه على كلّ ما تطلبه النفس من حاجات بشريّة، حين نكمل يظهر أمامنا ومن الطرف الآخر لشارع الكفاح "سوق الغزل"، على أيامنا كان مكاناً مفعماً بالأصواف والأقطان والخيوط، مكان لتجمّع الندّافين والحلّاجين والحاكة والغازلين على أدوات شبه بدائيّة، خشبيّة ووتريّة، تنتج خيوط الكتّان والحرير، وخيطاناً من الصوف والقطن والوبر، هناك كنّا نرى الروّافين والخيّاطين والراتقين وعمّال المصابغ الملوّنين بالأصباغ والأحبار والألوان الرمّانية الملتهبة، هناك استوحينا العديد من التصاوير والرؤى والسكيتشات، فأنا كتبت قصائدي "الرائف" و"البزاز" و"الإسكافي" و"السمّاك" و"الحمّال" و"الصائغ" و"النجّار" و"الحوذي" و"النوتي" وهي تستلهم هذه

twitter: @ketab_n

الأجواء الشعبيّة الحميمة، والرسامون انخرطوا يرسمون النّدّاف والحائك والحلّاج والقصّاب ودور المصابغ والدباغة وغيرها مما يسترعي النظر ويحثّ الرؤى والخيال على العمل الفنّي.

هذا السوق كان يتفرّع منه سوق آخر، هوسوق باعة الطيور والحيوانات، الذي بدوره سيطغى على المكان ويتولّى صدارة السوق برمّته، بعد أنْ تلاشت تلك الحرف الشعبيّة وظهرت التّقنيّات الآلية والميكانيكيّة، سيظهر باعة هذه الكائنات الرهيفة، وحين زرته أخيراً بعد طول غياب وجدته يبيع حتى الحيوانات الضارية، كالصقور والنسور والكلاب البوليسيّة الخطرة التي تستخدم في الحماية، هذه وجدتها إلى جانب الطيور والحيوانات الأليفة، كالقطط الشيرازية والكلاب الصغيرة، والأرانب، والببغاوات المبهرجة الألوان، والديوك البرتقالية المقاتلة، والطيور بأنواعها بدءاً من عصافير الحبّ المزركشة ذات الأشكال والأحجام الساحرة، وانتهاءً بالدرّاج والحجل والقبج والزاغ واللقالق والبطّ والإوزّ وديك الحبش والطاووس والنسور والصقور بأنواعها.

منذ تلك الأيام شكّلتْ هذه الطيور والحيوانات مادّة دسمة وغنيّة للشعراء والرسّامين، ودخلت إلى اللوحة لتستريح فيها وتأخذ مكانها في زاوية ما من اللوحة والقصيدة والمنحوتة والأنواع الأدبيّة الأخرى، أو لتغدو هي اللوحة والمنحوتة والقصيدة، كما ظهرت في النصب الصغيرة لأصدقائي من التشكيليّين الذين يعملون بالنحاس والطين والجِبْس والخزف والخشب، أو في قصائد العديد من أبناء جيلي وغيرهم من الأجيال، مثل قصائدي

twitter: @ketab_n

العديدة عن الطيور وكمثال على ذلك ديواني الذي يحمل عنوان "هدأة الهدهد" وقصيدتي الطويلة النثرية "مسلّة الطيور" وغيرها من القصائد العديدة التي لا تُحصى في عالم الطير التي كتبتها، هذا ناهيك عن عالم الحيوان، وما يحفل قاموسه بالجميل منها، كل هذه الكائنات الرقيقة، كنّا نصادفها ونتفحّصها وأحياناً نشمّها، ونروز أرجلها ومناقيرها ونقلّب الأجنحة ونقيس مستوى الزغب في القوادم وفي الخوافي ونبحث عن الحمام ذي الأطواق وذي الحجول والمُرسّم بلون قهوائي، لنبحث عن السر الكامن في طيور "الزاجل" التي كانت تقوم بنقل البريد الطائر، وكانت بمسعاها تكون قد أدّتْ وظيفتها على أحسن وجه وأسرع من ساعي البريد الساعي على درّاجة هوائية أو درّاجة نارية والطيّار على متن طائرة والسائق في مركبة تابعة للبريد، هذه الطيور الذكيّة التي كانت تنقل رسائل الغرام والحبّ للعشاق، وتنقل البريد الحربي للمتقاتلين أيام لم يكن هناك من طائرة ومركبة، هذه الطيور البديعة، يحبّ العراقيّون اقتناءها، ويُحسنون تربيتها، حيث منازلها الصغيرة، الرقيقة ذات الأقفاص تكون دوماً فوق سطوح المنازل، طيور الزاجل أضحت على أيدي الرسّامين العراقيّين مادّة باهرة، وكذلك دخلت قاموس الشعراء، ولطالما انهمك الرسّامون من أبناء جيلي برسم الصقور والنسور، مبتعدين قدر الإمكان عن الخيول التي كانت ثمرة عمل دؤوب وإنتاج لوحات شهيرة ومميّزة من يد الفنان الرائد والمجدِّد فائق حسن، وصحبه من الروّاد الذين رسموا أيضاً الخيمة والجمل والأفراس والأحصنة.

twitter: @ketab_n

كنّا إذاً نسبح في هذا العالم، قاطعين التيّار الملوَّن، ولكن باتجاه معاكس لكيلا نكرِّر الذين سبقونا وحقَّقوا مطامحهم وإنجازاتهم الفنيّة والإبداعيّة، سبحنا عكس التيار لنجترح طرائقنا الجديدة والمستحدثة، تلك الكلمة التي لم تُقَلْ قبلنا، وضربة الفرشاة التي لم تَكُ خرجت من يدٍ قبلنا، كنا نمتح من ضوء عميم، ومن قافية مختلفة، نادت بالتجاوز والتغيير والعبور إلى مناطق غير مألوفة، طرق الانتقال وهدم الثبات والقطيعة مع النمطي والعادي والمتماثل، كنّا نبحث عن الغريب والدفين والمحيّر والصعب والضائع، في الأزقة والشوارع والساحات والأسواق والمقاهي، كانت البيئة البغدادية القديمة أيضاً تمنحنا العطاء، بتصاميمها الشرقية وتشكيلاتها العربية، وسماتها في طريقة البناء، الغرف المتجاورة، الحوش، الطوار، والمكان المكشوف للشمس غير المُسقّف، تلك البيوت التي تدخلها الريح والمطر والبروق، مثلما يدخلها الهواء والشمس والغبار، يدخلها الليل والنهار والصباح والهواجر والأصائل، أي أنّك تحسّ بما يتدفّق اليك، من أضواء وظلال ونسيم وما ترسله لك السماء حين تغضب من شهب ونيازك ورعود، هذه كلّها كنت تراها في هذه البيوتات والمنازل الشعبية المتواضعة والمبنيّة منذ عشرينات القرن الفائت.

هذه المنازل، كانت هدفاً لنا، هدفاً لأفكارنا وخيالنا الفني الباحث عن الجماليّات في الأشياء المثيرة والقديمة والصغيرة - الخاليّة من التعقيد، باب منزلي مفتوح وراءه طفل يحبو، شبّاك وراءه ستارة شفّافة وخلفها فتاة تحلم بفتاها الذي يحلم من خلف

twitter: @ketab_n

نافذة بفتاة ما، سطح عليه حبل غسيل وملابس منشورة، سطح عليه قُلل من فخّار، سطح عليه فتاة الجيران تلمّ الغسيل وترمي بنظراتها من وراء السياج الحجري القصيرالى الجانب الآخر، نساء بضّات يتلفّعن بأريج الأزمنة البغدادية القديمة، مسك وقرنفل وحناّء يضوع وينفذ من الشبابيك الملوّنة ذات الزجاج المعشّق، كلّ هاته التفاصيل الناعمة، كانت هدفاً للرسّام العراقي الذي انبجست موهبته في مطالع السبعينات.

في منطقة "الحيدر خانة" وهي فسحة تنتسب إلى شارع الرشيد، استأجر العديد من أصدقائي غرفاً لهم في هذا الحي الشعبي، خصوصاً أبناء المحافظات، كون المكان يقع في مركز بغداد وقريباً من الجامعات والكلّيات، وقريباً من المقاهي وسلسلة المطاعم الشعبية، أبرزها مطعم " ابن سمينة " وقريباً من الحمامات الشعبيّة التي كنّا نذهب اليها، طلباً للتمتع بتصاميمها التركيّة والعباسيّة القديمة، إنّها تذكّر بأجواء ألف ليلة وليلة، الدفء السابغ، الماء اللاذع، الضباب المتلألىء الذي يجعلك تُغيم في غيمة من نعيم، شراب الدار صيني" القرفة " بعد الحمام، الشاي الأسود ـ المُهيّل الذي يرفدك بالمتعة الدنيوية، ثم الخفّة التي تشعر بها بعد زوال الأيام الشعثاء من جسمك، فتحسّ كأنّك طيف قادر على التحليق والطيران في العذوبة.

هكذا كان التناغم قائماً بين الرسّام والشاعر، ثمة معارف جماليّة وفنيّة ورؤيويّة متقاسمة بين الإثنين، ولائم تمتد أطباقها من اللون والكلمات، الرؤى والمعاني، الشطح والتخيّلات، الإشراق

twitter: @ketab_n

والتمتمة بمفردات الإلهام وهي تهبّ من عمق لوحة وجوف قصيدة.

كان التعاون الجمالي قائماً بين الطرفين، فديوان الشاعر شاكر لعيبي الأوّل "أصابع الحجر" المطبوع في بغداد، صمّم غلافه ورسم رسوماته الداخلية الفنان قاسم الساعدي المقيم حالياً في هولندا، ومخطوطة ديواني الأوّل الذي لم تُقيّض له الظروف أن يرى النور "بانوراما الأزهار" رسم غلافه ورسوماته الداخلية الفنّان فاضل محيسن المقيم حالياً في برشلونة، وكذلك ديواني "قصائد أليفة" وهو يعدّ كرونولوجياً، الديوان الأوّل، بعد أن أهملتُ تلك المخطوطة لأسباب فنيّة وجماليّة، حمل أيضاً "قصائد أليفة" لوحة للفنّان التشكيلي هاشم سمرجي، وضمّ الديوان بين دفّتيه قصائد تحاكي الفنّ التشكيلي وتترسّم بشغف رؤاه، مثل قصائد " تخطيط بالحبر الصيني" و"الرسم بالزيت" و"حفر على الخشب" و"نحت في الشجرة" وستظل هذه اللازمة الفنية التشكيلية مرافقة لبعض أعمالي الشعرية اللاحقة، تستغور عالم الفن التشكيلي لتستنبط وتستوحي ما يلائم كلماتي من ألوان منثورة هنا وهناك.

لعلّ هذا الانهماك والتماهي منحني بصيرة فنيّة وزوّدني بذائقة أفرزتْ جوهراً نقدياً يستطيع أن يميّز العملَ التشكيلي الجيّد من السيّىء، ببساطة ودون لفّ ودوران غدا بإمكاني الإشارة إلى الإبداع الحقيقي من الزائف، وفرز المتطوّر عن المتدنّي، وغدوت أنظر إلى الأعمال الخالدة والعظيمة نظرة إجلال وخشوع وتقدير، صرت أقف في متاحف العالم أمام اللوحات الأصليّة، وقفة الحيران

twitter: @ketab_n

أمام الجمال المتقن المسكوب في اللوحة، وأجعل أتحرّى الزوايا والبواطن، متأمّلاً درجات اللون والضوء والإشراقات المنبعثة من التحف والجواهر الثمينة المعلّقة في الصالات العالمية، علّ هذا الجمال المعلّق يمنحني شيئاً من سرّه الدفين، ويعينني على تخطّي الزمن الصعب والحياة الشائكة، ذات الحفر والمطبّات والعوائق اليوميّة، أقف لأستعين بالرؤيا الباطنية وهي تنغل وتعمل في باطن اللوحة، فهي مَنْ سيمنحني البعد الخامس لكي أعبر به الأبعاد الأربعة دون شِباك وشرك، خفيفاً باتجاه الطمأنينة.

ومن مقلب آخر، إنّ هذه السمة، وهبتني رؤية ملوّنة تجاه الخليقة والخلائق، حيث لوّنت حياتي فاختلط الأسود بالأبيض والأحمر بالأصفر، أي لم يعد لحياتي اللون الواحد والنسق الواحد والبعد الواحد، بل اتسقت مع حياتي عدّة ألوان لتبلور حياتي بدورها لونها الخاص.

من هنا غدوت إنساناً متسامحاً مع معطيات الوجود واستحقاقاتها الكثيرة والمتشابكة، حتى اختفى البعد الواحد منّي، لاكتشف بالتدريج الأبعاد الأخرى، وحين اطمأننت إلى البعد الرابع الذي احتواه الزمن، صرتُ أنظر إلى خفايا البعد الخامس الذي لم اكتشف كنهه وماهيته، فظللت راضياً ومقتنعاً في رحلة البحث هذه التي أريدها مستمرة ودائرة في محيط هذا البعد الغامض والمجهول.

إن الهيمان باللامعلوم والتحديق الدائم فيه،سوف يدلّك

twitter: @ketab_n

دون شك إلى عالم المرئيات، فمنها ستكتشف قيمة الرؤيا وأبعاد العصيّ واللامرئي.

في أفق هذا المنظور، اكتسبت معارف بسيطة خاصة بي،حيث أهّلتني هذه النظرة الملوّنة بالفطرة، معرفة اللوحة المفبركة من الأصيلة، وكما قال إليوت عن الشعر يوماً: "هناك قصيدة جيِّدة وقصيدة رديئة" وما علينا إلّا اكتشاف ذلك، إنّ مجرَّد إلقاء نظرة للوهلة الأولى إلى لوحة، فإنْ كنت تملك السر والمفاتيح، فبسهولة ستكتشف الجمال أوالصنعة، ثم الفذلكة والكذب والزخرفة الحرفية التي يتمتَّع بها بعض مَنْ يتقن فن الزخرفة والقالب والرخص الفني، إنَّ نظرة أولى قد تجعلني المس الصمت في اللون والشغل والدراية بأسرار هذا الفن المبهر، ثمَّة حركة اللون والظلال والزمن وحركة الأشياء المبهمة.

لعلّ أسفاري في الزمن والرؤيا والمكان هي مَنْ منحني هذه الخاصية، لقد تجوّلت كثيراً في العالم ورأيت كيف يكون الفنّ الراقي ـ الفنّ المبدع، النادر والأصيل، مثل الديدبان كنت أنفذ إلى المدينة التي أحلّ فيها، لأكشف قاعها وأسفلها وما يشغل بنيتها العامّة بشكل عام، أنفذ مثلما تنفذ الظلال إلى الأمكنة، ذاهباً إلى المتاحف والمراكز الفنيّة لأسبر عمق الجمال الكامن فيها، فحين أكون في فرنسا على سبيل المثال يكون من المحتَّم عليَّ زيارة اللوفر ومركز جورج بومبيدو والصالات والمتاحف الفنيّة التي تعجّ بها باريس، دون أن أتخلى عن زيارة موقع المونتمارتر المترع بالسِّيَر الفنيّة للرسّامين في هذا الحيّ الفنيّ المسيّج باللوحات والنُصُب والأيقونات الفنيّة.

twitter: @ketab_n

في لندن ثمَّة المتحف البريطاني الذائع والمرقّش بالروائع، "التيت غاليري" وصالات الفنّ الحديث التي لا تعدّ لكثرتها، في أسبانيا هناك المعارض الدائمة لرسّامي إسبانيا المشهورين، أبرزها معرض بيكاسو في غرناطة، هنا لا نريد أن ندخل في تعداد البلدان الأوروبيّة التي تتنافس فيما بينها لتكون الأفضل بجلب زبائن ونظارة أكثر، فالفن هو الذي يحدّد هوية المدينة، هو مَنْ يعطيها القيمة والمعيار، إنَّ المدن الأوروبية تتنافس على كم تمتلك من لوحات للمشاهير، وكم تمتلك من منحوتات ونصب في ساحاتها وشوارعها وحدائقها والمتنزهات العامة.

وكم تمتلك من مراكز فنيّة، يستطيع الزائر أن يجد فيها ضالته وتعطّشه الجمالي، فالمدن الراقية والمتقدّمة في أوروبا هي هكذا تفتخر بمبدعيها وفنّانيها وشعرائها وروائيِّيها، وليس بسياسيِّيها وقادة الأحزاب ورجال الحكومة فيها، لهذا أجد نفسي مديناً لهذه المدن المنيرة ومديناً لأصدقائي الأوائل من شباب جيل السبعينات التشكيلي، تلك النخبة التي كانت تبحث عن اليوتوبيات في عالم صغير ومحدّد مثل العراق، فقر وانقلابات واحترابات إيديولوجيّة، مخابرات ومخبرون وشرطة تقص شعور الفتيان وتصبغ سيقان الفتيات، انتهاكات وسجون ومعتقلات واذلال متواصل وقهر قسري وقمع يعطى بدلاً من الرغيف وقنينة الحليب وطبق البيض، قادة ثابتون، دكتاتوريّات تسعى لكي تتأبَّد، طغاة صغار وكبار، قتلة ومأجورون، كلاب بوليسيّة، توريث الجمهوريّات، ابتكار الديستوبيات، ابتكار الدياسبورات، مصادرة الأموال والعقارات،

twitter: @ketab_n

اغتصاب الأفكار والعقول والأجساد، احتلال الحياة بالشعارات والرايات الكاذبة، ادعاء القوة والزعامة والتسلسل الديني، نهب الأموال، شراء الذمم والمفكرين، شراء الشعراء الفاشلين، زمن عجيب زمن الدبابات التي تحتلّ المدن وتقهر الأنهاروالنخيل، زمن الحروب والدم المهدور وسعره من سعر التراب، الماء الملوَّث، المناخ المشبع بالبارود والمواد الكيميائيّة، الجثث المحروقة، المدن المحروقة، الحجر المحروق، الماء المحروق، الذهب المتفحِّم، البترول المهدى لهذا وذاك، السلاح المشترى بمال المساكين ودمعهم ودمهم وجلودهم الواجفة، السكين المغروز في الخاصرة، العمل الشعبي، الجيش الشعبي، الحرس القومي، الحرس الخاص، الجيش المحتلّ، إعدام التجار، إعدام اليهود إعدام الأكراد، الطبر وأبوه، قبضة عدنان القيسي، الطحين المسموم، قتل الشيوعي، قتل الكلاب الضالة، القطط الضالة، بعث الأمة من الرماد، وطائر الفينيق من المزابل، قوس النصر ذوالسيفين، الحراب المرفرفة في الدم، وأد الوحدة من قبل الوحدة الأمنية، بناء مكاتب التحقيقات، بناء قصور النهايات، بناء القصور للرئيس، الرقابة على المطبوعات منع الآلة الكاتبة، منع السَتلايت والقنوات الفضائيّة، منع الهاتف النقّال، منع الأنترنيت، منع الكتاب منع الفيلم، منع المسرحيّة، منع القصيدة، قتل الشاعر، قتل الرسّام، قتل الروائي، حرق الرواية، حرق الكتب وتمجيد ستالين والدعاية النازية إلى الخ الخ الخ الخ...

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

الشعر وحامله

كنت صغيراً، حين كانت لديّ كلمات، وكنت أحار كيف أحملها وأين أضعها؟ وأيّ وعاء ذاك الذي سوف يستوعبها؟ ولمن سوف أعطيها لكي يستخدمها ؟ وإذا ما استخدمها أحد هل سيجد فيها شيئاً؟

كنت أتساءل، هل الكلمات هي غذاء حقاً، وما فائدته ؟ وهل هو غذاء ضروري للإنسان ؟ أم يمكن الاستغناء عنه، والغذاء هذا هل هو الخيال، أم الرؤيا ؟ وهل هو غذاء رمزي كما يقال داعم للروح وللأعماق البشريّة كما يقول الذين يفنّدون هذه الكلمات ؟

إنّها أسئلة محرقة، تلك التي كانت تراودني وأنا احمل ناراً من الكلمات في داخلي، وبينما أنا أخوض غمار هذه التجربة، وأجوس في متاهات البحث عن حلول لأسئلتي المؤرِّقة، حيث كنت اقطع الطرق وأسأل عن منافذ وأستبصر الحلول، حتى حدثت تلك اللحظة لأجد بطريق المصادفة وأنا لم ازل غِرّاً و لم أنشر حرفاً، ولا أعرف لمن أتجه بحمولتي الشعرية البديئة، إعلاناً وأنا أمرّ بالجامعة التكنولوجيّة القريبة من محلّتنا آنذاك، وجدت اعلاناً لمن يرغب بالنشر في الجريدة الحائطية، فانبريتُ حقاً من

twitter: @ketab_n

دون تلكُّؤ، بإعطاء قصيدة للمشرفين عليها، لم أكن وقتها من طلاب الجامعة ولا من منتسبيها، وانتظرت وبعد مضي فترة من الزمن وجدت القصيدة منشورة في الجريدة الحائطيّة مع وجود قصيدتين إلى جوار قصيدتي، وكانتا للشاعرين الشابين يومئذ رعد مشتت وعادل طه سالم، ثم التقيتهما في تلك الأثناء لنقرّر وبطلب من الهيئة الأدبيّة في الجامعة اقامة امسية شعرية في قاعة الجامعة لقراءة نتاجنا الشعري وما نُشِرَ لنا أيضاً في الجريدة الحائطيّة من خربشات، وبالفعل تـمّت إقامة مهرجان شعري مصغَّر لنا ولطلاب من الجامعة، حيث تـمّت القراءة لنا ولهم من دون أن يذكروا أننا وافدون من خارجها باستثناء عادل طه سالم الذي كان يدرس فيها، وهونجل المؤلِّف المسرحي المعروف طه سالم وشقيق الممثِّلة الصاعدة شذى سالم ولكأن الشعر هوهكذا في العراق هواء شائع للجميع .

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أصعد فيها إلى منبر شعري، والمرّة الأولى التي أنشر فيها شيئاً يكون قريباً إلى حدٍّ ما من عالم النشر، لقد اهتديت عبر هذا اللقاء إلى منفذ وكوة صغيرة، جعلتني أصرّف ما في جوفي من كلمات أتعبني حملها والدوران بها في الأزقة والأسواق والشوارع، كنت أحسب أنّي وصلت إلى طريق النشر، وأحسست في دخيلتي أنّني صرت قاب قوسين أو أدنى من طبع ديوان، و لم أكُ أحسب في تلك الفترة، أنَّ المسافة في هذا الفن جدّ طويلة، مليئة بالصعاب، قلقة، شائكة، مُرّة وفيها كدّ وعناء وكما قال شاعر قديم "إنّ الشعر طويل سلّمه".

twitter: @ketab_n

لم أعد أتذكّر شيئاً من قصيدتي، و لم أنشرها فيما بعد لا في مجلّة وجريدة ولا في ديوان، لقد كتبت فيما بعد قصائد لا تُحصى ونشرت أغلبها، ولكنّني لم أنشر شيئاً من تلك القصائد في ديواني الأوّل "قصائد أليفة" ولكنّي أتذكّر في هذا الصدد مقاطع من قصائد الشاعرين الصديقين، فقصيدة رعد مشتت أذكر منها هذا المقطع "أعشاب في أنف الزعيم السياسي"، لحظتها كنا نعجب من هذه الصورة الشعرية، وكيف تأتي لشاعر شاب صغير مثل هذه المباغتة الشعرية وهذه الصياغة السريالية، أما عادل طه سالم الذي قضى في حادث مؤسف ببلغاريا في أعوام التسعينات من القرن المنصرم فقال: "علّموني أن أجلس اليوغا، علّموني الجلوس فوق رؤوس القناني " كان هذا البيت الدلالي فيه إشارة وإدانة وتصريح واضح ضد القمع الذي بات يستشري في البلاد منذ وصول البعثيّين إلى السلطة في انقلاب عسكري، بحيث كان لم يمض على وجودهم أكثر من عام.

بانطواء هذه الحادثة، تبرز حادثة أخرى، وهي تأتي قبل حادثة الجامعة التكنولوجيّة بسنوات، بطلها هذه المرة شاب مقعد، يتعاطى الشعر، في كوخه الطيني الذي حوّله إلى كشك صغير لبيع الشاي والسكر والسكاكر والسجائر لبعض من يسكن في قطعة متربة من منطقة أبي غريب، هذا الفتى حسن علي، كان يكتب خواطر تقترب من أجواء الشعر من دون ناظم وقياس ووزن، مجرّد كتابات تتوسّل الشعر وتدخله من باب السجع وتوارد القوافي وتصادم الجمل ببعضها، كنت أحمل نفسي من "تل

twitter: @ketab_n

محمد" ومعي كتاباتي الأولى، كتابات تحتاج إلى صقل وتهذيب وخبرة بالمكتوب، كتابات لا أدرك المعيار الذي يثقل داخلها، لا أعرف مستواها الفنّي والجمالي، شخبطات تشي بلوعة ما ترسف في داخلي، لكنْ هل اللوعة كافية؟ فهي موجودة عند صديقي الجديد حسن علي أيضاً، ثمَّة أمر غائب عنّي كان وعن حسن علي، هو الفن، هو التجربة، هو العمل والإتقان، هو التحكيك والاختزال، هو التزوّد بالمعرفة، أنّى كان مصدرها، فطلب العلم حتى ولو من الصين ضروري لي ولحسن الصديق المقعد الذي يعتاش نصّه من التأمّلات والشطحات الوجودية التي تراكمها حالته السايكولوجية وانغماسه بطرائق فيلولوجية غامضة بدت لي في حين، وسطحيّة ومباشرة في حين آخر، امّا انا وتبعاً لحالتي النفسيّة وهي مرتبطة بالبحث عن نافذة أطل منها على عالم الشعر الذي كان يهيمن عليّ كعمل سيميائي يكمن وراءه خيميائي يطاردني بعلاماته التي صارت تتلبّسني شيئاً فشيئاً، حتى بتّ واقعاً تحت سحر العلامة، تلك التي كَوَتْ موضعاً في الخيال وآخر في الشغاف وثالثاً في الروح، إذاً " لا مناص من حبل الخلاص " كما قال البياتي عبد الوهاب يوماً، لقد تورّطت في الشعر وفي الهيجان والغليان والسحر الذي كان يتركه فيّ، فأين السبيل، ولمن أعرض بضاعتي الخياليّة، ليس إذاً سوى الصديق الشاعر المقعد حسن علي الذي عرّفني ودلّني عليه أيضاً صديق الطفولة الأثير عبد الرسول عيدان، حين كان مُكلَّفاً حينذاك بتأدية خدمته الإلزامية في سريّة تابعة للجيش رابضة في منطقة أبي غريب، تعرّف عليه حين كان يمرّ عليه ليشتري تبغاً يجعله يواصل حراسته في ليل القرية البهيم.

twitter: @ketab_n

حين انطوت تلكما الحادثتان حلّت ثالثة أخرى، جاءت بعد تينك الحادثتين، كنت وقتئذ، قد وجدت حلولاً ومنافذ ومخارج لأحوالي الشعرية، ووجدت سبيلاً للنشر، حيث بدأت اتلمّس خطواتي بتأنٍّ وتؤدة، فليس ثمة مَنْ يركض ورائي لأسرع بما أحمل، فحملي يخصّني أنا بدرجة أساسيّة وليس لأحد غيري له حق التدخل بما أحمل من مواجد وتطلّعات ورؤى، أحمل همّي الملفوف في أشعار أشتغل عليها وأشذّبها وأعيد النظر في الصنيع، أقرأ مَنْ سبقوني، لأرى كيف يعملون، أين التألق وأين الهِنات ؟ أين النجاح في هذا البيت وأين الضعف والفشل ؟ من هنا تحتّم عليّ المتابعة والغوص في القراءة واستشفاف الأسرار والمعاني، وبينما أنا في هذه الحال من الاستغراق في القراءة، حادباً على كتاب في يديّ في الباص الأحمر، حيث أصعد إلى الطبقة الثانية لأدخّن وأهرب من الزحام وعلى أيامي كان التعداد السكاني للعراق في مطلع السبعينات لا يتعدّى العشرة ملايين، كنت أصعد لأرى أيضاً جماليات شارع الرشيد وما يزخر به من واجهات متنوّعة، في تلك الوهلة تناهى لي صوت هامس ومجاور لمقعدي، قال أحبّ ما تقرأ، فأنا أيضاً، أقرأ وهوايتي القراءة والكتابة، من فورها أصبحت صديقاً لباسم خلف، وهويعمل خطاطاً ومساعداً لأخيه الخطّاط في مكتب دلّني عليه في "حافظ القاضي" إحدى مناطق شارع الرشيد.

في المكتب الصغير الذي نصعد اليه بدرج، نجد لوحات مخطوطاً عليها، إعلانات، لافتات للتظاهر الحكومي والنقابي، خطوط جميلة، موحية، وأنيسة، تنطوي على فنّها في قطع من

twitter: @ketab_n

قماش وخشب وورق مقوّى، خطوط فنيّة، فيها جمال الخط الكوفي، والثلث، والنسخ، غابة حروفية كانت تتمدّد في هذا المكتب الهادئ والبعيد عن الضجيج المعهود في شارع الرشيد.

إلى هناك كنت أمضي لأقضّي ظهيراتي، عند الصديق باسم خلف الذي كشف لي عن كتاباته الشعرية وتجاربه الأولى، كان يصغي إلى قراءاتي له ويشيد بما أكتب، وكان حين أنهي القصيدة يأخذها منّي ليكتبها مرّة أخرى بخطّه الجميل، المتماسك، الأنيق، مبعداً قصيدتي عنّي وعن خطي الرديء، ذي الكلمة الكبيرة، والمتورّمة، تلك التي تحمل زوائدها الكتابية غير المشذّبة والمتأنّقة، حين يكتب باسم القصيدة بخطه تحلو بعيني وأجدها صالحة للنشر، فأسارع فوراً لنشرها.

كان هذا المكتب مكتب لقاء، مكتباً للتطوّر والمشاورة بالقراءات والقصائد والأسماء، مكتباً لبحث الأدب وجديده مع صديق دمث يتحلّى بأخلاق راقية وعذبة.

عدوى جمال الخط تسرّبتْ إليّ، فألفيت خطّي يتحسّن ويأخذ أبعاداً ومنحنيات أخرى، غير تلك التي كانت تندّ عنّي، لقد سحرني حرف باسم وأثّر فيّ بريق سطحه والضوء الكامن في عمقه الداخلي.

أما كتابته للشعر، فكان باسم خلف لا يعوّل عليها كثيراً، كان يرى في نفسه هاوياً، يحبّ الكلمات والحروف، يعشقها ويغازلها كأنّها بنات جميلات بشرائط وقلائد ودبابيس، كان حين يخطّ

twitter: @ketab_n

الطاء يقول إنّها مؤخّرة البنيّة، وحين يمد الزاي يقول إنّه ذَكر الفتى، وحين يلتفت إلى الألف يقول إنّه أنفها والراء حاجبها، والباء فمها، والتاء شفتاها، والنون هو عينها والكاف عضوها الجنسي، إلى آخر الابتكارات الخطيّة التي تشهق بها مخيّلته الحروفية.

كان باسم خلف الخطاط، لا يهتمّ إنْ كتب شعراً أم لا، فهو كان يعتبر كتابته للشعر تسلية وهواية، وكان يقرأ ما عنده، دون أي اعتبار للدرجة الفنية التي تسم عمله، المهم أنّه يكتب ويقول ما في جوفه بطريقة بريئة وصادقة، وكان لا يعنيه وغير ملتفت لما يجري في سياق حداثة الشعر من تطوّرات أصابت جوهره وشكله ومساقه التاريخي، بل كان يكتب ويخطّ ويقرأ في الشأن اليساري، ويستمتع بما أعطيه من قصائد ليخطّها لي بقلمه النضر.

أذكر مرة أعطيته دفتراً كبيراً، كتبت فيه قصيدة نثرية، طويلة، على نحوسردي، فيها حمولات صوفية وسورياليّة وسياقات فنية وشكليّة، متأثراً كما أتذكّر بكتاب لمحيي الدين بن عربي، وفيما بعد وفي سفرتي الأولى إلى باريس في العام ١٩٧٦ تلك السفرة التي كانت بامتياز سفرة نهلستيّة، شعريّة، بوهيميّة، التقيت بأدونيس في بيته الأوّل، وكانت شقّة مستأجرة، صغيرة، صحبة كاظم جهاد، أعطيت هذا الدفتر الكبير لأدونيس، لكي يقرأه ويعطيني انطباعاً عنه، مرّت أيام، ثم التقيته في الشقة ذاتها، فأعطاني الدفتر وأثنى عليه شفوياً، من دون أن يكتب عليه أيّة ملاحظة، كان اسم المخطوطة "فصول من عصر المماليك".

twitter: @ketab_n

غبّ ذلك وبعد مرور سنوات على تلك التجربة، أي تلك القصيدة التركيبيّة، ذات المسرد النثري والمتن الحكائي، تطورّتْ أداتي، وحصل تغيّر كبير في ذائقتي الشعرية، حين عدت إلى الدفتر لأنشره، قرأته بعين الناقد الحصيف، فتراجعت فوراً عنه، وأهملته وقلت في داخلي: "هذا ليس أنا" لكنّي احتفظت به و لم أتلفه، رغم تنقّلاتي الكثيرة وإقاماتي المتعددة وتشرّدي الطويل بين مدن العالم، بقي معي، في اقامَتَيَّ الإثنتين في باريس، ثم بيروت حيث الحرب الأهلية والحصار الإسرائيلي، ثم دمشق وزواجي هناك بعد الحصار، حيث إقامتي في الشام، ثم رحيلي إلى قبرص، وحين رحلت بعد إقامة ست سنوات فيها،غادرتها نهائياً إلى براغ، في براغ تخلّيت عن الدفتر، لما تركنا حقيبة صغيرة فيها حاجيات وملابس لم نستطع حملها معنا إلى لندن، مع طفلين وزوجة، ذاهبين إلى مصير غير معلوم، ولاجئين للمرة الأولى إلى بلد أجنبي، العائلة التشيكيّة التي سكنّا عندها احتفظت بها، ولا نعرف حتى هذه اللحظة مصير الأصدقاء التشيك الذين تواصلنا معهم لفترة وجيزة ثم انقطعت الصلة بيننا، لأمر يتحكّم به الزمن والظروف ومسالك الحياة عادة.

كان مجيئنا إلى لندن، قبل انهيار جدار برلين بستة أشهر، ذلك الجدار الذي أنهى بسقوطه التاريخي والمدوّي حقَبَ الأنظمة التوتاليتارية، وهدّ ما يُسمَّى عندنا نظام البلدان الإشتراكية.

لتبدأ بعد ذلك مرحلة التشابه وفقدان الهويّات والخصال والمميّزات التي تسم الشعوب عادة، لتبدأ مرحلة نظام السوق

twitter: @ketab_n

والخصخصة، البنك الدولي، النظام الجديد، الهيمنة الإمبرياليّة على الاقتصاد العالمي، غياب العامل الجماعي، وحلول العامل الفردي، المنافسة غير العادلة للسوق، ظهور المافيات المالية، ازدياد عدد الفقراء في العالم مع ازدياد ثروة الاغنياء في العالم بشكل ملحوظ عبر لغة الأرقام الخياليّة، وغيرها الكثير مِمّا يرسمه عقل الكومبرادور والتنين الآلي الذي فكّك الحياة العامة وحوّلها إلى عزلات ومكوّنات نائية، بعيدة عن التلاحم البشري.

أين باسم خلف الآن ؟ لقد مرّ أكثر من أربعين عاماً، على هذه الحوادث، واليوميّات الصغيرة المعجونة بماء الصداقة، أين مكتبه ؟ لقد زرت العراق قبل شهور، ومررت بشارع الرشيد وبالمكان القديم، لم ألمس سوى رائحة الذكرى، سوى العطن المتروك في الأعمدة وشقوق الأبواب القديمة، انطوى الزمن كمنديل ورُمي جانباً، ليصبح خرقة تابعة للتاريخ العراقي المتشقق، ليصبح جزءاً من الفوائت والمتروكات البالية، كشارع الرشيد نفسه، بأعمدته القديمة وأفاريزه البغدادية والدرابزينات الشرقية والدكاكين التي جلس الدهر في زواياها كثيراً، حتى أنَّك بإمكانك أن تتلمَّس مقعد الدهر وحفحفات مفاصله وأصابعه على الحيطان والدكّات والجدران والحجر المحكوك بأنامله وأطرافه وباستطاعتك أن تتشمّم أنفاس الدهر في كل متّكأ ومحطّ ومقام، الدهر هوصنو المدن التاريخيّة وشقيق المباني القديمة، كسوق حنون، وسوق الغزل وسوق الشورجة، وأسواق حلب القديمة وأسواق مصر القديمة، كالسوق العربي في تونس وأسواق طنجة وفاس والدار البيضاء

twitter: @ketab_n

العتيقة، فالدهر قد تراه في سوق البزورية في دمشق يتمشى بقامة منحنية، وقد تصافحه حين تراه يبتسم من وراء التجاعيد من نافذة في شارع الرشيد، وحين تقترب من النافذة أكثر لتنظر عبرها، علّك تجد خلفها باسم خلف جالساً مع الدهر يشرب قدحاً من الشاي، متأمّلاً حياته عبر النافذة، حين تصل لا ترى إلا صورتك معكوسة على زجاج النافذة العكر والمغمور بالظلال والأفياء المستكينة.

twitter: @ketab_n

الشعر وإصداره

حين صدر ديواني الأول "قصائد أليفة" كنت عائداً توّاً من باريس، من سفرتي الأولى، في مطار أورلي الفرنسي، ودّعني الصديق الروائي شاكر نوري، وكنت قد أمضيت ليلتي الباريسيّة الأخيرة، في بيت الصديق الشاعر شوقي عبد الأمير، وأنا في الطائرة كنت فرحاً بعودتي إلى بغداد، وأحلم برؤية ديواني الأوّل الذي سيصدر وأحلم برؤية الأهل من جديد والأصدقاء، وبينما أنا في الأعالي والطائرة أصبحت في الأجواء السويسرية، حدث عُطل في الطائرة، وبالتحديد في الجناح الأيسر منها حيث أجلس، في الحال تخلخل المكان وبدأت الطائرة تهتز وتخضّنا، فطمأننا الكابتن عبر مايكرفونه بأنَّ الطائرة دخلت في مطبّات جويّة، فما هي إلّا ثوانٍ ولسوف نخرج من هذا الروتين، بعد مضي دقائق قليلة ازدادت القلاقل، وحدث صخب من لدن الركاب وأخذ البعض منه يبسمل ويقرأ آيات وبعضهم أخذ يعلن الشهادة، لم يكن في الطائرة، سوى خمسة فرنسيِّين على ما أذكر والبقيّة عراقيون، طلبة عائدون، سيّاح، تجّار، رجال أعمال ومسافرون عاديّون يذهبون لغرض العلاج والطبابة ورؤية أحبتهم مِمّن يدرسون ويقيمون هناك، بعد ان أصبحت الطائرة في وضع غير

twitter: @ketab_n

مطَمْئِن، قال الموجود في القمرة إنّنا سنعود إلى باريس مضطرين بسبب وجود خلل بسيط في الطائرة، فيرجى الإنتباه إلى ذلك والتزام السكينة وعدم الخوف والارتباك لكي نصل سالمين إلى مطار " أورلي ".

في تلك الأثناء من اللحظات الحرجة، لم أكن خائفاً من الموت، لكنّي كنت أدعو من الله أن نصل سالمين، لأرى على الأقلّ ديواني الأوّل، ولا يهمّ بعد ذلك ما يحدث لي، فبدأت أبسمل كالآخرين وأطلب المزيد من الشراب، دعاء وشراب، حتى وصلنا إلى مطار أورلي سالمين، استقبلتنا سيّارات اسعاف وأطفاء ومسعفون، لم يُغْمَ على أحد منّا، سوى رجلين متقدّمين في السن كانا ذاهبين في رحلة علاج، في الحال تمّت استضافتنا في فندق مطار أورلي على حساب شركة الخطوط الفرنسيّة، و لم أجد في تلك الظروف المفاجئة والمكلّلة بالنجاة سوى مهاتفة صديقي شوقي عبد الأمير الذي تفاجأ بالأمر، و لم يجد بدّاً وهوفي غمرة المفاجأة سوى شرح الأمر لزوجته الجزائريّة الأولى وأنا أتحدّث اليه من فندق مطار أورلي.

في بغداد وبعد مرور أيام قليلة، عرّجت على وزارة الثقافة، في الباب الشرقي، لأرى الشاعر عبد الوهاب البياتي، كعادته أبو علي استقبلني على ما يرام، ببسمته الجميلة وكرم ضيافته، شاي وقهوة ودعاني إلى تناول الشراب في حانة، صحبة عبد الرحمن طهمازي، وكانت امامه على الطاولة نسخ من الإصدارات الجديدة للوزارة، مِنْ ضمنها كان ديواني، فقال خذ كلّ هذه النسخ

twitter: @ketab_n

لك فأنت ستحتاجها واترك واحدة لي، ثم ما أن شربنا القهوة، حتى أخرج من جيب سترته قصيدة وقرأها عليّ، كنت آنئذ مستغرقاً في جمال تلك القصيدة التي شاءها مدوّرة، تتحدّث عن حبّ بعيد وخيالي، مليئة بإرسال صوفي متهجّد، بعد عودة البياتي إلى العراق من غربته الطويلة في مطلع السبعينات كان الشعر العراقي قد قطع مرحلة كبيرة من التطوّر الجمالي والشكلي والفني على يد الشعراء الذين جاءوا بعدهم، وكان البياتي بتلك القصيدة يحاكي ذلك التطوّر الجديد ويجاريه، بعد أن فرغ من القراءة طواها وأخذ يشتم الأغبياء ممّن يعملون في الوزارة وقال : " هؤلاء تصوَّر لم يسألوني يوماً ماذا كتبت وهل لديّ جديد من الشعر ؟ و لم يبادر أحد منهم إلى طلب قصيدة منّي، أو قراءة ما استجد من جديد لي " .

في الأيام التالية التقيت الأصدقاء خليل الأسدي، زاهر الجيزاني، وشاكر لعيبي، ومع الأخير ذهبت إلى لقاء يجمعنا مع الشاعر اللبناني محمد العبد الله، كان محمد يبحث عن الأصوات الجديدة في الشعر العراقي، وثمَّة مَنْ أشار لكِلَيْنا من النقّاد، كان وقتها يقام مهرجان المربد، في الفندق البغدادي الذي كان يقيم فيه العبد الله تم الحوار الثنائي معنا، كان الصراع الأيديولوجي، قد علت وتيرته بين الحزبين الشيوعي والبعثي، كانت مخابرات النظام تتربَّص بنا الدوائر، نحن اليساريِّين والمؤيّدين للأفكار اليساريّة، وقتها قلنا ما كان يدور في خلدنا وأفضينا ما في جعبتنا من كلام مناوىء للنظام الذي كان في أوج قوَّته، أشرنا للخلل الثقافي الذي بدأ ينخر جسد الثقافة العراقيّة، باسم شعارات كاذبة

twitter: @ketab_n

وواهية وليست لها من صدقية على أرض الواقع وهي نشر الوعي القومي والأفكار الوحدوية ومحاربة العدوالصهيوني، والرأسمالية والمجتمعات الأمبريالية، كلّها دفعة واحدة، ومن أين ؟ انطلاقاً من أرض العراق، رافع راية العروبة والتوجّه التاريخي ببعث الزمن العربي المتماهي مع الرميم، شعارات ملأت شوارع وساحات بغداد بالتكافل العربي ـ الكردي، وإرساء مبادىء العيش المشترك، كلّها أثبتت العكس وأعطت نتائج سلبيّة.

صُدِمَ العبد الله بما قلناه، للجراءة والمغامرة بالكلام دون حسبان النتائج، لكنّنا مضينا دون حاجز يوقفنا عن مواصلة النقد وقول الحقيقة مهما كلّفنا ذلك من أمر، والعبد الله كما كنّا نعرفه شيوعي لبناني كان مؤازراً لما نقول، فنشر بعد ذلك الحوار في صحيفة "السفير" اللبنانية كاملاً، مع صورة لكلينا ونحن واقفان في زورق سائر في نهر دجلة، شعورنا مسدلة على جباهنا، وثيابنا طائرة في الهواء وبغداد كانت وقتها جميلة مثل ناي يصنع الأغاني الناعمة.

خلال تلك الأيام، وأنا جالس أراجع شيئاً ما في صحيفة "الفكر الجديد" التي كنت أعمل فيها صحبة خلطة عربية ـ كردية من محرِّريها، مثل محمد الملّا عبد الكريم وجلال الدباغ، وعرب مثل الكاتبة الدكتورة سلوى زكو السريانية وعامر بدر حسون وسامي محمد وياسين النصير وفاضل الربيعي الذي ذهب حينها لأداء خدمة الاحتياط، خلالها مرّ الشاعر سعدي يوسف نجم السبعينات ودعاني بمناسبة صدور ديواني البكر " قصائد اليفة " إلى جلسة في

twitter: @ketab_n

"فندق السلام" رحَّبت بالفكرة وبالبادرة وبالإلتفاتة الجميلة من سعدي الذي حملني بسيارته الشيوعيّة "موسكوفيتج" إلى "دار الرواد" اليساريّة التي تطبع صحيفة " الفكر الجديد " الإسبوعية حجم التابلويد وصحيفة " طريق الشعب " اليوميّة لسان الحزب الشيوعي العراقي و" الثقافة الجديدة " المجلّة الشهريّة السياسيّة ـ الثقافيّة للحزب وتطبع الكتب الماركسية والنقدية والكراريس الحزبيّة الخاصة بتنظيم الخلايا، كان تعداد الحزب الشيوعي يقترب من المليونين بمنتسبيه ومؤازريه ومؤيِّديه، زائداً المستقلّين الذين يميلون له دون غيره من الأحزاب، مررنا على الدار المذكورة والمطبعة، والمحاسب الذي سيتسلّم سعدي يوسف منه مكافأته على عمل ما، ليبددها على الجلسة في فندق السلام التي دعا اليها الشاعر فوزي كريم وعبد الوهاب ولي وعبد الرحمن طهمازي وجليل حيدر وصادق باخان وغيرهم، انتشيت أنا بالجلسة واحتسيت اكثر مما ينبغي، وحين ذهبت إلى التواليت، غفوت في جلستي تلك على مقعد البورسلان، وحين أتيت لمواصلة الجلسة، وجدت الجميع، قد انفضّوا وغاب السامر.

في اليوم التالي مرّ سعدي يوسف على الجريدة ورمى حقيبتي التي احتفظ بها أمامي على الطاولة، وكان يظنّني، قد غادرت المكان ونسيتها هناك.

آنذاك، اختطت باكورتي الأولى " قصائد أليفة " طريقي إلى الشعر الذي سوف أكتبه، أي ما خامة هذا الشعر ؟ نمطه، شكله، أسلوبه، تشكيلته النغميّة والموسيقيّة، منبعه، جذوره الإبداعيّة،

twitter: @ketab_n

رؤيته وزاوية التعبير التي شكلت تلك التجربة، كلّ ذلك سيشكّل سماتي في طريقة نظري إلى الشعر، كيف هي ستكون البنى التعبيريّة والسياقات اللغويّة والبلاغيّة وإلى أي سبيل ستؤول مستقبلاً ؟

من هنا انبرتْ عدة أقلام عربيّة، في تناوله، وجاء الإحتفاء به من لبنان أكثر مِمّا كان في بغداد، فأنا كنت أعيش حصاراً ثقافياً، فصحف الدولة لم تتناول البتة خبر صدور الديوان، و لم يُشِرْ له أحد في مطبوعاتهم ومقالاتهم وحتى كتبهم النقدية، فالإحتفاء جاء من الخارج ، من صحيفة "السفير" وصحيفة "النداء" لسان حال الحزب الشيوعي اللبناني ومجلّتَيْ "الهدف" الفلسطينية و"الحريّة" التابعة لمنظمة العمل الشوعي الصادرتين في بيروت، وصحيفة "الأنوار" بينما صحيفة "طريق الشعب" البغدادية ـ الشيوعيّة، فقد أعادت نشر ما تمّ نشره في الصحف اللبنانية. كان الصديق الشاعر حميد الخاقاني الذي لطالما ساعدني في نشر قصائدي الأولى في الصحيفة إياها، يريني ويعطيني ما يصله من تلك القصاصات والمقالات المنشورة عنّي في صحف ومجلّات عربيّة، حميد الخاقاني الذي بدأ شاعراً متميّزاً ولافتاً حتى في طريقة إلقائه، غاب عن الشعر و لم يواصل المشوار، لقد أخذته الدراسة الأكاديمية ومن ثَمَّ تدريسها فيما بعد في مدينة "هالة" الألمانية، أخذته بعيداً وحرّفته عن نهج الشعر وهو الشاعر الموهوب، هذا الشاعر الرقيق كان آنذاك مسؤولاً على الصفحات الثقافيّة في الجريدة، وقد نشر العديد من قصائدي الأولى التي نشرتها في باكورتي الأولى، أو التي ستفيض عنها لأنشرها فيما بعد في ديوانيّ

twitter: @ketab_n

اللاحقين "أقمار منزليّة" و"شموس مختلفة" وهنا ينبغي التعريج والإشادة بدور سعدي يوسف الذي حقّق حلمي الأوّل بالنشر، حين نشرلي قصيدتي الأولى "أشياء عن الفتى الجميل" في صحيفة "طريق الشعب" وذلك كان يوم مرّ على مقهى "المُعَقّدين" القاص فاضل الربيعي وطلب منّي حين رآني جالساً بين صديقيّ الشاعرين خليل الأسدي وزاهر الجيزاني نحتسي الشاي ونتحدَّث عن الشعر والشعراء، مرّ بالمقهى وهناك أعطيته في الحال قصيدتي تلك التي كنت أحملها معي، فما كان منه إلّا أن أوصلها لسعدي يوسف الذي كان يُشرف على الصفحة الثقافيّة في الجريدة، والذي قام بدوره بنشرها مباشرة وطلب من فاضل الربيعي أن أمرّ عليه لكي نتعارف في وزارة الثقافة التي كانت كائنة في "الباب الشرقي" في بناية تطل على شارع "الخيّام" فوجئت أولاً بنشر القصيدة، و لم أنَمْ تلك الليلة البتّة من شدّة الفرح ومن شدّة الخوف والقلق لملاقاة شاعر كبير بحجم سعدي يوسف، مررتُ على الوزارة، وسألت عن سعدي يوسف المغضوب عليه من النظام وحتى من الحزب الشيوعي بعد حادثة مسؤول خطّ المثقّفين خالد سلام مع سعدي يوسف الذي قدحه وهجاه في قصيدة "الجيغولو العجوز" والتي اشتهرت حينها وحُفِظتْ من قِبلنا غن ظهر قلب، كما كنّا نردّد قصائد سعدي يوسف الجميلة والمُعينة في تلك الأيام التي كانت تقترب من النهايات الحزينة والكئيبة المفتوحة على السجون والمعتقلات وحملات القمع والتنكيل وحفلات التعذيب التي كان يقوم بها حزب البعث ضد عناصر وكوادر الحزب الشيوعي،

twitter: @ketab_n

كانت قصيدتي قصيدة نثر وقد شئتها دائرية، وفق نظام سردي يعرف بالكتلة التي تتسلسل كلماتها متواترة من دون توقّف حتى نهايتها، كنت قد قطعت شوطاً كبيراً في قصائد الوزن التجريبيّة و لم يبقَ أمامي حينها إلا هذا الشكل الجديد لأطرقه، كانت نظرة سعدي يوسف إلى الشعر بشكل عام نظرة متقدِّمة تحمل هاجساً ووعياً ومعرفة مثلى ولامعة في المفهوم الشعري، فالقصيدة كانت نثرية، وفيها شكل متقدِّم على المتعارف عليه في كتابة الشعر بطريقة عنقودية ومجزوءة الأسطر ومتناثرة الأبيات بشكل متوالٍ مثل أي قصيدة تكتب في نظام التفعيلة وفي شكل قصيدة النثر المتعارف عليه كما يكتبها الماغوط وليس أنسي الحاج ، كان النظام العراقي يحرِّم نشر قصيدة النثر كونها إمبريالية وهدّامة للسياق العربي في الشعر العربي، ومن هنا ملْتُ وعدت إلى الكتابة بالوزن لكي أوصل صوتي وأستمرّ في الَكتابة الشعريّة وفي عالم النشر أيضاً.

حين وصلت إلى المكان كان في الوزارة، وفي قسمها المخصَّص للترجمة المترجم والكاتب المحبّ يوسف عبد المسيح ثروت، استقبلني بوجهه الطفولي وقال وهو اليساري السابق والمؤازر في الصمت لدور الحزب الشيوعي قال لي "إنَّ سعدي يوسف قد نقل إلى مجلة "التراث الشعبي" في الكرادة، وهي قريبة من "نصب قهرمانة "، فذهبت إلى هناك، ليستقبلني شاعر في مطلع الأربعين، ناحل، وخجول، وقليل الكلام هو سعدي يوسف.

كان سعدي يوسف الأستاذ وصديق المنافي الطويلة، مشرّداً مثل بقية اليساريِّين والمستقلِّين الناقمين على السياسة الفاشيّة التي انتهجها حزب البعث في تصفية خصومه ومناوئيه ومَنْ لا يصفِّق

twitter: @ketab_n

لطريقته القمعيّة والدموية لقيادة البلد، وكل من لا يؤيده ويعلن ولاءه وطاعته فهوخائن وعميل وجاسوس للغرب أوللبلدان الإشتراكيّة.

في هذا الخضمّ من الجو الملتبس والمشحون بالنكال والمدعوم بالقبضة البوليسيّة، عليك أن تكتب وتشتغل وتعمل في الصحافة، لقد كنّا صغاراً على المصائب التي ولدت معنا، مصائب لا تدعك تعمل وتفكر وتبتكر في مناخ نظيف، في بلاد هادئة، غير قلقة، ومتوتّرة على مدى تاريخها، منذ ولادتها، أقصد نشأتها في مطلع العشرينات من القرن المنصرم وهي تحبل بالفتن والقلاقل والإنقلابات والمؤامرات، كنت في الصف الأوّل الإبتدائي يوم كنّا نتظاهر، تصوّر ذلك، طفل في السابعة عليه أن يتظاهر ويهتف ويخرج إلى الشارع لينضم إلى مدرسة أخرى بدورها ستتظاهر وتكبر التظاهرة حتى تمتد إلى زقاق آخر ومدارس أخرى.

لن أنسى معلّم الرياضة وهو يحضّنا ونحن في فترة الإستراحة على التظاهر وشتم الرئيس عبد الناصر، وهناك آخر كان يدعوالى شتم الزعيم عبد الكريم قاسم ويدعوالأطفال مَنْ هم في سنّنا إلى التظاهر، طلاب ابتدائية كنّا، لا نتعدّى الثامنة في مدرسة "الفتوّة" القائمة حينئذ في منطقة الكاظمية وهي من المفروض مركز ديني ينبغي أن يكون بعيداً عن دقائق السياسة ومصالحها الآنيّة ولكننا كنّا نخرج مجبرين ومدفوعين بأمر من المفترض، أنْ يعلّمنا النهج الصحيح والسليم وليس نهج الشحناء والتنابز، نهج أن نخرج ونهتف ضد مصر والوحدة وضد الزعماء أونعمل العكس، نتظاهر لصالحهم، أتذكّر ذلك جيّداً الآن، ما دور الطفل في هذه

twitter: @ketab_n

الأحابيل والخيوط المتشابكة، البعيدة عن مخيّلة الأطفال وعن عالمهم الذي كان ينبغي أن يكون طفوليّاً مثلهم، عالم ألعاب ودمى وأحلام بريئة، مثل شفاههم الطرية والندية التي لم يزل طعم حليب الأمّهات رطباً عليها، كانت وقتذاك تقوم الشحناء بين فريق هذا المعلّم وذاك من الناصريّين - القوميّين وبين القاسميّين الوطنيّين الذين ظلّوا يرسمون للأطفال عوالم الكبار ومصائبهم السياسيّة وتشنّجاتهم وتصرّفاتهم الحادة، غير المقنعة والمسؤولة في حياتهم وسلوكياتهم اليوميّة في تلك الحقبة من الزمن الملكي الذي كان يدير البلاد بشكل غير سليم ومحتكم في الغالب لإملاءات الخارج وأَجَنْداته، من دول عربيّة وإقليميّة وأجنبيّة على نحو خاص.

من جهة أخرى أتذكّر الشيء الذي لن أنساه ما حييت، ونحن في المرحلة ذاتها من الإبتدائية وفي الصف الأول، أتذكّر معلّم العربية، الأستاذ شكر، كان رجلاً أعشى، شبه أعمص، علّمنا أصول الهمزة وحروف الجر والعطف، وبعض الإملاء الذي كان منَ المتعارف عليه أن يُعطى لنا في الصف الرابع، بينما هوكان يُمرّره علينا بطريقة علميّة ناجحة، يومذاك، فكان مَنْ لا يخطىء في التهجّي والإملاء العربي السليم، يعطيه فلساً ومَنْ لا يعرف عليه أن يخسر فلساً، ومَنْ لا يدفع يعاقبه بالعصا، كنت وقتذاك أسعى جاهداً ألّا أغلط وكنت غالباً أنجح في ذلك مما جعلني أشتري بالفلسين اللذين كنت أكسبها حامض حلووتشكليت، كل واحدة كانت بفلس، كنت أشتري قرابة الخمس وأعود وأنا فرح بها إلى البيت، أونمضغها في الطريق الذي كنّا نمشيه بين المدرسة ومحلّة "النواب" التي كنا نسكنها في فترة الخمسينات من الألفية الفائتة.

twitter: @ketab_n

الشعر والفَقْر

قال شاعر تشيلي الكبير بابلو نيرودا يوماً "إنَّ الشعر لم يورّثني سوى الفقر" وهو الشاعر الشهير والديبلوماسي المعروف وحائز جائزة نوبل، فماذا نقول نحن الذين ولدنا وفي فمنا قطعة من حجر، رأيت أطفالاً في طفولتي يأكلون الأحجار، نحن نحتاج في العراق إلى أكثر من ألف ماركيز لكي يكشف فيه النقاب عن سوء الحال والفقر والأمراض في بلد الحضارات الأولى ومهبط اللغة العربيّة، تلك التي كتبتْ في الأنبار حين كانت السريانية سائدة في هذه البقعة فأخذتْ منها وطوّرتها حسب مقتضياتها وحاجاتها وطرائقها اليوميّة لتكون اللغة العربية، أقول نحتاج إلى رواة وساردين وحكّائين يحكون عن العراق المنهوب والمطعون والجريح بشتى الأدوات التي جعلت منه كياناً قابلاً وبشكل دائم للغزو والإغارة والهدم والتخريب.

منذ أورقتْ مخيّلتي وأبصرت هذا الكون رأيت العراق فقيراً، في نهاية الخمسينات عندما كنت طفلاً كنت أرى الخرائب تحيط بالعراق، بيوت الصفيح، الأكواخ، بيوت اللبن، بيوت السقائف والصرائف والناس يسعون في الوحل والتراب والأزقّة الرطبة

twitter: @ketab_n

والشوارع الموحلة والمياه الآسنة التي تجري بين زقاق وزقاق ومحلّة وأخرى.

كلّ شعراء العراق كانوا من الطبقة الفقيرة، الطبقة المسحوقة التي بالكاد كانت تتنفّس وتعيش، السيّاب الذي قضى حياته وهوالشاعر المغيّر والمجدِّد يبحث عمَّن يبادله ديوان شعر بقليل من النقود لشراء الدواء، أو البحث عن مجلة تسدّد له مكافأة من أجل شراء ربطة خبز وعلبة دواء، البياتي لم يكن أحسن حالاً، هذا الشاعر الذي كرَّس جلّ حياته للمنفى، أصدر ديوانه الرابع حين كان يعيش في موسكو وطرد من العمل وانقطعت عنه المعونات الماديّة أصدر حينذاك "سفر الفقر والثورة" سعدي يوسف أصدر وهويقترب من السبعين ديوان شعر بعنوان "شرفة الفقير" والمقصود بالفقير هو بيته المتواضع الذي كان يتكوّن من غرفة واحدة وشرفة هي في الحقيقة ممرّ في المبنى الذي كان يسكن فيه في منطقة ساوث إيلنغ، محمود البريكان الذي قتل من أجل حفنة دراهم على يد أحد الصبيان من أقاربه، الحصيري الشاعر الكلاسيكي يموت على الرصيف وهو نائم، حسين مردان ذاق الفقر وشربه دفعة واحدة، سركون بولص أفنى حياته معوزاً ومات فقيراً ولا يملك أي شيء سوى قصائده وترجماته، مظفر النواب المريض الذي لا يملك مسكناً ولا مالاً سوى عون الصديق الذي جاءه في وقت الضيق وحمله إلى المستشفى، عقيل علي يموت في الشارع بين الكلاب الضالة، والقائمة تطول، والفقر يتّسع ويزيد بين حقول القتل وحقول النفط التي ما انفكّت تتواتر وتتزايد الآبار الجديدة

twitter: @ketab_n

وغير المكتشفة والفقر يمشي باتساق وعلى الوتيرة ذاتها، وكلّما ازدادت حقول النفط في العراق كلّما اتّسعت خارطة الفقر وامتدت لتشمل كل العراق.

كنت صغيراً وكان الشتاء قاسياً على ما أتذكّر، حيث كان الأهل يحتاجون إلى صفيحة من النفط، كنت في الثالثة عشرة، أنتظر في ذلك الشتاء المزجج بأرض جليدية عربة بائع النفط أن تمرَّ وإنْ مرّتْ، فقد لا أستطيع التدافع مع الباحثين مثلي عن قليل منه لغرض الطبخ، على ببور نحاسي، مصنوع في السويد نسمّيه " البريموس " فعليه تطبخ العائلة وعليه تغلي الماء لغرض الاستحمام وغسل الملابس في الطست، حيث الآلات الكهربائية لم تجد بعد طريقاً إلى منزلنا، وربما احتجناه للمدفأة التي تعمل بالنفط إياه، مدفأة نعمل عليها الشاي والقهوة وشاي الحامض والدار صيني الذي هو" القرفة ".

إنَّ الفقر قد صنعنا من دون شك ولكنّنا عشنا بإباء، لَـمْ نَحْنِ القامة لأحد طيلة حياتنا، لا بل كنّا نشمخ ونرفع أنوفنا ونعتزّ بما نحن فيه ونعاف الأعطيات وموارد الإحسان، كان الكبرياء في دواخلنا ينمو ويتمدّد كأفعوان وبه كنّا نواجه كلّ ما يحدث لنا، لقد عملنا في شتى المهن الصغيرة ونحن صغار لكي نكسب لقمة العيش، دون أن ننظر لنوع المهنة، كان صديق طفولتي قد شاركني أغلبها، وحين كنّا لا نجد القروش القليلة بين أيدينا لكي نذهب للسينما، كنا نحتال على الواقع، فنذهب إلى خرائب الحديد والسكراب والأسلاك المستخدمة والمهملة، تلك التي ترميها

twitter: @ketab_n

الشركات خلف بناياتها في منطقة معسكر الرشيد، فهناك ربّما كنّا نجد ضالتنا بجمع الحدائد في عربة خشبيّة يدويّة، وكنّا نحمل معنا دائماً منشاراً صغيراً نجسّ به نوع الأسلاك المرمية، فإذا وجدناها كرة كبيرة من الأسلاك النحاسية فسيكون حين ذاك ثمنها مرتفعاً حيث سنبيعها لشخص يجمع هذه الأشياء ليبيعها بدوره إلى مصانع تصهرها وتحوِّلها إلى مواد وأشكال ثانية .

حين كبرنا قليلاً، سافر صديق طفولتي عبد الرسول عيدان بعد أنْ أدّى الخدمة العسكرية إلى الكويت وكان في الثانية والعشرين من عمره، باحثاً عن نفسه ومصيره وحياته، فنحن حين كنّا في طور الثانية عشرة كنا نحلم بالسفر، وبالعالم الآخر الغامض والمخفي والمجهول، ولكي نتدرَّب على السفر المستقبلي هذا كنّا نقوم بجولات إلى كربلاء والنجف، نأخذ معنا شيئاً نبيعه هناك، فينفد في الحال ما نأخذه معنا، فنبيت في فندق ليلة أوليلتين، ومن ثم نعود ومعنا شيء نجلبه من النجف أوكربلاء يكون غير موجود في أسواق بغداد وبالأخصّ الحلي النسائية، كنّا نذهب بطريقة الأوتوستوب، ونعود بالمركبات العادية دافعين الأجرة ونائمين في فنادق مريحة وآكلين في مطاعم جيِّدة ومعروفة.

في الثانية والعشرين بدأ إسمي يلمع في عالم الأدب، ومعي صديقان من منطقتي بدآ أيضاً بالبزوغ واللمعان هما زاهر الجيزاني وخليل الأسدي، كنّا نحن الثلاثة والشعر رابعنا فقراء الأرض، نذرعها مشياً على الأقدام ومعنا الشعر، ولكنّه كان يمشي أسرع منّا، في مسيرتنا اليوميّة من منازلنا إلى حدائق اتحاد الأدباء

twitter: @ketab_n

العراقيين، في الليل وحين نودّع النادل الذي ينتظرنا لأنّنا سنكون الأخيرين في الخروج، ولا نخرج بسهولة كما دخلنا، فهناك أخذ وردّ في عدد المازات التي جيء بها وعدد الكؤوس التي طُلبتْ وعدد صحون الطعام التي اوصِيتْ، مشاكل يوميّة لا تنتهي، يكون النادل هوالأحقّ والأصحّ في ذلك، ولكن ما العمل الأمور كانت تجري هكذا، ديون تُسجَّل في دفاتر، ومطالبات مستمرة بالدين والدفع دائماً يتأجَّل.

في مسيراتنا اليوميّة هذه إلى حيث لا نعرف أين ستحطّ القدم في النهاية، نمرّ في طريقنا في شارع السعدون، عند نهايته من جهة الكرادة، هناك سيصادفنا "همبرغر أبو يونان" الشهير، كان المكان جديداً والأكلة وافدة حديثاً، والزحام عى أشُدّه، إذ كنّا جوعى نستدبر الحال بما نملك لنشتري قطعة همبرغر واحدة مع ثلاث خبزات، خبز افرنجي، ونقتسم القطعة، بإضافة بعض المخللات لتصبح السندويشة ولا ألذّ من ذلك، بعدها نذهب إلى الشراب، وهناك دائماً مَنْ يعين ويدفع ويصيح "ويرات" والوير هو الاستضافة على حساب الشخص المُضيِّف لك، مرّات كنا نقتسم سيخ الكباب نحن الثلاثة ونوزّعه في الخبزة الإفرنجي "الصمّون" هذه الكلمة لها معنى آخر بالدارجة التونسيّة، بعدها نشرب شاينا الأسود الثقيل في مقهى يقع في زقاق سينما السندباد، مرّات كنّا نميل إلى مُطيعم صغير يقع مقابل مقهى "المُعَقّدين" يبيع الفلافل والفول والمخلوطة وهي صحن مخلوط من الفول والحمص بسائل "الراشي" عصارة السمسم. كان صاحبه فلسطينياً والعراقيّون

twitter: @ketab_n

بطبيعتهم لا يميلون إلى هذه الأكلات، فيعدّونها نوعاً من المازات، كونها خالية من اللحم، وبعيدة عن مناهج الأرز والمرق والقورما شبزي وأواني الباجة والدولما والتشريب ومناسف البرياني وطلائع القوزي المحشي باللوز والكشمش والفستق الحلبي.

وحين نكون في باب المعظّم وبالتحديد في مقهى البرلمان أوالأعيان ويدبّ الجوع في أوصالنا، نلجأ إلى بائعة الحمص المسلوق "اللبلبي"، كانت تجلس بقدرها الكبير الذي يغلي في الشتاء ويندفع غطاؤه يطقطق من شدة البخار، نقفز من المقهى لنشتري السندويشة العامرة بالحمص المسلوق وكان سعرها زهيداً جدّاً، مع كأس من الشاي نصبح مبتهجين، بعضهم يأتي بكعك من محل "كعك السيِّد" الشهير، الذي عمره من عمر شارع الرشيد لنأكله مع الشاي الساخن، أحياناً أجيء بالبقصم أو زنود الست والتشرك، فأهل المحلّ وأصحابه هم من أقربائي المقرّبين، ولكنَّهم من طبقة غنية، غير الطبقة التي أنتمي اليها، مرّات في الطريق ونحن قادمون من الأكاديميّة مع أصدقائي نتوقَّف حين نكون جائعين أمام محل الحاج " زبالة " وهو بائع العصير الشهير المستحضر بطريقته الخاصة من العنب الأسود، فنطلب قدحاً مع نصف خبزة وتكون حسب طلبك إما فارغة أوفيها جبن ابيض وهي في كلّ الأحوال أي الأكلة سعرها زهيد، نأكلها عنده قبل أن ندلف إلى المقهى الذي لا يبعد عنه سوى أمتار قليلة، أما إذا ودَّعنا المقهى وذهبنا إلى سوق السراي، ونريد قبل الذهاب إلى الحانة أن نأكل شيئاً نسدّ به رمقنا وسعره يكون مناسباً لنا، فهي دائماً تكون "كبة السراي" المعروفة

twitter: @ketab_n

التي تعطى لنا بطاس صغير، مع قليل من مرقها والفلفل الأسود وخبزة ساخنة لنزدردها بدقائق ونكون حينها سعداء ومهيّئين لاستقبال الكؤوس التي تنتظرنا في أكثر من مكان.

حين كانت تنسد المنافذ وليس ثمة من كوّة، كنا نفتح كوّتنا بطرائق مختلفة، ولكي لا نكرِّر المشهد والوجوه والأحداث نمضي إلى كمب الأرمن ومن ثم إلى منطقة الصناعة "كراج الأمانة" سابقاً إلى حيث منزل مدام كاترين، وهي منطقة تعجّ بالسريان والكلدان والآشوريين والمسافة بين هذه البيوت وبيوتنا قرابة الخمسة كيلومترات كنّا نتمشاها لنطلّ من هناك على النساء الجميلات السافرات والمتفتّحات، كنّا نأخذ معنا إلى مدام كاترين التي تُصنِّع العَرَق المنزلي قنينة بيبسي كولا فارغة من النوع الكبير لتعبِّئها لنا من عَرَقها المحلّي والمُطيّب برائحة الماستيكا، كان السعر بمئة فلس لثلاثتنا خليل وزاهر وأنا، فهي أرخص بشكل كبير من جلسة حانة كنّا لا نستطيع تأمين ثمنها، وحين كنّا نحصل على المقصود نذهب به إلى منطقة في كمب الأرمن، ووراء السدّة التي تقع بالقرب من الكَمْب ومن بيوتنا المتاخمة للكمب نشربها، بعد أن نجعل من هياكل السيارات الهالكة مقاعد وطاولة لنا والمازة عادة تكون أما حفنة حمص، أو ليمونة صغيرة نكون قد قطفناها من الشجيرات التي نمرّ بها وتطلّ وتتدلى عبر الشارع، والمازة الثانية المكملة هي الشِعْر، شِعْرنا وشِعْر غيرنا مـمّا كنّا نحفظه من أشعار وأبيات ومن استذكار لقراءات أدبيّة نكون قد قرأناها توّاً ويحلو لنا اطلاع بعضنا البعض عليها.

twitter: @ketab_n

ذات يوم دُعيت لقراءة شعر في أمسية كبيرة وهامة في بغداد، أقامتها صحيفة "طريق الشعب" كردٍّ على مهرجان المربد الحكومي الذي لم يُدْعَ له الكثير من الشعراء الجيِّدين الذين يقفون في الطرف الآخر المعارض للسلطة، في هذه الأمسية التي حضرها العديد من الشعراء العرب قرأت إلى جانب لفيف من الشعراء العراقيِّين المتميّزين، مقدِّم الأمسية كان الشاعر يوسف الصايغ، وقتئذ احتوى البرنامج على أسماء عديدة ومن مختلف الأجيال، حين حان دوري لم أكن في صالة القراءة، بل كنت في" حانة النصر" المحاذية لبناء الجريدة احتسي الجُعة، ، كانت ملابسي هِبِّية وحتى حذائي كان يبدو غريباً، ولكنَّني حين قرأت كنت قد أخفيته بنهايات بنطلوني الشارلستون العريض من الأسفل، لقد توفّقت في تلك القراءة التي أعدّها بالنسبة إليّ تاريخيّة لتمتّعها بحضور لافت لشعراء وأدباء عرب معروفين.

بعد أن فرغت من تلك القراءة، مالت إليَّ صحفية ورسامة كانت تعمل في مجلّة الهدف وطلبت القصائد التي قرأتها، بيني وبينها جرى ثمة استلطاف، كانت على قدْر كبير من الجمال وأختها كانت ملكة جمال لبنان، هذه الفنّانة الصحافية ستكون معي حيثما أذهب في بغداد في أيام مهرجان المربد، حيث كان يقيم العديد من الأدباء العرب في الفنادق الراقية والجميلة التي كانت تزهوبها بغداد حينذاك.

twitter: @ketab_n

الشعر والصحافة

كان الصحافي العريق هاشم النعيمي حيثما يذهب أذهب، ملقياً عليّ نظرة استهجان واستغراب، لا تخلو من زاوية إعجاب وهو يراني جالساً بين الصحافيِّين، أسجّل وأتسقّط الأخبار، من المؤتمرات الرسميّة للدولة، يبتسم حين يراني، محدّثاً نفسه، أهذا الصبي الصغير، هومثلي صحافي، يجوب الوزارات ودوائر الدولة ومؤسَّساتها بحثاً عن سبق صحافي، أو حوار، وضربة حظّ ترفعه من وضعه الهامشي إلى مصافّ رؤساء تحرير الصحف ومسؤوليها.

كان النعيمي وهوسياسي سابق، اتّهم بالشيوعيّة وسجن في الستينات، كان صحافياً لامعاً، لا يقلّ شأناً عن أي رئيس تحرير ومسؤول صحيفة، إنْ لم يكن الأكثر خبرة ودربة ودراية بمهنة الغرائب هذه، كنت حينها مبتدئاً في هذه المهنة الشيّقة والمضنية في آن، أتدرّب وأستغور مطبّاتها ودهاليزها وخفاياها العميقة، من أجل خبر صغير أعثر عليه خلال تجوالي اليومي كوني مخبراً صحافياً، مهمَّتي الحصول على الخبر، من هنا وهناك، بعضهم كان يساعدني، حين يراني صغيراً فيمنحني خبراً عن عمل الوزير في اليوم الثاني، ومنهم مَنْ كان يطردني بطريقة لبقة، ومنهم مَنْ كان

twitter: @ketab_n

يضحك ويلقي كلاماً متهكّماً حين أحاول التسلّل إلى قسم معيّن أو سكرتارية وزارية، وقتها صار بإمكاني كتابة الخبر، ومعرفة ما يجري في تلك الأروقة الرسميّة لنظام قادم للسلطة بطريقة غير مشروعة، عبر قادة أيديهم ملطّخة بالدماء والذبح وجرائم الستينات، حيث قطار الموت ونقرة السلمان والصحراء، هي ما كنا نملك عنهم من ذكريات حمراء جرت في شباط أسود.

في الحقيقة، أنا لم يكن حلمي أن أكون صحافياً، و لم أكن أحلم أن أتدرّج في هذه المهنة مطلقاً، ولقد أثبتت بعد ذلك تجارب السنوات التي تتالت على أنني كنت أتّخذ من الصحافة باباً للرزق ليس إلّا، وما كان عملي في البدايات، حين كنت مخبراً لصحيفة "طريق الشعب" الشيوعيّة، إلّا لغرض التدريب على المهنة، كنت عاملاً متبرّعاً، أي أني لم أتلقَّ مبلغاً مالياً، مقابل ذلك، بل كان عملاً تبرّعياً للحزب، يدرّ عليَّ فائدة معرفة هذا العمل، حسب برنامج الحزب وتعليماته التي كانت تنصّ على تدريب الكوادر الشابة على هذه المهنة من المثقّفين، كلّ عملي في صحيفة "طريق الشعب" تبرّعاً، باستثناء عملي اللاحق الذي كنت متفرّغاً له في صحيفة "الفكر الجديد" ذلك الذي كنت أتلقّى عليه مردوداً مادياً، لأنّي لا أملك غيره، بينما عملي البسيط والصغير في "طريق الشعب" كان يأخذ منّي وقتاً قصيراً، هو المجيء بعد الظهر، لأنّي كنت أعمل بشكل ثابت، في "دار الحريّة للطباعة" التابعة لوزارة الثقافة.

حين أصبحت الصحافة عملي الوحيد، فإنّي عملت طوال حياتي في الأقسام الثقافيّة، أومسؤولاً عنها فيما بعد، وحين

twitter: @ketab_n

اضطررت للتخلّي عن وظيفتي في " دار الحرية " للطباعة، سافرتُ حينها إلى باريس، ملبيّاً نداء الشعر الذي أفسد عليّ استقراري وجعلني كائناً قلقاً، يحبّ السفر والاضطراب ورؤية العالم الآخر والبعيد، القابع وراء والبحار والمحيطات، وحين ذقتُ الهُيام وطعم التجوّل وهو السفر، عدت مرة ثانية إلى بغداد، تلك التي كانت أجمل عاصمة في الشرق الأوسط في مطلع السبعينات.

عدتُ عاطلاً عن العمل لفترة من الزمن قضيتها في التسكّع والتشرّد والانغماس في الشراب إلى أن وجدت عملاً في مطبعة الحزب "الروّاد" متابعاً لطبعة صحيفة "الفكر الجديد" قبل صدورها، مع الزميل الصحافي صائب العاني وبإشراف الصحافي القدير فايق بطي، بعدها بقليل نقلت إلى القسم الثقافي للصحيفة الكائن في شارع ٥٢، بينما المطبعة كانت تقع بالقرب من "دائرة الأمن العام" مِمّا سهّل ذلك الموقع من الإنقضاض عليها وعلى طاقمها عقب انهيار ما يسمّى بـ"الجبهة الوطنية" ودخول الشيوعيِّين مجدداً إلى السجون مرّة أخرى، ومرّة أخرى على أيدي البعثيِّين أنفسهم.

كان من السهل عليّ حينذاك الذهاب إلى المؤسَّسات السلطويّة، مقابل مبلغ مالي مُغْرٍ، كان يدفع للشيوعي المرتدّ والتائب، حسب قاموسهم المتداول في إعلامهم والذي ظلَّ يُسْتخدم حتى قبل سقوط النظام بدقائق ضد المناوئين والمعترضين على سياستهم الوحشية واللاإنسانية.

قضيت قرابة العام في الصحيفة، عاملاً في القسم الثقافي،

twitter: @ketab_n

كان العام حافلاً بالنشر والشعر والسهر والأصدقاء، إلى أنْ تقلّص الهامش المعطى لليساريِّين، حيث بدأت الحملة القمعيّة ضدهم تتقدّم بوتيرة دمويّة عالية، بدأت بإعدام أكثر من عشرين عسكرياً، قالوا إنّهم ينتمون إلى الحزب الشيوعي، هنا صار الإعلام اليساري، ينتقد ويشير إلى المشاكل العامة في البلد، وحين ضُيِّق الخناق واتسعتْ دائرة القمع، فرط عقد "الجبهة الوطنيّة" ودخل العديد من الكوادر المتقدّمة السجون، ومن ضمنهم رئيس تحرير صحيفتنا " الفكر الجديد " ثم أخذوا من الصحيفة الناقد المعروف ياسين النصير وجلال الدباغ نائب رئيس التحرير، وبقي من الصحافيين الثابتين في الصحيفة مَنْ لم يقبض عليهم سامي محمد وعامر بدر حسون وكاتب هذا الكتاب، بالإضافة إلى العاملين في الأرشيف والسكرتارية، كنت أرى سيّارة المخابرات الهوندا البيضاء، واقفة يوميّاً في باب الصحيفة، وهي تلتقط مَنْ أوصي بجلبه، المسافة بين السيارة وباب الصحيفة لم تتعدَّ الخمسة أمتار، تراهم فاتحين الأبواب ببذلاتهم المخابراتية ذات القطعتين ونظاراتهم السوداء وشواربهم المعقوفة إلى الأسفل.

في تلك الأيام المضطربة من الزمن الصعب، ذهبت إلى "طريق الشعب" لأخبرهم بأني قد أُعتقَل في أيّة لحظة، والدليل هي السيارة البيضاء المرابطة أمام الصحيفة، قالوا احذر وانتبه، كلمات ليس لها معنى في تلك الأيام، أيام كانت تؤخذ فتاة رقيقة، وشفافة مثل الناقدة فاطمة المحسن وتساق إلى الدهاليز المعتمة التي تشرف عليها كائنات غليظة، فرغت الرحمة من مساماتهم وعُبئتْ بسائل

twitter: @ketab_n

عدواني، ماذا تنفع كلمات الرفيق المطمئنة والمداجية والخالية من المعنى باتخاذ الحيطة والحذر ؟

بعد هذا الكلام الذي لا يوصل إلى نتيجة، خرجت من صحيفة "طريق الشعب" الكائنة حينذاك في "شارع السعدون" تمشَّيت خطوات باتجاه "ساحة النصر" حيث كانت تقوم هناك مكتبة كبيرة وحين وقفت أمامها أطالع عناوين الكتب المصفوفة على أرضيتها عند مدخل المكتبة، واجهني شخصان وطلبا مني هويتي، أظهرت هويتي لهما، وكانت هوية اتحاد الأدباء العراقيِّين وهي تحمل ختم شفيق الكمالي رئيس الإتحاد آنذاك، ثم بادراني وعلى نحوٍ سريع واستفزازي بالسؤال:

ـ ماذا كنت تعمل في "طريق الشعب"؟

ـ أنا لم أكن هناك، أجبت دون تلعثم وخوف .

ـ أنت تكذب، نحن رأيناك تخرج من زقاقها.

ـ أجل هذا صحيح، كنت في زقاقها أمرّ، ولكن أنا ليست لي أيّة علاقة بالصحيفة.

ـ أنت شيوعي حقير وكذاب ؟

ـ أنا لست شيوعيّاً، بل شاعر، وينبغي أن تنتقي ألفاظك من فضلك.

ـ أصمت أيّها الكلب ولا تجادل...

كانوا اثنين الأوّل كان يدخِّن سيجارة ويحدِّق فيّ طيلة

twitter: @ketab_n

الوقت، مـمّا جعلني أخاف منه وهوالصامت أكثر من المتفوّه، بعدها أعادا الهوية إلّي وغادراني، إلى الجهة الثانية من الشارع، وحين هممتُ بدخول المكتبة، بغية التخلّص من الموقف، طبطب شخص على كتفي اليمنى، حين استدرت لأرى صاحب اليد وإذا بواحد آخر ومعه ثان يطلب الهوية نفسها، أعطيتها له وقلت أنّ صاحبه قد رآها فعاجلني بصوته الأجشّ ونبرته المتفحّصة للمكان والكتب التي انحنى الشخص الثاني معه والتقط كتاباً ماركسياً، لم يفهم عنوانه، ثم رماه ليعيده بطريقة محتقرة واستفزازية، جعلت صاحب المكتبة يلتفت لليد وللكتاب وللطريقة التي عومل بها كتاب موضوع على أرضية المكتبة من لدن شخص أعمه وشكله بدا مجدوراً وفيه حفر بنّية معتمة، تحمل ملامح خالية من التعبير، التفت ليرى ما يجري.

ـ إخرس يا ابن القحبة، هذا ليس شغلك، عليك الامتثال والطاعة والصمت، إنّنا نؤدي واجبنا. ثم أضاف بلهجة مترفّعة بدت من خلال رفعه لرأسه على نحوفيه نوع من التعالي والتكبّر على كائن ضعيف قد يكون في أيّة لحظة رهينة نظرتهم المتعجرفة وقبضتهم الخشنة غير السوية:

ـ هل أنت غانم محمود ؟

ـ لا، إن اسمي هو هذا الموجود في البطاقة.

ـ ما اسمك يا ابن الزانية قل ما اسمك ؟

ـ اسمي هاشم شفيق.

twitter: @ketab_n

ـ هل لك صلة بشفيق الكمالي، عضو القيادة القومية والقطرية ووزير الإعلام ؟

ـ لا، لا أبداً .

رمى الهوية في وجهي ومضى... التقطت الهوية من الأرض ليغادرني ذلك الوجهه الأصفر المحفّر، لم أنسه البتّة حتى كتابة هذه السطور، وظلّ يطاردني حتى في أحلام المنافي وخصوصاً حين سمعنا بقصة شفيق الكمالي وماذا جرى لرفيق دربهم معهم، لقد طردوا شفيق الكمالي الشاعر والرسّام وكاتب النشيد الوطني وجرّدوه من كلّ مناصبه ومهماته الحزبيّة والرسميّة والوظيفيّة في ادارة شؤون الدولة، حقّقوا معه وسجنوا ولده وغيّبوه في أحواض الأسيد، وحين طرق الكمالي أبواب دوائر المخابرات، ذلّوه وأهانوه وعنّفوه ووجّهت له تهم التآمر على الدولة، وحين تعب من التسآل عن مصير ولده بين أروقة المخابرات الخاصة، سُقي قدحاً من عصير البرتقال الممزوج بمادة الثاليوم الكيميائية القاتلة، حتى تهاوى يوماً بعد يوم ومات وهو مستغرق في الكحول والخمرة.

ولكي لا أستطرد وأبتعد عن موضوع الصحافي والمترجم الصديق غانم محمود، انسللتُ بعد تلك اللحظات الرهيبة، من المكتبة وشارع السعدون، مُضيّعاً نفسي في الأزقة، حتى وصلت إلى بيت الصديق الكاتب زهير الجزائري لأخبره بأمري وبأمر غانم محمود، هذا الكائن العذب الذي حقاً اعتقل فيما بعد في مكان

twitter: @ketab_n

عمله في سفارة ألمانيا الشرقية التي كانت تزوّدهم بأدوات التعذيب الحديثة، وتدرِّبهم في دورات خاصة على حفلات التعذيب المتطوِّرة تقنياً، تصوّر الشيوعي الأوروبي الشرقي، يصنع آلة الأذى والقهر والتحطيم لرفيقه الشيوعي العربي، ويمدّ الفاشيات العربيّة والديكتاتوريّة بكل وسائل البقاء والديمومة. أذكر أن الشيوعيِّين الهاربين من نظام البعث إلى رومانيا تشاوشيسكو الشيوعي كان يقوم بتسليمهم إلى نظام البعث في بغداد، وحين يصلون إلى بغداد كانوا يعدمون مباشرة دون محاكمة ودون مراعاة لأبسط القوانين والأعراف الدوليّة.

بعد حادث شارع السعدون، بتّ أسهر كثيراً، فأعود إلى البيت منطفئاً، ثملاً من الشراب، وصرت أدخِّن أكثر من علبتين من السجائر العراقيّة، نوعَيْ "بغداد" أو"سومر" وأعدّ القهوة حتى في الليل داخل البيت، نوع نسكافيه، تلك القهوة ذات الحبيبات البنية الداكنة، أدخّن وأعبّ القهوة وأفكِّر بالسفر والشعر والحريّة والخلاص من البعث والسجون والمعتقلات السريّة، أفكر في لحظات الإعتقال وأجري مع نفسي مونولوغاً لكأنِّي شخصية ميلونكوليّة، مقهورة موسومة بالأسى في إحدى تراجيديات شكسبير، النازعة إلى التفكير بمصيرها الكئيب والمأساوي، فأقول لنفسي: ترى إذا ما اعتقلت، هل سأصمد أمام آلة القتل وقلب السفّاح، إنّ قلبي قد ينهار في لحظة ما ويعترف عن أصدقائه ومسؤوليه وربّما سأفتري على نفسي وأزيد من عندي أشياء هي ليست موجودة من أجل أن أتخلّص من عذاب السجن ونهايته المحتومة، أما القتل

twitter: @ketab_n

أو الاعتراف ومن ثمّ العمل مخبراً لديهم، أشي بالرفاق والأصدقاء وأورّط أناساً ربّما من الجيران وغيرهم ممّن سيخطر في بالي في تلك اللحظات المريعة، مَنْ يدري، فأنا أيضاً انسان ضعيف وقد أنهار وأدلي بما لديَّ من معلومات صحيحة ومزيَّفة لكي أرضي جلادي، أوَليْسَ هنالك أبطال قبلي قد انهاروا واعترفوا وأصبحوا بنظر الحزب ساقطين ؟ فالحزب هو أيضاً لم يكن يرحم رفاقه في تلك الظروف القاهرة، فيبادر مباشرة بتشويه سمعة مَنْ وقّع براءة التخلّي عن الحزب مكرهاً فيعدّه مخبراً، وساقطاً ومحترقاً سياسياً، أوَ لم يكتب السيّاب قصيدة " المخبر " عن البياتي، بسبب الشحناء السياسيّة فيما بينهما؟ فَمَنْ أكون أنا، أمام مئات الأبطال الذين أنهاروا في السجون والمعتقلات من أجل أن يفوزوا بحياة ثانية ؟ حتى لوكانت هذه الحياة تحمل وصمة عار، المهمّ قلت لنفسي أنْ أنجو بجلدي، فأنا لست قادراً البتّة أن أكون سياسياً نزيل سجون ومعتقلات، يصمد ويضحّي بحياته، إنّني شاعر، وأحلم بمستقبل ما لكلماتي، فلأهرب وأفرّ من هذه البلاد اللعينة التي لا تورّث غير الشجى والمرارة وطعم الحياة المرّة.

هذه الأفكار والهواجس التي كانت تدور حول السفر، لازمتني طيلة تلك الفترة وهيمنتْ على ذهني وتفكيري، بيتنا معروف ومكشوف في " تل محمّد " وأنا أصارع الأفكار والظنون والخواطر التي ترد إلى الرأس المثقل بالشعْر والسياسة وبالمعطيات اليومية ومستحقاتها آنذاك، رأيت الأهل يفكرون ببيع البيت المتواضع الذي لا نملك غيره، رضخت لنمط تفكيرهم من دون

twitter: @ketab_n

معارضة منّي، لأني وجدت الذهاب إلى ناحية "بلد" حيث ضريح " السيِّد محمد "، فالناحية تابعة لقضاء سامراء التابع بدوره لمحافظة صلاح الدين، أنتقل الأهل ببساطة وباعوا البيت بسعر زهيد غير متوقّع، وأبعدتُ أنا في هكذا حال عن رفاق الفتوّة والشعر خليل الأسدي وزاهر الجيزاني في تلك المنطقة.

في "بلد" لجأت إلى نفسي، مجترحاً لي فسحة من التأمل، في مكان صالح للسوانح والإنفراد بالنفس، بعيداً عن مكائد العاصمة ومظانّها ولواعجها الكثيرة، فهدأت قليلاً وجعلتُ أفكّر على نحوحسن بالسفر وترك البلاد، إلى حيث المجهول يقيم ولائمه العدميّة.

كان لي في تلك الأثناء جواز سفر، ولكنَّه كان يحمل ختم المنع من دائرة الأمن العام، ولكنَّني ظللت أفكّر في طريقة ومخرج من الأزمة الجديدة التي استجدَّت لي بعد عودتي الأولى من باريس، مما يعني أنّ المنع كان حديثاً، وحبره لم يجف بعد.

في اليوم التالي، ذهبت إلى الصحيفة، وكانت سيّارة الهوندا البيضاء رابضة أمام مبنى صحيفة "الفكر الجديد" قلت اليوم يبدو قد جاء دوري، تأخّرت إلى فترة داخل المبنى، أشرب الشاي وأدخن وأراقب السيارة من النافذة العريضة لمكتبنا المطل على الشارع، هم لا يحفلون بالمارة، ويتصوّرون أنّهم يحكمون عبيداً وما عليهم سوى الطاعة والاستخذاء في كلّ شيء، فهم جالسون بأربطتهم يأكلون السندويشات ويشربون الشاي، من "الشايجي"

twitter: @ketab_n

الذي يقيم سقيفة قرب دائرة الجوازات والسفر العامة، القريبة من مبنى الصحيفة، فشغلهم مصبوب علينا ومركّز حولنا ولا يهمّهم ما يجري أبعد من هذا المكان، رغم هذا الطوق، غامرت بالخروج وقلت فليكن ما يكون، تخطّيت مبنى جريدة " الفكر الجديد " مسافة أقدام قليلة، وأنا في حالة ترقّب لأيّة نامة، ثم خطوت اكثر بخطوات صارت أسرع و لم أكن أنظر إليهم، أو ألتفت، سرت وظللت سائراً دون أن أشعر أنَّ أحداً منهم يلاحقني، أو يطلب بنداء منه إيقافي، واصلت المسير حتى اقتربت من دائرة الجوازات المحاذية لمبنى الجريدة، دخلت فيها وضعتُ في الزحام، مختلطاً بين المراجعين الكثار، هنا خطرت لي فكرة جسّ نبض سفري، كنت احمل نقوداً تكفيني لشراء طوابع وما شابه من أمور تخصّ حالة المراجعة في السفر، كان الجواز معي، وفي الحال انخرطت كمراجع لشأن السفر وجسّ نبض المنع، شعرت أني لا استطيع العودة إلى الجريدة البتّة منذ تاريخ هذا اليوم و لم يكن أمامي غير الرحيل، ولكن كيف، هنا تكمن المعضلة.

قبل هذا الشأن بأيام حدّثتُ أحد أقاربي مِمَّن أثق بهم حول مشكلة المنع، فوعدني خيراً، وقال إنّه يعرف أحد الأشخاص العاملين في دائرة الجوازات وسوف يُعلمه بأنّي خاله، وليدعني أمرّ، دون مشكلات ويحاول بطريقته ترتيب الأمر، ذهبت مباشرة إلى هذا الشخص وكان الزحام على أشُدّه، فجعلت أتدافع من أجل الوصول اليه، كان العرق يتصبّب منّي رغم أنّنا كنّا في فصل الشتاء، وحين وصلت إليه، قلت له أنا من طرف فلان، رمقني

twitter: @ketab_n

بنظرة عجلى من دون أن يفوه بشيء، وأخذ الجواز مني، فسقطت عيناه على اسمي ولقبي في الجواز، فابتسم ابتسامة خفيفة، ولكنّها بدت لي مرحّبة ومطمئنة، وبالأخصّ من هؤلاء البشر المتعبين من المراجعين ومن الوجوه اليوميّة ومن العمل الرسمي الروتيني، بعدها رفع رأسه وسألني عدة اسئلة، لحظتها قلت في داخلي أنّه في كل الأحوال لديه توصية بمساعدتي فهو سوف لن يزيد عليّ، أكثر مما أنا فيه، فسُراعاً، أجبته عن كل شيء سألني عنه، وكأنّني في مكتب للتحقيق أو أمام قاض في محكمة بسبب كثرة الأسئلة وفحواها، عاد الموظّف ـ الشرطي إلى الجواز الذي كان أمامه بينما القلم كان في يده، آنذاك كتب شيئاً بين أوراقه وختمه، وقال لي سلّم على فلان، وضعت جناحي في الحال وحلقت إلى "بلد" بعد أن حصلتُ على موافقة السفر، فلقد كُتب في إحدى صفحاته "غير المقصود بمنشورنا المرقّم كذا وكذا" لم أكد أصدّق لحظتها ذلك، من فوره وقعت صريع الأحلام والأوهام، رحت أنسج آمالاً عراضاً حول حرّيتي، وسيطر عليّ هاجس السفر بشكل لم يدعني أنام، و لم يدعني حتى أن أتغذّى بشكل طبيعي، لقد فقدت الشهية ونحلت و لم أستطع حتى رؤية مَنْ أحبّ، من أخوات وأقارب وأصدقاء، لقد، كنت حينها فريسة القلق والارتباك والاضطراب المر.

كان الصديق الشاعر فوزي كريم يعدّ العدّة إلى السفر فشجّعني على الرحيل معه، حتى أنني وقتذاك لم يكن لديَّ ثمن التذكرة، فلقد قمت بتدبيرها من هنا وهناك، فضلاً عن مساعدة

twitter: @ketab_n

فوزي كريم التي سهّلتْ عليّ كثيراً حالة السفر وخفّفتْ من حالة الاختلال والرهبة في الخروج عبر مطار بغداد .

آنئذ سمع الأصدقاء المقرَّبون بسفرنا، فعملوا سهرة لنا في بيت سعدي يوسف الكائن حينذاك في منطقة بغداد الجديدة، حضرها الصحافي عبد الوهاب ولي، والمترجم نامق كامل والمترجم سامي محمد والشاعر عبد الرحمن طهمازي واستمرت حتى طلوع الفجر، وهي كانت الليلة ما قبل الأخيرة في بغداد، ففي الليلة التالية والأخيرة، قضَيتها ساهراً في بيت الشاعر زاهر الجيزاني، كوني سأسافر فجراً، بعد مروري على منزل أهل الشاعر فوزي كريم الذي كان قريباً من مطار بغداد الدولي.

كان الجوّ ممطراً، والسماء ملبَّدة بغيوم حزينة، يوم انطلقنا إلى المطار حاملين حقيبتين صغيرتين، إلى المجاهل وطرقات اللا معلوم، حاملين أحلاماً صغيرة وأسًى مطوياً بين الشغاف، وعدماً يلوح بين أعيننا عن غدٍ غامض وبعيد، في المطار رأينا أيضاً ثمّة مَنْ يعلن هروبه من أتون قادم ليحرق البلد، رأينا الصديقين، الشاعر مالك الواسطي والقاصّ حسن النصّار اللذين كانا يهمّان بمغادرة العراق إلى إيطاليا، ولقد ظلّا حتى كتابة هذه السطور من نهاية العام ٢٠١٢ هناك في ايطاليا، حين رأيناهما أشحنا بوجهينا عنهما، وهما أيضاً فعلا الشيء نفسه، لكي نبعد الشبهات عنا، نحن اليساريِّين المعارضين لتلك الآونة.

في الطائرة التي صعدنا إليها وكانت تابعة للخطوط الجويَّة

twitter: @ketab_n

العراقيّة وهي متوجّهة إلى باريس، لم نكن مطمئنّين إلى حالتنا حتى نقلع، ونحن على أهبة الطيران وقائدها كان قد شغّل محرّكاتها وهيّأ اتجاهها، نُودي على شخص، كان يتعيّن عليه أن يتحرّك ويترك مقعده لسبب ما يتعلّق بالأمن العام، كنّا والحال هذه نحبس أنفاسنا ونتمنّى من الله أن يُعجّل بتحرّك الطائرة، قبل أن نقع في المصيدة ويُنادى علينا مثل هذا الشخص، تحرّكت الطائرة وأقلعت، وحين خرجت الطائرة من الأجواء العراقية، آنئذ تيقّنا أنّنا أصبحنا خارج دائرة النداء والطلب وخارج الوقوع في شرك المخابرات وطرقها المريرة والعدوانية.

فيما بعد، وبعد مضي سنوات في المنفى، تناهى إليّ، أنَّ قرار خروج اليسار العراقي، كان قد مهّدت له السلطات الحكوميّة بأمر من النائب الذي كان على قاب قوسين أو أدنى من الرئاسة واستلام السلطات المطلقة في كل القضايا المركزيّة والهامة في البلد، حيث مهّد لقرار تفريغ العراق من القوى اليسارية المناوئة للسلطة البعثية، لكي ينفرد كلّية بالعراق ويوصله إلى ما آلت اليه الأحوال لاحقاً، كان قراره مدروساً ومستمدّاً من تجربته وسيرته الذاتية، إبّان إقامته في مصر ولمس معاناة الحياة في المنفى.

twitter: @ketab_n

الشعر والترجمة

حالما وقعت عيناي على التجربة الشعرية الجديدة، لشعر الحداثة، حتى ارتبطت على نحو متلازم بالشعر المترجم من كلّ لغات العالم، لأرى وأتلمّس وأكتشف على نحو ملموس كيف توصّل الشاعر العراقي والعربي إلى أفق التجديد هذا، وثانياً لكي ألمّ بما قدّمه العالم بأسره لهذا الفن الرفيع، فأنت إنْ قرأت تجربة السيّاب الشعرية، فعليك أن تجد إضافة إلى الخيط المحلي، الخيط العالمي الذي يربط هذه التجربة الرائدة بغيرها من شعر عالمي، فالسيّاب في قصائده، سيدلّك من خلال ذكائك أنت وهاجسك أنت وحساسيتك أنت إلى الشاعر العالمي الذي تأثّر به وأحبّه وقرأ تجربته، بحسّك سوف تذهب لتقرأ ما ترجمه السياب أولاً، ومِنْ ثَمَّ تقرأ النقد الذي تناول تجربته الجديدة، وأشار إلى أنَّ ثمَّة شعراء يكمنون أيضاً وراء هذه التجربة السيّابية الفذّة، شعراء مثل أديث ستويل، وستيفن سبندر وتي أس اليوت، وأودن وأميلي ديكنسون ولويس مكنيس ولوركا، الذي اهتدى ولاحظ ناقد لامع مثل عبد الجبار عباس كيف يكشف تأثّره فيه في واحدة من أهمّ قصائده، وكذلك هو الحال مع البياتي ونازك وبلند الذي تأثّر بإليوت كثيراً، أما العرب من أمثال أدونيس فالمثال الذي قام بترجمته الذي هو

twitter: @ketab_n

سان جون بيرس وهوخير دليل على تأثر أدونيس بـ "منارات" و"منفى وقصائد أخرى" و"أنا باز" لسان جون بيرس، فأدونيس هو والسيّاب لم يتوصّلا إلى صيغة أو طريقة معيَّنة في إخفاء ذلك الأثر من أعمالهما التي قدّمتْ، فالهضم الثقافي كان عسيراً لديهما، و لم يستطيعا أن يحوّلاه إلى مادة تداف وتضيع مع نصهما، كما فعل الماغوط وأنسي الحاج وصلاح عبد الصبور وإلى حدٍّ ما نازك والبياتي، وكان أسوأ أثر للتأثُّر هو ما وقع به توفيق صايغ وبلند الحيدري، حيث الإفادة لم تكن خلّاقة كما كانت لدى السيّاب وأدونيس.

من مقلب آخر، كانت التراجم تتدفَّق إبان فترة الخمسينات ومما فوق حتى هذه اللحظة، لقد تنوَّعت التجارب وتطوَّرت الرؤى والأفكار والنماذج والأساليب في طرق الترجمة، وحصلت قفزة نوعيّة منذ بدء مشروع مجلّة شعر الذي ارتبط بمشروع مؤسَّسة فرانكلين للترجمة، فظهرت تراجم في مجال النقد الحديث ونظرياته ومناهجه الجديدة، وظهرت ترجمات للشعر والقصة والرواية والمسرحية كثيرة، قام بها كلّ من خالدة سعيد وأدونيس ويوسف الخال وتوفيق صايغ وعصام محفوظ وشوقي أبي شقرا وفؤاد رفقة، وأنسي الحاج والسيّاب وعبد الصبور ولويس عوض وغيرهم مِـمّن زامنوا تلك الفترة المتألِّقة في حقل الترجمة.

أوّل كتاب قرأته في هذا المجال الحيوي هو"ثورة الشعر الحديث" للمصري عبد الغفار مكّاوي، و"قصة شاعر متشرِّد" للسوري صدقي اسماعيل، ثم انخرطت في ترجمات مجلّة

twitter: @ketab_n

شعر بعد أن حصلت عليها بطرقي الخاصة وبحثي الدائب عن الترجمات الجيدة ومحاولة العثور عليها وجلبها بشتى الطرق والأساليب الممكنة، حتى لو كلّفني السفر إلى ذلك، وقد حققت ذلك بقيامي بسفرتي الأولى التي تتعلّق بموضوع البحر، فمن بيروت جئت بغذائي الفكري والثقافي والروحي إلى بغداد التي كانت تمنع إصدارات مجلة "شعر" و"مواقف" و"حوار" و"أدب" من الدخول إلى العراق.

وكانت المأدبة عامرة، حينذاك بروائع من الشعر العالمي، خمسون قصيدة من الشعر الأميركي بترجمة توفيق صايغ، مائة قصيدة من الشعر العالمي الحديث بترجمة نادية الياس وسليمان العيسى، الشعر الفرنسي الجديد لغايتون بيكون لدار "عويدات"، إي إي كمنجز، الهيئة العامة للتأليف والترجمة في القاهرة من دون أنْ يحمل أسماً لمترجم، وفي بغداد ترجمت سامية أسعد بول إيلوار في مجلّد ضخم عن وزارة الثقافة العراقية، فضلاً عن الترجمة الدقيقة والشفافة لرامبو من لدن الشاعر السوري المقيم في بغداد خليل خوري، هذا من دون أن ننسى ترجمات أدونيس ويوسف الخال لإليوت في الأرض الخراب والرباعيات لإليوت بترجمة توفيق صايغ وهي من أدقّ الترجمات الشعرية لإليوت، ونحن في هذا الخضمّ من المتابعة وحمى القراءة ظهرت ترجمات فؤاد رفقة وهي من أولى الترجمات لهولدرلن وريلكة عن الألمانية، تبعهما عبد الغفار مكاوي ليترجم قصائد لبرشت وهي أيضاً من الترجمات القليلة والنادرة، بعدها كرّت اكتشافات سعدي يوسف

twitter: @ketab_n

ليترجم "أوراق العشب" لويتمان و"إيماءات" لريتسوس الذي عُدّ حين صدوره تحفة شعريّة لشاعر كان غريباً علينا ونحن نقرأ عالمه المغرق بالتفاصيل واليوميّات وبالإسطورة الإغريقية، صانعاً من معاناته الشخصيّة أسطورة ثانية تتساوق مع عالمه الشعري الذي كان يقدِّمه لذيذاً كطبق ساخن مصنوع بخبرة وطعم وإتقان قلَّ نظيره، وكذلك أدونيس من باب آخر ليقدِّم نموذجه الخاص والساحر الذي تمثَّل بأعمال سان جون بيرس، وبالرغم من اللغط الذي صاحب كلتا الترجمتين لـ"منارات" و"منفى وقصائد أخرى"، فإنهما تظلّان من الترجمات النادرة والمؤثِّرة في أكثر من جيل شعري عربي.

في الترجمة تجد لغة الشاعر موسومة في العمل، تجد بلاغته ونَفَسَه وأسلوبه وعدّته اللغوية والفنية تضاف لها البراعة والمقدرة في استيهام خيال الآخر والغوص في عالمه الخاص والتقرّب قدر الإمكان من طبيعته وبيئته وأسراره اللغوية ولعبه الجمالية داخل فنه الشعري، من هنا أدركنا السحر الذي كان يكمن في قصائد جاك بريفير وغيلفيك ورينيه شار وجاك دوبان وفرانسيس بونج وأبولينير، واذا ما قفزنا الشعراء اليوت وإزرا باوند ووليم كارلوس وليامز، فأننا سنكون قريبين من الأحدث والأجدّ الذين قرأناهم فيما بعد بلغاتهم الأم حين بات باستطاعتنا التعرّف عليهم عن كثب ودون واسطة، وهنا أخصّ الشعر الأميركي، كجون آشبري ومارك ستراند وريتا دوف وألن غينسبرغ الذي سبق وقرأناه بترجمة رائعة، دقيقة وأمينة من لدن الشاعر الراحل سركون بولص

twitter: @ketab_n

والإنجليزي إذا ما تخطّينا الشعراء الرومانسيين المعروفين فأننا نميل إلى تجارب تيد هيوز وفيليب لاركن ولويس مكنيس. في بريطانيا حيث أقيم منذ أكثر من عشرين عاماً، أحسب أنَّ الشعر قد ساعدني كثيراً وأعانني في تعلّم الإنجليزية وهي كما هوسائد اللغة الكونية الأولى، لأنّها لغة الانترنت وتوابعه الآلية الجديدة التي لا تنأى عن التقدّم في حقلها الصناعي في متوالية من الإكتشافات التي لم يعد بمستطاعنا مجاراتها وتتّبعها، وبالأخص نحن الجيل الذي بات يتعلم بصعوبة هذا العالم المتشابك من الأدمغة الألكترونية والآلية.

في لندن قدّمت محاولات في هذا المضمار، وانخرطت فيه منذ وصولي إلى العاصمة البريطانية لندن، محاولاً قدر المستطاع ترجمة شاعر أحبّه، ولي به شغف جمالي، وهنا حين أتحدَّث عن ترجماتي التي تجاوزت السبعة كتب شعرية، ظهر منها أثنان، الأوّل "ستارة الحبّ الخرزية" لأستاذ الهايكو الياباني العظيم ماتسوباشو، والثاني هولمعلّم شعري شغوف بشعره وبسيرته الإنسانيّة والثقافيّة والشعرية هويانيس ريتسوس " طقوس في الليل " وهي قصائد مختارة وثمَّة الخمسة الباقيات أبحث لها عن ناشر يقدر الجهد المبذول فيها على مدار عشرين عاماً، وأعود وأقول أني حين انخرطت في هذا الفن المصاحب لعملية الخلق الشعري فأني كنت منطلقاً من قناعة أني مجرّد هاوٍ، أحببت تجربة شاعر ما وانتويت تقديمه وفق مخيلتي الخاصة ولغتي ورؤيتي الجماليّة التي أكتب بها وأستخدمها في الشعر والكتابة، لهذا أنا هنا لا أعدّ نفسي مترجماً بالمعنى الحرفي إنّما أحب اللعب بالكلمات وتلوينها ولكن بأمانة

twitter: @ketab_n

ومسؤولية وليس بطريقة عبثيّة، عشوائيّة، بمعنى آخر أعتبر نفسي ذوّاقة لفَتني شيء جميل واحببت استدراجه إلى عالمي الشخصي، اللغوي والفني لأحوّله إلى العربية، مارّاً عبر قناتي الأسلوبية وأدواتي الشعرية ورؤيتي المعرفية والجمالية لهذا الفن.

ثمّة مَنْ يترجم من اللغة الأم مباشرة، ويكون ناجحاً، وآخر يترجم من اللغة الأم ولكنّه يتعثّر وتشوب ترجماته عيوب كثيرة، مثل عدم تمكّنه من الوصول إلى عمق الشاعر وكشف حواسّه ودواخله والاقتراب من معاناته ومن عالمه الفنّي واللغوي ومن طريقة التعبير لديه، لهذا تبدو ترجمته متكلّفة ومتصنّعة وخالية من الروح الأصلي وتنقصها، وهنا المقتلة، الرهافة والشفافية والسلاسة، ثمّة مَنْ يترجم بشكل حرفي، متّسقاً مع السياق اللغوي، وليس متساوقاً مع الإيقاع النفسي والروحي والفني للشاعر المنوي ترجمته، فتخرج الترجمة عقيمة، ناشفة ويابسة، وثمّة مّنْ يترجم بواسطة ولكنه يتألق كترجمة سعدي يوسف لكافافي، وهناك من يترجمه عن اللغة الأم، ترجمة دقيقة ومنضبطة وأمينة فتجيء الترجمة خالية من الفن الشعري كترجمة نعيم عطية عن اليونانية.

ضمن هذا المنطلق، هل يحقّ أن يترجم غير الشاعر للشاعر؟ أظنّ أنّه يحقّ للآخر الترجمة شريطة أن يكون قريباً من أجواء الشاعر ومناخاته وعالمه الشخصي اللغوي والفنّي والوتيرة التي يتمتع بها الشاعر والهاجس الذي يميّز تجربته الجماليّة من دون غيره من الشعراء، إضافة إلى ذلك هل يحقّ للشاعر أن يترجم عبر واسطة

twitter: @ketab_n

لغوية أخرى؟ أجد من زاويتي أنَّ لا ضير في ذلك لأنَّ الشاعر بإستطاعته عبر مخيَّلته وبراعته وحمولته البلاغية والبيانية والدلالية ومخزونه اللغوي والمعجمي بإستطاعته أن يتوصَّل إلى الجوهر الفنّي لدى الشاعر المنوي ترجمته، وذلك بعد الإحاطة بخصال وسمات ومميِّزات عالم هذا الشاعر، ولكنَّني هنا أتدارك الأمر وأعطي الأولوية للشاعر المترجم الذي يترجم عن اللغة الأصليّة مباشرة ولكن ينبغي أن تتوافر لديه عوامل الشاعر المسبار الذي بإمكانه الإيغال في الطبقات والأسافل الجوانية للشاعر المُتَرجَم، ومحاولة التحرّك إلى المشاعر والحواس والدفائن الذاتيّة والشخصيّة الكثيرة، نشأته، طفولته، محيطه، تاريخه الأدبي، بيئته وكيف واتته الشاعرية ؟ وبمن تأثّر ؟ ولمن قرأ ؟ وهل هو ابن مدينة، قرية، مدينة بحرية، مدينة عادية، صحراوية ؟ تحدّره وأصوله ومستوى ثقافته ودرجة علمه ومعرفته بالمحيط والعالم، إلى آخر ما يستطيع المترجم الإلمام به من معارف وببلوغرافيات ودراسات نقدية ومعرفية دَرَستْ حياة الشاعر وتناولت تجربته الشعرية والحياتية وتفرّعاتها الفنية والإجتماعية والثقافية وسياقاتها الأدبية التاريخية والمعاصرة.

هل ترجمة الشعر، خيانة حسب الأمثولة الإيطاليّة القديمة إياها؟

أجل هي خيانة ولكنَّها جميلة، مهما اعتور هذا الجمال من نقصان ونكوص وهنات، والمثل لدينا يقول "إنّ الحلو لا يكتمل"، إذاً لنستمر في هذه الخيانة، ولنقلّل من نواقصها قدْر الإمكان لكي يكتمل الحلو في يوم ما.

twitter: @ketab_n

فأنا لولا هذه الخيانة، لما استطعت أن أقرأ : مايكوفسكي ويسنين وأنّا أخماتوفا وألكسندر بلوك بترجمة ناصعة ومتمكنة من يد حسب الشيخ جعفر، وكذلك هوالأمر مع الإسبان لوركا وماتشادو وألبرتي وخمينيث، ومع الطليان مونتاله، بافيزي، كوازيمودو، سيريني ولا الألمان جورج تراكل وبول سيلان وستاريوس ولا استطعت أن أقرأ الهندي طاغور وأسد الله غالب وإقبال ولا الفارسي عمر الخيام وأحمد شاملو وسُهراب سِپهري وسعدي الشيرازي وفروغ فرخ زاد ولا الأتراك ناظم حكمت وجلال الدين الرومي وفاضل حسني داغرلجة ولا التشيك فلاديمير هولان وميراسلاف هولوب ولا الهنغاري جوزيف أتيلا ولا البولندي جيزواف ميووش وفيسوافا شيمبوريسكا وهربرت وتادئوش روزيه فيتش الذي ترجمت له أكثر من عشرين قصيدة عن الإنجليزية ولا السويدي غونار اكليف وتوماس ترانس ترومر ولا الياباني ماتسوباشو وجوقة شعراء الهايكوالذين ترجمت لهم مختارات أيضاً ولا الصيني، شعر الحكمة والتأمل ولقد ترجمت منه كتاباً ضخماً يضمّ مئة قصيدة لأبرز شعرائه ومن ضمنهم إمبراطور الصين وكان من الشعراء المتمكنين وغيرهم من العمالقة الذين أضاءوا طريق الإنسانية بكلماتهم ومعانيهم ومعاناتهم وتجاربهم الروحيّة والوجوديّة والإنسانيّة.

twitter: @ketab_n

الشعر والمنازل

ـ المنزل الأوّل.

أكثر المنازل التي سكنتها عائلتي، كانت بالإيجار، أما غرفاً، أو بيتاً مشتركاً كبيراً، تتشارك مع أقربائك مِمَّن هم في مستواك الطبقي، في استئجار منزل بعد سلسلة من الغرف المستأجرة في مناطق عدّة من بغداد، حصلت العائلة على سكن دائم من الدولة العراقيّة في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم، في "تلّ محمد" المنزل كان بسيطاً، متواضع البناء، ولكنّه كان لنا، ملكنا، فهو في النهاية مأوى، وملجأ يسترنا من رطوبة الغرف المستأجرة، خصوصاً تلك التي سكنّاها في منطقة الشواكة بمحاذاة النهر، حيث كان النهر في الشتاء يرتفع منسوبه بسبب الأمطار الساقطة في كلٍّ من تركيا والعراق فيفيض كلّ عام وتتحوّل الأزقة والحارات البغدادية إلى بحيرات وسواقٍ وبرك، ولَكم شاركت حين كبرت قليلاً ضمن فرق الكشّافة في الإبتدائية والمتوسِّطة في حمل أكياس الرمل وفي تفريغ المياه من الشوارع مع الطلبة المتطوّعين للعمل حينذاك في شوارع بغداد الغرقى.

منزلنا الأثير هذا، كان بيتاً شرقيّاً غير مسقوف، بنينا فيه غرفة

twitter: @ketab_n

أخرى أضافة إلى الغرفتين، فصارت فيه ثلاث غرف، إحداها كانت لي، تطلّ على الزقاق الضيّق، مقابل بيتنا كانت صديقة الطفولة، تظهر في الباب كلّ يوم، أو تطلّ من الشبّاك الخشبي الأزرق، لترمي لي همسة، ومن خلف ستارة البيت كانت ترمي لي ضحكة، اشارة ما من حاجبها الغض، تلويحة بيدها الطرية ذات الأربعة عشر عاماً، عينان سوداوان ينام فيهما ليل طويل من الشبق واللذة والحرمان، شَعْرٌ أسود مدلهمَّ كأنّه ظلّ غابة داكنة تزورها في الشتاء.

في المنزل هذا كبرت مع أطفال الزقاق، كنّا نصنع ألعابنا بأيدينا، طيّارات ورقيّة، لعبة الأزرار والخرز، أو لعب الكريّات الزجاجية، لعبة الاختباء والغمّيضة، لعبة "يا حمّصة ويا زبيبة" لعبة التسابق في الزقاق، وهو زقاق قصير بحجم طفولتنا وأحلامنا، نلعب ألعابنا المشتركة، الأولاد والبنات معاً، من دون تمييز حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، فالمراهقة لها وظائف فيزيولوجية أخرى لتُقيم حدودها، وتُحيّدك لتضعك في مكان آخر وعالم آخر هو عالم الذكور، قبل البلوغ كنّا نشتري الأكلات نفسها من الباعة الجوّالين "بيض اللقالق" الذي يذوب في الفم ما أن تضعه فيه، أصابع العروس، السمسميّة، العسليّة، البادم، الداطلي، البقصم، المكّاويّة، شعر البنات، وبائعه ينادي "شعر بنات... وين أُولّي ووين أبات..." وكلّها أنواع من الحلوى، لعبة كرة القدم، كنّا نصنعها من مخلّفات القماش لدى الخياطة الجارة، كانت الحارة مختلطة من شتّى الأقوام والإثنيات والديانات والمذاهب، ولا أحد يعرف مذهب

twitter: @ketab_n

الآخر وأصوله ومرجعياته الطبقيّة وأرومته القبائليّة ومن أين جاء ومن أيِّ بلدة وفد ومن أيّ جذر تحدّر؟ كان الجميع يعيش في بحبوحة من الوئام، والتكافل والتآزر الأخوي، لكنَّ هذا لا ينفي ألّا تكون هناك مشكلات تحصل، بين العوائل الفقيرة أصلاً، وفي زقاق ضيِّق بيوته متلاصقة ومفتوحة للجيران والزيارات القائمة بينهم، كان ثمَّة دكّان صغير مطلع الزقاق، يبيع السكر والشاي والرز والبيض والملح وحلوى الأطفال، وفيه خبّازة تبيع الخبز الحار من تنوّرها الذي تسجره صباحاً ومساءً، وفيه حفّافة تزيل شعر الوجه للنساء بخيط، وفيه بائع وصانع حلوى يبيع الزلابية والداطلي والبرمة، وفيه خيّاطة يزورها الجميع لتخيط ملابس وستائر، مرَّة خيّطت لي جلابية من قماش جاءني كهدية يوم حفل الختان، أما أيام عاشوراء فكانت بمثابة أيام تكافل، في الفضاء الذي يقع في بداية الزقاق كانت تقام الولائم لآل أهل البيت، حيث تُنصب القدور النحاسية الكبيرة مدعومة بالحطب المتوقِّد، لطالما كان هنالك قدر فوق الموقد، تعمل فيه "القيمة" و"الرز" وتُعمل فيه أيضاً "الهريسة" الذائعة، عن روح الحسين عليه السلام، وفي بعض القدور كانت تصبغ جلّابياتنا لتتحوّل، من اللون الأبيض أو البنّي والرمادي والمخطَّط إلى اللون الأسود وكان كل شخص منا يضع علامة على جلّابيته تدلّ عليه، وكان إضافة إلى أيام عاشوراء، يوم "المحيى" يوم نسهر فيه حتى الصباح نحن الأطفال، نطلق عبره المفرقعات والصعّادات النارية، أو نصنع " البوتاز" بأيدينا من مادة الزرنيخ بإضافة موادّ أخرى إليها بعد أن نلفّها بالقماش

twitter: @ketab_n

والخيوط، وما أن ترميها بقوة على الأرض حتى تحدث دوياً هو أقرب إلى صوت إطلاقة بندقية، وثمَّة يوم "زكريا" يوم الاحتفال بمولد زكريا، وهو بالمناسبة يصادف يوم ميلادي، كان الأهل كلّ عام يقيمون هذا التقليد، وهو جلب شموع وباقة آس وصنع خبز العبّاس ووضع الدبس والسمسم في طاس ثم إجراء الدعاء حوله وطلب الأماني والسهر حول الصينية التي لم تكن تخلو أيضاً من البقصمات والكعك والشاي، والملبَّس والزبيب.

في هذا المنزل المفعم بالتقاليد والنعمة والبساطة والألفة، نما خيالي، وظهرت البوادر الأولى لقول الشعر، شعر بسيط كحياتنا في هذا الزقاق، المسقي بالشمس، هنا في هذا البيت تعلّمت العروض الخليلي، في غرفتي التي تطلّ على أول حبّ عفوي، في هذا المكان قرزمت قصائد كثيرة، وطبّقت الوزن على شعري وطبّقت النثر كذلك، ففيه قرأت على سطحه الناعس والمغرق بالأشعة، السيّاب والبياتي ونازك وبلند الحيدري الذي قرأته كما أذكر ذات شتاء في غرفتي، التي كنت أدفِّئها بمدفأة وطنيّة نوع "علاء الدين" وأتغطّى وأنا متمدِّد على الأريكة الخشبية في غرفتي ببطانيّة وطنيّة أيضاً من الصوف صناعة معمل " فتّاح باشا " الشهير.

قرأت "أغاني الحارس المتعب" و"رحلة الحروف الصفر" و"أغاني المدينة الميّتة" وأعجبت ببلند وبقصائده المكثَّفة، القصيرة والمدينيّة، وهي قصائد رأيتها تختلف شديد الاختلاف عن السيّاب والبياتي، وقرأت في هذه الغرفة كذلك نازك الملائكة التي وجدتُ فيها صوتاً نسائياً جريئاً في مخاطبة الذات وتعميق الحسّ

twitter: @ketab_n

الرومانسي الغنائي الحزين، فضلاً عن إعلائها من الشأن العروبي الذي نادت به باكراً، وهو أمر يخصّ تجربتها وتربيتها التي نشأت ربما عليها في بيت يميل إلى تبنّي الشعور القومي العربي، وبالأخصّ الناصري.

وإذا أضفت للشعراء العراقيّين شعراء آخرين فإنّني أضيف لهم تجربتَيْ سعدي يوسف وحسب الشيخ جعفر تحديداً، فهنا وفي هذا المكان الصغير العاري إلا من بضعة كتب أحبّها، قرأت أدونيس وأنسي الحاج وصلاح عبد الصبور وخليل حاوي ومحمد الماغوط، كلّ له تجربته وصوته وخبرته وحسّه الجمالي ونبرته التعبيرية النادرة، وكلّ منهم، أثّر وترك فيّ شيئاً ما من سماته وتقنيته واسلوبه الفنّي، ومَن لم يطلع على تجارب من سبقوه ويتعلّم منهم في رأيي الشخصي، لن يصبح شاعراً جيّداً البتة، حتى لو أصدر عشرات الدواوين الشعرية خلال مسيرته الشعرية.

في البدء لم تكن لديَّ مكتبة أحفظ فيها الأشعار، فكنت أضعها فوق صندوق شاي مقلوب من الحجم الكبير، وحين فاضت الكتب عليّ وراحت تتجمّع، منحني صديق في محلّة الكاظمية مكتبة صغيرة، هدية منه، فما كان منّي إلا أن قطعْتُ تلك المسافة البعيدة، بين تل محمد شرقي بغداد ومحلّة الكاظمية غربي بغداد حتى أجيء بالمكتبة التي كانت مدهونة باللون الكريمي الميّال للاصفر، مع لوح زجاجي يُسحب عليها ليحمي الكتب من الغبار والعث الذي يأكل الورق، فذهبت وجئت بها، لأراها وهي تجلس قرب سريري، مُزيّنة الغرفة بقامتها الخشبيّة القصيرة ومُضفية عليها نوعاً من الوقار الجمالي المفتقَد.

twitter: @ketab_n

عبر شبّاك الغرفة، كنت أطلّ بين الفينة والفينة على جارتي، لأقبلها قبلاً من هواء، وأصنع مواعيدي معها وعبر الشبّاك ذاته كان ينقر خشبه أصدقائي بأصابعهم، زاهر الجيزاني وخليل الأسدي، وشاكر لعيبي لأستقبلهم فيها، أو لنقرأ فيها جديدنا من الشعر، أو لأعيرهم ممّا كان عندي من دواوين شعراء عرب وغيرهم من الشعراء المترجمة كتبهم إلى العربية، كَ سَان جون بيرس ورامبو وجاك بريفير، وبول ايلوار وأراغون ونيرودا، وأنا أيضاً كنت أقوم بالمثل حين أزورهم، فهم كانوا على مسافة خطوات منّي، كنت أميل إلى غرفهم، كانت تطل غرفة زاهر أيضاً على الشارع، فأهمس له عبر الشباك ليظهر، فأقرأ جديدي له في الشارع أو في الغرفة، أما خليل فكانت غرفته على السطح، وهذا المكان المفصول عن الأهل وحركتهم برأيي كان الأفضل، ففي غرفة خليل قرأنا العديد من قصائدنا الجديدة وتناولنا القصائد بالنقد والتقويم، وفي غرفة خليل على السطح، كنّا نأتي أيضاً بالشراب، لنشربه هناك إذا لم تكن لدينا النية في الخروج من محلّتنا لنشرب في مكان آخر من المدينة.

كان منزلنا إذاً في "تلّ محمد" يشبه القصيدة، أبوابه مفتوحة على الريح والمطر والشمس، على الهواء وأصوات الباعة والجيران وبكاء وضحك الأطفال، حتى التأوّهات والصرخات الجنسيّة كانت تصل إلينا، لتدخل في القصيدة ـ الريح والمطر والشمس والخبز الساخن ودلع الفتيات ومسواك النسوة وروائح الحناء والقرنفل وجوز الطيب، الشفاعات والأدعية وأصوات

twitter: @ketab_n

الدراويش والبهاليل، ممن يجوبون الطرقات والأزقة باحثين عن الطعام والكساء، كانت تتسلّل إلى القصيدة لتجد مكانها فيها، نداءات مجلخ السكاكين وخائط الخزفيّات والصحون والأباريق الخزفية والصلصالية المهشَّمة والمكسورة، صوت مستبدل الملابس بالأواني والكؤوس يطرق أبوابنا، وكأنّه كان يطرق باب القصيدة، الشحاذ وبائع البركات والولي والمشَعْوذ وبائعة القيمر، كانت تطرق بابنا، وكانت ربما تترك ضحكتها في القصيدة ـ باعة الشلغم والعباءات والسبح والقلائد كانوا يعبرون القصيدة وربّما نسي أحدهم عقداً وخاتماً وسواراً فيها، بائع العطور النجفية والكربلائيّة والجبن الكردي ومَنّ السما الذي يؤتى به من السليمانية وباعة البخور القادمين من شارع الشيخ عمر السهروردي ربما كانوا يتركون في القصيدة ضوعاً من ذلك العبق حين يمرّون في زقاقنا ومنزلنا الأول المفتوح على العذوبة والعفوية والطيبة، ذلك المنزل الذي كان يستقبل الشمس مكسوَّة بخلاخيل ترنّ، والمطر كفتاة ذات أقراط والريح الحافية التي تدخل إلى منازلنا دون استئذان، حتى الروائح غير المحبَّبة التي كان يحملها النهير الآسن في منطقتنا لم تكن في منجى من ذلك، وكذلك الوحل والغبار ثم المتروكات والمهملات التي كان الوعي الصحي لم يولها العناية والاهتمام الكافيين صارت جزءاً من نشأتنا وتكويننا حين نتذكّر المنازل الأولى.

وعلى سبيل ذكر الريح، مرّة اتفقنا زاهر الجيزاني وأنا، أنّه سوف لن نلجأ إلى استخدام مفردة الريح في قصائدنا، حتى مرّتْ

twitter: @ketab_n

فترة صمت مِنْ كلينا ثم كتبنا قصائد لم تحمل هذه المفردة، ولكنَّنا واجهنا صعوبة في عدم استخدامها خصوصاً إذا ما تكرَّرت محاولة كتابة قصائد جديدة، لذا فشلنا في الإمتحان هذا و لم نصمد في وجه الريح، حين اعترف زاهر لي بأنّه غير قادر على الالتزام بهذا الأمر، فبادرته في الحال وأنا كذلك يا صاحبي ليس في وسعي التخلِّي عن شيء يأتي حافياً إليك من دون استئذان ليجلس في القصيدة بعد أن جلس قبلها في المنزل.

twitter: @ketab_n

منزل السيّاب

حين كانت تضيق بنا بغداد، في تلك الفترة من السبعينات التي تبدو بسنواتها الثماني كأنها ربع قرن من الزمان، لكثرة التفاصيل والأحداث والتحوّلات العامة والخاصة التي مسّت تجربتي البديئة، بينما الآن تعبر العقود وليس ثمَّة من تحوّل في صورة المكان والزمان وفي الأمور اليومية، ما خلا التجربة الروحية التي تنشط وتعمل وتهضم الرؤى والتصورات والهموم التي تفرزها اللحظة المعاصرة، فحين كنا نجد انفسنا نكرر صورة الأيام الماضية، كنّا نلجأ إلى السفر داخل العراق الكبير، فيوماً نذهب إلى السليمانيّة، ويوماً نذهب إلى بابل، وأخرى إلى البصرة وواسط وميسان والديوانية، وكركوك، والموصل والأنبار والناصريّة، إنّه بلد كبير، مساحته مقاربة لمساحة فرنسا، والرحيل والتنقّل بين المحافظات العراقيّة يكلِّف ساعات، إنْ كنت مسافراً في سيّارة أو في قطار، ناهيك عن الرحلات الجويّة التي كانت متوافرة بين البصرة والموصل وبغداد.

ذات شتاءٍ محلّىً بشمس ناعمة، ذهبنا شاكر لعيبي وأنا إلى البصرة في رحلة شاعرية، هدفها زيارة منزل الشاعر بدر

twitter: @ketab_n

شاكر السيّاب، رائد الشعر العربي الحديث ومجدّده، في الطرائق والأساليب والأشكال، لنرى ذلك المنزل، وما جاوره، لنرى أين ولدت العبقرية وعلى أي حجر وتراب وأرض سقط رأس الشاعر.

من تجمّع باصات النقل العام الكائن في منطقة الصالحية، انطلقنا في مسيرة أولمنا خلالها قرابة الثماني ساعات حتى وصلنا، في السيّارة كان معي " قوت الأرض " لأندريه جيد، ومع شاكر كان أحد أجزاء كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني، فالطريق طويل ولا بدّ من عوالم أخرى تسند هذا السفر وتقوّيه وتجعله قابلاً للتحقق.

تحقّق المراد ووصلنا إلى البصرة، العاصمة الثانية للعراق، لموقعها وكبرها وثقل تاريخها الثقافي، والإقتصادي والسياسي، فضلاً عن إطلالتها البحريّة على موانىء العالم، هناك اخترنا فندقاً متوسط الجودة في "ساحة أم البروم" وهومكان مزدحم بالأسواق والباعة والفنادق الرخيصة ومآوي السيارات والباصات القادمة من النواحي والقرى والمحافظات الأخرى القريبة من البصرة، ابتهجنا بالفندق التراثي القديم، أخذنا دوشاً سريعاً وانطلقنا نبحث عن مقهى " الدكّة " حتى عثرنا عليه، كان اليوم، يوم جمعة، وهو يوم عطلة في البلاد كلّها، انتبذنا فيه زاوية، وجلسنا فيه، كان المقهى مزدحماً بالروّاد، وبالأدباء والكتّاب الذين يؤمّونه على نحو دائم وهوكان يقع مقابل نهر"العشّار" ولا يبعد عن مركز المدينة إلّا بضعة خطوات، فيه تعرّفنا إلى الشعراء حسين عبد اللطيف وكاظم الحجاج وعبد الكريم كاصد ومهدي محمد علي وعبد الحسن

twitter: @ketab_n

الشذر شاعر البصرة الصعلوك الذي سينتهي في حادث غامض يقال إنّ للمخابرات العراقية يداً فيه، ومصطفى عبد الله الذي قضى في حادث طرق في المغرب أبان مطلع التسعينات من القرن المنصرم، ووجدنا أيضاً في المقهى القاصّ النادر محمد خضير، هذا القاص الذي يُذكّر ببورخيس، إنّه في زعمي بورخيس العرب، مرّة قال عنه الناقد والكاتب اللبناني عصام محفوظ بأنّه: "أفضل كاتب قصّة قصيرة في العالم العربي". ووجدنا في المقهى أيضاً القاصّ والروائي محمد سعدون السباهي والقاصّ مصطفى ياسين والرسّام ابراهيم الجزائري، إنّ هؤلاء الأصدقاء الثلاثة الأخيرين سيرافقوننا في رحلة الذهاب إلى أبي الخصيب إلى حيث "حمدان" و"جيكور" و"بقيع" و"كوت بازل" ففي "حمدان" ولد أيضاً الشاعر العراقي الكبير سعدي يوسف المجد الثاني والمؤثّر الأكبر في الحساسيّة الشعرية الجديدة في العالم العربي.

من ساحة أم البروم، ينقلنا باص خشبيّ، كان مليئاً بأقفاص الدجاج والحيوانات والريفيّين القاطنين في تلك البقاع والدساكر والقرى النائية والأليفة، المنزوية تحت ظلال وأفياء وسيعة للنخيل المغطّي بكثرته المهيبة سماء أبي الخصيب. المسافة كانت بين البصرة وأبي الخصيب قد أكلت من وقتنا بحدود ثلاثة أرباع الساعة، كان الباص يتوقّف بين الحين والحين لينزل منه راكب ويصعد آخر، وقد يكوّم معه أما كدس من التمور أو شوال من الخيار والطماطم، أو معه حيوانات، دجاجة، ديك، خروف صغير، ومن هنا كانت الرحلة ممتعة، صاخبة بالضحك والتعليقات وبأصوات الحيوانات

twitter: @ketab_n

التي كانت تتشاجر فيما بينها في جوٍ طافق بالطقطقة والأزيز الخشبي لسيّارة متهالكة.

نصل إلى أبي الخصيب، مرهقين من خضخضة الباص الخشبي لنا، ومتربين أيضاً من الغبار الذي كانت تثيره السيارات التي تسبقنا على الجادة الترابية، ومن هناك ستبدأ رحلة راجلة من أبي الخصيب حتى جيكور، في هذه الرحلة المشوّقة، سنكتشف كم هوجميل الريف العراقي، بساتين على مدّ البصر، سواقٍ وجداول ونهيرات صغيرة تحضن الجنان الصغيرة، المثقلة بالأريج والندى الشتائي الخفيف الملفوف بخيوط الشعاع، أشجار باسقة، لأنواع من الحمضيّات، أشجار أثل وقصب وبردي يتعثّر بالماء، سماء كريستاليّة، صافية، طيور تعبر الأفق في أسراب ولا تعرف إلى أين تمضي وأين ستحطّ، لقالق في المسجد العتيق، وطيور مائية تقطع المبازل وتحلّق بعيداً تجاه الأهوار، نور يوقظ فينا أفكاراً قديمة شعّتْ هنا ذات يوم، للمعتزلة في عزلتهم الفكريّة مع الرؤى والأفكار واجتراحات العقل، إخوان الصفا ومسامراتهم في تأكيد الوعي الجدلي، واقتراح النور الفلسفي المستند إلى ذهب العقل ومنجزات الذهن الخلّاق، نمشي ونقطع المسافات الترابية ونحن نستعيد في ذهننا هذه الأمجاد التي سبقت عصر الأنوار في أوروبا بقرون، وهنا المسيرة كانت قد استقطعت من وقتنا قرابة الساعة حتى وصلنا إلى شباك وفيقة الأزرق، حيث جيكور، انضمّ إلينا حين وصلنا إلى جيكور عمّ السياب الذي كان قبل مجيئنا بسنوات قليلة، يتّخذ من منزل السياب مسكناً له، لكن تقادم البناء وانتخار التربة وضعضعة

twitter: @ketab_n

وضع البيت الشرقي المبني من الطابوق واللبن والطين وجذوع النخيل التي تغطي السقوف جعلته يغادره إلى منزل قريب منه.

أوّل ما لفتنا في باب منزل السياب الخشبي الكبير ذي البوابتين، كتابة في أعلاه بالخط على الجبس الأبيض " ملعب فريق الإنتفاضة " كان البيت يحمل الرقم ٥٦ ص، ولا نعرف ماذا يعني ذلك خلال زيارتنا في شتاء العام ١٩٧٦، وما نقصده هل المنزل كان مقراً لفريق كرة قدم، لكن الصبيّ الذي قادنا إلى البيت وكانت معه دراجته الهوائية ومن ثم لقاؤنا بعمّ السيّاب الذي أكد أن المنزل، هو بمثابة متحف تخليداً لذكراه، غير أنّنا اكتشفنا من خلال حديثه عن السيّاب أنّه لم يبد تعاطفاً ملحوظاً مع الشاعر الراحل، وقد بدر منه ذلك حين كنّا أمام منزل وفيقة، وشبّاكها، ولما سألناه عن معنى الشبّاك وذكر القصيدة اعتكرت ملامحه وأجاب بنبرة مجافية، أن هذا الكلام عيب، ووفيقة ابنة عمي ولا ينبغي المساس بالتابوات، فهي قريبته وكلّ ما قاله السياب من كلام حول وفيقة هو مجرّد أوهام وكلام معيب وترّهات ولا ينبغي الخوض فيه من قبلنا كونه يمسّ حيثيات العائلة .

تجوّلنا في الغرف الطينيّة التي جلس الدهر فيها طويلاً، باحثين عن مَعْلم، عن دلالة، عن أشياء تركها السياب، أوراقه، أقلامه، محابره، دفاتره، مسودّاته، كتب كان يقرأ فيها، علبة من سجائره، قداحة، قميصاً، بنطالاً، قبعة، ربطة عنق، حقيبة يدوية، لا شيء من ذلك رأينا، كان ينبغي أن تتعاون الدولة، أقصد المعنيّين بالثقافة، كان عليهم أن لا يفرّغوا هذا البيت بل جعلوه مزاراً

twitter: @ketab_n

للأدباء والشعراء العرب والأوربيين أيام مهرجانات المربد التي كانت تقام ويصرف عليها مال كثير، كان على الدولة أن تهتم بهذا الجانب التوثيقي، بأن يكون بيت السيّاب متحفاً صغيراً يضمّ مقتنياته الحياتيّة واليوميّة التي كان يستعملها في مشواره الحياتي القصير، كما تفعل دول العالم التي تحافظ على تراث مبدعيها، لقد قيّض لنا عبر زياراتنا لبعض عواصم العالم ومدنها النائية والبعيدة عن المركز، أن نرى منازل تحوّلت إلى متاحف لغوته وريلكة في ألمانيا، لكافكا في براغ وشكسبير في ضاحية إنجليزية قريبة من لندن ورامبو في شارل فيل الفرنسيّة، وكذلك كافافي في مكتبة الأسكندرية في مصر، ولوركا في غرناطة، والأخير سوف أقدّمه كمثال للغرب الذي يولي العناية والاهتمام بشعرائه ومبدعيه، بعد نهاية هذه السطور عن السيّاب.

حين انتهينا من التردّد على الغرف العارية من أي قطعة أثاث، ما خلا الجدران التي ظلّت واقفة تتحدى القرّ والزمهرير، خرجنا فألقينا نظرة على "منزل الأقنان" الملحق بالبيت، وهوأحد العناوين التي أرّخت لوجود هذا المنزل، لاحظوا هنا الشاعر هو مَنْ يؤرّخ ويوثّق ما أحسَّه وأثَّر فيه من متع المكان، مرة أخرى توقّفنا أمام "شباك وفيقة" الذي أراد الفنّان ابراهيم الجزائري أن يؤرّخ لهذه اللحظة النادرة، بصورة تذكاريّة فالتقط لنا صوراً بالأسود والأبيض بكاميرته التي كانت معه، إحدى الصور كانت تظهرني واقفاً لصق الشبّاك، متّكئاً نصف اتكاءة وواضعاً يدي اليمنى عليه، مسلِّطاً نظري نحوه في لحظة بدت فاحصة ومتأمِّلة

twitter: @ketab_n

لجدار طيني متآكل، بينما شاكر لعيبي يقف إلى جانبي يدخّن سيجارته، متأمّلاً أيضاً هذا الشبّاك الذي أرّخه السيّاب في واحدة من أجمل قصائده، لم نُطل النظر والوقوف قرب الشبّاك مثلما كنّا في منزل السيّاب، لسبب وجود عمّ السيّاب الذي ربّما بدرتْ أو ندّتْ عنه إشارة أو لمحة قد توضّح عدم ارتياحه لزيارة الشبّاك ومن ثم التحدّث حوله، فاتجهنا مباشرة إلى نهر "جيكور" الذي كان شبه ناشف وليس فيه حياة مائية، وبدا لنا لحظة رؤيتنا له، صغيراً، شبه ساقية، وهو غير ما كان يبدو ويرد في القصيدة ـ فخمّنا أنَّ السيّاب، حين كتب قصائده عن "جيكور" ربما كتبها مستردّاً أيام طفولته والجلوس طويلاً على تربة شاطئه، أيام كان مترعاً بالمياه والاخضرار الذي حواليه، لقد علّق عمّ السياب ونحن واقفين نتأمل "جيكور" بأنّ السيّاب كان يصرف وقتاً طويلاً في الجلوس هنا، لغرض التأمّل والقراءة والكتابة أيضاً، ولهذا مرض وأصاب عظامه الروماتيزم حسب تعبيره، لم نعلّق على ما قاله، بل اكتفينا بإشارة من هزّة الرأس، دلالة على صدق قوله، لأن الذي قيل في مرض السيّاب والداء الذي لازمه طويلاً وكثرت مسبّباته ومسمّياته أيضاً كثير، بعد ذلك سُقينا شاياً من مضافة سيّابية، ثم يمّمنا تجاه البصرة، حين اقترب الوقت من الزوال.

في اليوم التالي صباحاً، يذهب شاكر مع بعض الأصدقاء إلى السوق والمقهى وزيارة صديق له في منطقة الحيّانية، فأذهب أنا مستغلاً الوقت إلى منطقة "الزبير" وهي سُمّيتْ تيمّناً بضريح الصحابي الزبير بن العوام، هناك سأبحث عن منزل الشاعر البصري

twitter: @ketab_n

الغامض والكبير محمود البريكان، في رحلة تشبه المتاهة، رفقة الشاعر المتمرِّد والصعلوك عبد الحسن الشذر، بعد لأْيٍ وإلحاح في السؤال وإرشادات من هنا وهناك، وصلنا إلى بيت الشاعر محمود البريكان بعد رحلة شاقة استقطعت من وقتنا قرابة الساعة في باص خشبي خضنا بما فيه الكفاية فوصلنا، جوعى وعطشى، فقال لي عبد الحسن الشذر: إنّ البريكان رجل متحضِّر وضليع في الموسيقى، زائداً كرمه، فعنده سوف نتغدّى، حين وصلنا طرقنا الباب الخشبي لمنزل أبيض من اللبن والطابوق، حيث بدت منازل الزبير بيضاء، مثل منازل مدن المغرب العربي، كون المنطقة قريبة من السعودية، ودرجة الحرارة فيها في الصيف تتعدى الخمسين درجة،آنئذ فتح الباب لنا فتى دون العشرين، سألناه عن البريكان، فاجاب معتذراً بأن البريكان انتقل إلى البصرة، وسيتزوَّج ويقيم هناك، ضيّفنا ماءً، كنّا بأمسِّ الحاجة له عند مدخل المنزل، لنعود القهقرى إلى البصرة ونتغدى هناك، عدنا هذه المرة بسيّارة سريعة، باحثين في أسواق البصرة حال وصولنا عن مُطيعم ينقذ الموقف ويُذهب الحال التي نحن فيها.

مساءً، وكان ذلك هواليوم الأخير المتبقِّي لنا من الرحلة، ذهبت مع شاكر لعيبي في نزهة راجلة في شوارع البصرة، باحثين عن منزل صديقته الجامعية التي انفصل عنها لظروف تقع خارج إرادته وإرادتها، فتوجهنا إلى هذه الأماكن الجميلة المظلَّلة بأشجار اليوكالبتوس، وشتلات الآس وأزهار الجوري، نبحث عن شيء دون جدوى، فقرّرنا أن نبقى قريبين من هذه الأمكنة، فذهبنا إلى

twitter: @ketab_n

حانة تقع في مفترق طرق قريبة من شطّ العرب وكورنيشه الجميل، كانت الحانة زرقاء تشبه حانة صيّادين، احتسينا فيها العرق العراقي المصحوب بالسمك والحمص المسلوق والباقلاء، حتى ثملنا، لنعود ونحن نردّد في الشوارع ليلاً أغاني عن حبٍّ مفقود.

تسحرني منازل الشعراء التي رأيتها ودخلتها العربيّة والعالمية، وكذلك هوالحال مع الروائيين والكتّاب والفنانين من رسامين ونحّاتين عالميّين، تتحفني رؤية الحياة الشخصيّة لهم، فهنا في لندن لطالما توقّفت وأنا أجوب شوارع العاصمة البريطانية لندن التي لا تستطيع اكتشافها كلّها حتى لو أقمت بها دهراً، نتوقّف وأنا صحبة الأصدقاء وبالأخص الكاتب جمال حيدر أمام البيوتات والغرف والشقق السكنيّة لعشرات من الشعراء والكتّاب والفلاسفة والفنانين الذين تخطّ بلدية لندن آرمة معدنية موحّدة تشير إلى مَنْ سكن هنا من الشعراء والكتّاب العالميين مثل إليوت وكافافي وفيليب لاركن وطائفة من الرسّامين، والمفكرين والعلماء والأطباء المشهورين .بمكتشف علمي ما، ولا أنسى بالطبع زياراتنا المتكرّرة لحي سوهو الصاخب في لندن من أجل إلقاء نظرة استيحائيّة إلى شقة كارل ماركس الفيلسوف والمفكر العالمي العظيم، نظرة تحاول أن تستقرىء ما في داخل هذه الشقة من حيوات ماضية وأدوات حالية كان يلازمها رجل أراد أن يغيّر العالم وفق نظرية الصراع الطبقي ومفهومة رأس المال والجدل الذي أجلسه على قدميه بعد أن كان مقلوباً على يد من سبقوه وخصوصاً المفكر الألماني ونظيره الفيلسوف الجدلي هيغل وغيره

twitter: @ketab_n

من فلاسفة عصره، فيلسوف ومفكّر يعاد النظر والعودة الآن إلى جلّ أعماله الفلسفية والفكرية، ذلك بعد ما أصاب الرأسمالية في هذه الفترة من تراجع ملحوظ ونكوص وانهيارات مالية ومادية ومعنويّة في قلب الاقتصاد العالمي الجديد.

twitter: @ketab_n

منزل لوركا

وأخيراً وصلت إلى منزل شاعر إسبانيا الأشهر فريدريكو غارسيا لوركا في غرناطة التي غنّاها طويلاً في قصائده، غرناطة الأندلس، عالم ينطوي على سحر تاريخي، تمثّل في أندلُسيا أو أندولثيا كما يلفظها اللسان الناطق بالإسبانية، إنها أندلس العرب القدامى، الفاتحين الأوائل، عشّاق المغامرات البحرية المفتوحة على الدهشة، على الشراع المسافر في ريح أولى، ريح البدايات والكشوفات الجمالية التي استنبطت عوالم تتدثّر بالفرادة والبراءة والتراب البكر، التراب الجديد المصحوب بأرض جديدة، وبحر طازج يكتنف سواحل متوسطيّة ومدنا مغموسة بالدفء، بحرها زاخر بالدلع والخفّة وبشموس عارية تحتمي بالذهب، إنّها أندلس من خرز وحصى وصخور مرقّطة بالنمش، إنّها من عرعر وحور، من زيتون وليمون وطعم يندّ عن البرتقال، أندلس من شآم ومرايا، من سهب ووهاد مرقّشة بأغاني الغجر وأنين القياثير وبكاء النايات ورعشة الهبوب المندلعة من رقصة الفلامنكو، كعب يدقّ أرض الأندلس، ليلد الإيقاع، لتنبثق الموسيقى من موجة، من حجر، من نبع، رايات حمراء تراقص النسيم والثيران في المَلاعب الكَبيرة، هذا ما تجود به الأندلس الآن، لتنسلّ منها نظائر رقيقة كأشبيلية

twitter: @ketab_n

وقرطبة وبلنسيا، وإليغانتي، وابن المدينة وبن سالم ومايوركا، موطن الرحّالة والكاتب الأندلسي القديم إبن جبير، أندلس الشعراء إبن زيدون ولسان الدين الخطيب ودراج بن قسطل والعشرات غيرهم.

إذاً على هذه الأرض الجميلة كنت أتنقّل، قاطعاً مَلَقَة الكبيرة، مركز المقاطعة الذي يضمّ كلّ تلك المدن التي ذكرتها، وهي مدينة مدلّلة يلحس الضوء سقوفها القرميدية ويقبل البحر أرصفتها وكورنيشها الطويل الذي لم أرَ مثله في حياتي، يبدأ من الحلم لينتهي في الحقيقة، والحقيقة هي ملقة، أي ملكة بالعربية. جئتها قادماً من مدينة مجاز والكلمة واضحة المعنى في العربية، الأسبانيون يسمونها ميخاس لأنَّ حرف الجي اللاتيني يتحول إلى حرف الخاء في لغتهم، وميخاس هذه، مدينة ناعمة وحريرية، منقّطة بأزهار النسرين وسعفات النخيل وأشجار الصنوبر التي تملأ كل أفق اسبانيا، تلك النخلة التي جلبها معه عبد الرحمن الداخل من دمشق إلى منفاه الإسباني الذي سيصبح جنّة الدنيا، وهي جنان حقا، مارَبيّه، فانغويرولا، وهما مدينتان نائمتان في البحر، تلتحفان الرمال الماسية، ولا تبكيان على مجد غابر، بل تقدّران ذلك الزمن العابر الذي خلف لهما كل هذا البهاء الذي يدرّ مالاً سياحيّاً على مدار الساعة، وخصوصاً في قرطبة وجبل طارق وأشبيلية وغرناطة حيث قصر الحمراء والقصبة وهما آخر ما تبقى للأمير أبي عبد الله الصغير من حصون قبل أسره ونهايته المحزنة في هذا المكان وإطلاق زفرته الأخيرة، ندماً وأسى ولوعةً على مُلْكٍ سيضيع إلى الأبد.

twitter: @ketab_n

يقوم القصر القلعة على هضبة عالية شبه جبليّة، حصونها والقصبة بالذات تشرف وتطلّ على كل ممالك الأندلس آنذاك، إنّه مكان حصين، هكذا بدا لنا، قائماً في المدى، يحتضن الأفق المعطّر، هنا الهواء مخملي، مرشوس بروائح الأزهار، تخترقه هبات منبثقة من شجيرات الصنوبر والسرو والأترج المتواري في سحابة ورديّة، والقصبة هذه تبدو للرائي إليها حامية كانت تحمي الترف الناعم في قصر الحمراء، تحمي الممالك والملْك والبحبوحة الأندلسية المتّكئة على الغناء والموسيقى والشعر والابتكارات التي برزت في هذا الفن الرفيع كالموشَّح والمربع والاستنباطات الفنية الأخرى التي رافقت اللحن والغناء، وبذا كانت تتَّسم بالرقة والانسيابية والطراوة عكس ما كان يحدث في الشرق، خصوصاً على صعيد الشعر والغناء، فالشعر كان وليد هذه الأجواء الطليلة، الرطبة، المزركشة بالندى وضوع الخمائل، وهو بالتأكيد كان يختلف عن تلك البيئة شبه الصحراوية التي كانت تطبع قصائد الفحول من الشعراء في المشرق العربي.

النسيم المتدفِّق من قصر الحمراء وهويحمل موجته العطرية يرشدنا إلى المكان، ندلف إلى البهاء، بعد أن تركنا وراءنا القصبة العالية التي ستُسمّى تيمناً باسمها العديد من المدن المغاربية في تونس والجزائر والمغرب وليبيا. رفيقتي في الرحلة تتوقف أمام المدخل الذي يحمل جملة سنراها على جدران الأواوين وأقواسها الحجرية، وفي مداخل الغرف وعلى حائط الطوار الملحق بالقصر وهي جملة "لا غالب إلا الله"، بعد ذلك تخرج الكاميرا وتلتقط

twitter: @ketab_n

صورة للمسطور على الجدار، أضحك وأقول لها: ما الفائدة، لقد غُلبوا بالرغم مما هو مكتوب بأناقة زخرفية لا مثيل لها، ممّا أهّلها للبقاء بعد كل تلك القرون التي عبرت؟ تعبر كلامي بكاميرتها لتتجه نحو أجمة نائمة في حوش القصر قربها حوض ماء شذري، وكوى ربما كانت تستخدم للسرج والفوانيس والقناديل الزيتية الخاصة بالإضاءة، في هذه الأثناء، اتلع رقبتي وأميل إلى حائط صلصالي ذي لون أرجواني، أشمّ الحائط ثم أتفرس في الحجر، هنا تتدخل رفيقتي في الرحلة لتقول : "بدأت تحن إلى زمن الأجداد" فأجيبها: "إنّه فعل شاعري ليس إلا" ثم نكمل المشوار في هذه الأبهاء التاريخية ولسان حالها يقول: هنا كانت الجواري يرقصن ويغنّين، هنا كان ينام الدلع، وينعس الغنج بين هذه الطنف البارزة في السقوف وبين هذه النقوش السارحة في باحات القصر، وأتساءل هل عزف زرياب في هذا المكان الحالم، وفي أيّ زاوية من زوايا هذا القصر الكبير على صوت وتره أنبلج مطلع أغنية من حنجرته الموصليّة؟ وكم من الشعراء قرأوا وسط هذه التكايا الحجرية؟ وأيّ نوع من الشراب كانوا يتناولون، وهم ثملون بين المدامة والكأس والنديم ووقع خلخال لجارية روميّة؟

هنا أخرج من سرحاني، وأنسلّ من بين عالم الأرابيسك الذي يرقش القصر ويضفي على المكان سحراً من أجواء ألف ليلة وليلة، أنظر إلى السماء أجد أنّ الوقت بدأ يتداركنا، والشمس أخذت تنحسر عن مساحة القصر، نخرج من التاريخ مسرعين إلى الواقع، فنحن جئنا من مكان بعيد، وفي مسيرتنا قطعنا قرابة

twitter: @ketab_n

الخمس مدن محمولين بين قطارات وباصات وأنفقنا أربع ساعات في الوصول إلى هنا، وعلينا أن نبذل في العودة نظير هذا الوقت، خصوصا أني كنت مصمِّماً على زيارة منزل لوركا، من هنا كان علينا أن نسرع لنقتصد في الوقت. عند مدخل سور القصر استقللنا تاكسيا فهويقع على مرمى عشرين دقيقة، قلنا إلى السائق الغرناطي الشاب إلى منزل لوركا، هنا الكلّ في غرناطة يعرف منزل لوركا، هذا الشاعر الرقيق الذي ستقتله كتائب فرانكو الفاشيّة ذات فجر أندلسي حزين، قال لوركا في احدى قصائده قبل مقتله الدموي ـ التراجيدي "حين أموت دعوا الشرفة مفتوحة".

نصل إلى المكان الماثل في حديقة كبيرة " بارك لوركا "، من بعيد يظهر المنزل الذي لا يوجد غيره في هذا الفضاء الأخضر، نحن إذاً في مواجهة المنزل ـ المتحف، منزل أبيض بأبواب وشرفات وشبابيك خضراء، هنا تطلّ في رأسي مباشرة قصيدته المعروفة "خضراء" التي أثّرت في شعراء عرب كثيرين أبرزهم السيّاب وسعدي يوسف ونزار قباني، وأثّر مسرحه في صلاح عبد الصبور.

في مدخل المنزل، نرى مكتباً صغيراً، يديره رجل، ونرى ثمّة شباناً ينتظرون المرشدة التي هبطت من سلّم خشبي أخضر لتقود الجميع إلى المنزل، ننضمّ إلى الجمع الذي يبدو أنّه جاء من مدن إسبانية مختلفة ليزور هذا الموقع الرهيف، بخفر وصمت نجوس صالة الطبقة الأولى من المنزل المتكوِّن من طابقين، بهمس نتكلّم ربما لكي لا نوقظ الروح المرفرفة للوركا في هذا المكان، الصالة تضمّ أريكة من قماش مبطنة بكتّانٍ سميك فضلاً عن طاولة

twitter: @ketab_n

صغيرة، وهي قد تكون معدة للزيارات السريعة أو مكان استراحة قصيرة، على جانبها الأيسر حاويات زجاجية كالتي نراها في المتاحف، من تلك التي تضمّ مقتنيات ثمينة ذات قوائم خشبية، باستطاعتك أن تنحني قليلاً عليها لتقرأ، أنّها نماذج من مخطوطات لوركا الشعرية، كتبت على ورق شاموا صغير الحجم، جذاب وبقلم رصاص، مصحوب بتحكيك وشطب لبعض الأبيات وتغيير ترافقه أسهم تشير إلى الدلالة الصحيحة، هذا هوعمل الشعراء حيثما كانوا، الخط كما بدا لنا ناحلا كصاحبه وفاتنا في امتداداته واستداراته واستطالاته وهو يمرّ حاملاً حبره البنفسجي الفاتح، رهبة تتملّكني خليطتها البهجة وأنا أرى قصائد من ديوانه الأوّل "كتاب الأشعار" و"الأغنية العميقة" و"أغان" و"حكايا غجرية" الديوان فائق الشهرة والذي كرّسه كشاعر كبير لأسبانيا، ناهيك عن "شاعر في نيويورك" الديوان الذي قدّم فيه نقلة فنيّة وجوهريّة في مسيرة عمله الشعري، حاملاً نكهة شعريّة مختلفة، فيها مسّ من الفانتازيا والبعد السوريالي والغرائبي الذي تسلّل اليه من خلال صداقته مع عمالقة الفنّ الأندلسيّين كسلفادور دالي ولويس بونويل السينمائي السريالي وبيكاسو. حين نفرغ من الشعر، تواجهنا مباشرة، أعمال لوركا التشكيليّة، محتلّة مساحة من غرفة مفتوحة، هذه اللوحات بدت مثل قوالب حلوى ولكنّها لا تؤكلُ إلّا بالعين، كأنّها قوارب ملوّنة من ورق، كأنّها تقول لخوان ميرو: أنا أيضاً لاعب طفولي كبير، كيف لا وهو الذي كتب عنه العديد من المحاضرات الجمالية التي درست فنّه وشرحته بوسائل

twitter: @ketab_n

تعبير شعريّة ونقديّة، في الجدار الذي يقابله ثمة لوحات رسمت كهدايا من دالي وغيره من الفنّانين، حين نخرج من هاتين الغرفتين نخطو قليلاً لنكون في صالة رحبة تقوم في الجانب الأيمن من المنزل في أثاث خفيف ولكن اللافت فيها هو بيانو لوركا ذو اللون الكستنائي الداكن المصقول باليود وهو يتوسّط الصالة مع كرسي قصير وذي نصف استدارة، النوتة الورقية، لم تزل هاهنا، وهي تحمل مغزى أصابع لوركا وختمها، ذلك الختم الذي خلف تآليف موسيقيّة عديدة، فلوركا كان يُعدّ في بدايات حياته موسيقياً أكثر منه شاعرا، له مقطوعات ومنوّعات لحنية عديدة كان في شبابه يعزفها وهويجوب القرى والمدائن الأندلسيّة ليقدّمها هناك، إنّها الموهبة الفريدة والمتشعّبة، أي أننا أمام موسيقي محترف ورسام ومؤلّف مسرحي وشاعر مشهور، ومن هنا رقة أدائه الشعري والعذوبة الربانية التي رافقت مجمل أشعاره المبكرة واللاحقة.

نصعد إلى الطبقة الثانية، هذه غرفة نوم لوركا قالت المرشدة، السرير عليه شرشف قطني مخطّط ووسادة صغيرة بوسعها احتواء أحلام لوركا ومشاريعه المختلفة، السرير من خشب الزين وبدا صغيراً كأنّه عُدَّ لصبي وليس لرجل، هنا تجهش رفيقتي بالبكاء حين تراه، وتتساءل كيف واتت القدرة كتائب القتلة أن تُسْكت هذه الشفافية الزاخرة بالحياة والفن، وكيف استطاع القاتل وضع حدٍّ لنبع الجمال واغتيال المجرى؟ أمامه يقوم مكتب لوركا وهو متكوّن من طاولة وكرسي خشبيين مائلين إلى الإصفرار الكهرماني الغامق، إذاً ها هنا كتب لوركا قصائده الرائعة التي تحدّث عنها

twitter: @ketab_n

النقد الإسباني طويلاً وحتى الآن، مثل قصائد الغزل وقصائد التماريت، المكان يوحي بهذا، إنّه لم يزل مفتوحاً على الحقول، على حقول التماريت والليمون والزيتون، وعلى الطعم الكامن في رائحة الأشجار، نترك ظلّ لوركا نائماً في غرفته، لنأتي إلى المطبخ، في المطبخ طاولة طعام كبيرة مع كراسٍ، تدل على عدد كبير للعائلة وثمّة صحون خزفية محفوظة في خزائن المطبخ تشيع في هذا المكان روائح قديمة للتاريخ، مما جعله يترك أثراً على الصبغ الذي راح يتآكل ويتقشَّر مع عطن الجص والحجر القديم، أنفاس على الجدار للوركا، ربما لأمّه وأبيه ورائحة الأحطاب ما زالت تشيع في أرجاء الفرن الفحمي الصدئ، كلّ شيء يومىء بالقِدَم، سوى الحنفيّة البرونزية اللماعة، وهذه الصورة لعائلة لوركا وهم يجلسون خارج المنزل في يوم مشمس على كراسٍ طويلة الأعناق، يشربون ويأكلون، وقد لاحت عليهم علائم الدعة والراحة.

twitter: @ketab_n

الشعر والشارع

أزعم أن الشعر مرتبط بالشارع، لا مناص للشعر من الشارع، شعر اليوم هوليس الشعر الباروكي وليس الشعر الرواقي، و لم يكن حتى الشعر الرومانسي، وشاعره لم يكن أيضاً بالشاعر الجالس في البرج العاجي، وليس هو ذلك المتنسِّك المنحاز للصومعة، شاعر اليوم هو شاعر اليومي، شاعر التفصيلي، شاعر الشيئيات، الشاعر الذي يجد نفسه في الرصيف مع العامة، مصائبه من مصائبهم وفرحه لا يأتي إلّا منهم، ليس ثمّة انفصال بين شاعر اليوم والإحداثيات التي تحصل حواليه، والجوائح التي تمسّ البشرية، من فقر وحروب وأدواء، أليس صحيحاً ذلك يا جاك بريفير؟ أثمّة خطل فيما أقول يا بابلو نيرودا ؟ ألم يرتبط الشعر بالخيال والواقع يا يانيس ريتسوس؟ وأنت يا بشّار بن برد ألم تكتب في ذلك الزمن البعيد قبل ألف عام عن الدجاجات في البيت؟ وأنت يا امرأ القيس ألم تتحدَّث عن مصابيح الراهب يا أبانا الأوّل النازل من جبال عسيب قبل أكثر من ألف ونيّف؟ يقول ستيفن سبندر: "إنّ الشعر يقوم على الواقع، بينما الإيمان بعالم القوة والاقتصاد والأغراض المادية، هو إيمان بالوهم لأن الشعر يؤمن بأنّ كلّ شيء في الحياة، هوتعبير عن الخصائص في الحياة الإنسانية".

twitter: @ketab_n

من هنا شعر اليوم هوالشعر الأقرب إلى الجوهر الانساني، بعدما تخلّص من الزخرف والمحسّنات البديعية، من الجمل الطنّانة والفارغة، من البلاغة الوعرة، من الجَهْوَري، والموغل في الخطابة، ولذلك الشعر الحقيقي يستمدّ في الغالب تجاربه من الشارع، والمعني هنا بالشارع ليس الشارع بذاته، بل المعني الحياة وإكسيرها الخفيّ في أدقّ الأشياء الصغيرة الموجودة على هذا الكوكب، والشعر كونه هياماً وإلهاماً واستيحاءً وخيالاً فإنه أيضاً يجنح للفنطازي والغريب والمشوب بنكهة سريالية، لأنَّ الواقع المتخيَّل في الشعر هو غير الواقع المادي ـ العادي، فأنا لم أقصد الذهاب إلى كتابة الشعر الواقعي ولا ما سُمّي بفترة ما بالواقعي الإشتراكي مطلقاً، بل أقول أنَّ شاعر اليوم هو ابن الواقع وعليه أن يحدِّق فيه بطريقة جمالية وفنية ويخلق مما يراه قطعة سحرية تشبه الواقع ولكنها ليست هو، أي مهمّة الشاعر هنا تحويل الواقع إلى فن ودهشة وأسطورة جديدة ويوميّة لها صلة بالمعيش والحياتي، هنا تكمن الصعوبة في هذا الشعر، وهي صعوبة السهل الممتنع، كما سمّاه نقّادنا العرب القدامى، ويسمَّى أيضاً بالغموض الماسي وبالبساطة العميقة وبالجذل الدفين وبالصمت الموحيّ، كلّ شعر ينتسب إلى الشارع وفضاءاته هوشعر يصل إلى القارىء، قبل غيره من الشعر العسير والمتعثِّر والمتقوقع على ظلام الكلمة، لن يصل إلى الناس، الخبز البائت والبارد يفضِّل عليه الناس الخبز الحار والطازج، الشعر ينبغي أن يكون قريباً من مادة الخبز الحار ليشبع جوع المخيِّلة لدى القرّاء.

twitter: @ketab_n

أذكر في صباي وفتوّتي وشبابي الكثير من الشوارع الجميلة التي أثرت مخيّلتي بالشعر ودعمته بالرؤى الجمالية، بغداد كانت في مطلع السبعينات مدينة شوارع وساحات وأزقّة لا تحصى، أبرزها شارع الرشيد وشارع السعدون وشارع النضال وشارع أبي نُواس وشارع الكفاح وشارع الجمهورية وشارع الشيخ عمر، وشارع النهر، وهي من أبرز شوارع بغداد في السبعينات، شوارع عامرة بالأسواق والمحلّات والدكاكين البغدادية القديمة، شوارع تنتسب إلى أرواحنا والى أفق طفولتنا وصبانا وفتوّتنا، لكم سلكناها وطرقت أحذيتنا تلك البلاطات والحصى والأرصفة الرواقية الظليلة فيها، لكلٍّ شارع من هذه الشوارع طعمه الخاص في الذاكرة، إنّه طعم البدايات، طعم الحياة في تكاوينها وتجلّياتها الأولى، حين كنّا نمضي لشأن ما هناك.

في شارع الشيخ عمر السهروردي كنت أعمل في "مطبعة الحكومة" التابعة لوزارة الثقافة، مسؤولاً عن مخازن الورق، في هذا المكان الجميل الذي أصدر العديد من الكتب الإبداعية المهمة، شعرية وروائية وقصصيّة وبحثية ونقدية، فضلاً عن الترجمات الأدبيّة، قرأت الكثير ونشرت قصائد جديدة، في تلك الآونة انتكست ثورة تشيلي وهبّ أحرار العالم يتضامنون معها، فمنهم مَنْ يغنّي ويكتب ويؤلّف الموسيقى الداعمة، حينها تم قُتل المغنّي التشيلي فيكتور جارا، فما كان منّا نحن في العراق إلّا التنديد بالحادث، كون العالم واحداً والثوار والمبدعون متشابهين حيثما كانوا، فكتبت حينئذ قصيدتي التضامنيّة ونُشرت في طريق

twitter: @ketab_n

الشعب، الصحيفة الشيوعيّة، وبعدها وجدت نائب المدير العام في دار الحرية للطباعة التابعة لوزارة الثقافة يطلبني، فمثلت للطلب، وانتظرت في غرفة المسؤول دقائق فجاء يمشي مشية الشقاة، وهو متمنطق بمسدسه الذي كان موضوعاً تحت سترته، حين واجهني دون أن يسلّم عليّ، نزع المسدس ووضعه على الطاولة وفوهته كانت مصّوبة باتجاهي، لم أهتم للأمر، كون كلّ المسؤولين البعثيّين كانوا يقومون بمثل هذه الحركات الرعناء والخارجة عن حدود اللياقة والتي تصبّ في خانة التنطع، حديث الجاه والسلطة، فجأة اتّهمني بأنّي أقوم بكسب عمّال المطبعة الحكوميّة للحزب الشيوعي، وقال نحن نراقبك ولدينا تقارير تؤكّد ذلك، ولكي أردّ الاتهام المزعوم قلت: إني أتحدّى العامل الذي يأتي أمامي ويقول إنّي قد عرضت عليه الانضمام إلى الحزب الشيوعي العراقي، وأضفت: إنّي شاعر وليست لديَّ أيّة علاقة سياسيّة بأيّ عامل، سوى علاقة العمل، وإذا كان لديّ شيء مما تقول فإني قد أعمله في مجال حقلي الثقافي، وليس في المجال العمّالي، وقبل أن أخرج قال: انتبه إنّنا نحذّرك يا صاحب فيكتور جارا.

حقاً كان عملي السياسي مرتبطاً بالمثقّفين، وهو عمل عضوٍ عادي، وكان الحزب يخفّف عن الشعراء المهمّات الحزبية والعمليّة، فهو خير مَنْ يعرف نزق الشعراء وأهواءهم وتردّدهم حتى بجدوى العمل السياسي في بلد لا يقدّر الحريات الشخصيّة ولا يقرّ بحرية المعتقد والرأي والفكر، ويطحن مَنْ يعارض فكرته ونهج حكمه وطريقته في العمل اليومي، فيكون مصيره التغييب

twitter: @ketab_n

والسجون والتعذيب والمعتقلات وهذا ظلّ سائداً حتى كتابة هذه السطور في العراق الجديد.

ومن الشوارع المحببة اليّ، غير الشوارع المعروفة التي تحدَّث عنها الكثيرون، وأنا من بينهم، مثل الرشيد والسعدون وأبي نُواس، ثمّة شارع النضال والنهر والكفاح، ففي شارع النضال، وغبّ بلوغي وانتفاض الرغبة وتوهّجها، وتصريف المكبوت، وجدت مع صديق طفولتي طريقاً لرؤية الشغف الذي يحلم به الذكور وهوعضوالمرأة، واكتساب التجربة وفكّ العذرية والابتعاد قدر الإمكان عن ممارسة العادة السرية التي اصبحت يومية، فذهبنا حسب ما أخبرنا من هم بسننا أو أكبر قليلاً وقد حمل التجربة وصار يتباهى بها بأنه قد مارس كيت وكيت في شارع النضال، فما كان منا سوى اقتفاء التجربة والدخول في الواقع العياني، بدلاً من التلذذ والاستيهام واستيحاء مَنْ تهوى عبر طريقة وهمية، فقرَّرنا صاحبي وأنا الذهاب إلى شارع النضال الذي يبيع اللذة، لنشتريها بدريهمات قليلة ولكنَّها بالنسبة إلينا وفي ذلك الوقت من الزمن كانت كثيرة، والطريقة في الشراء كانت غريبة، وهي تتلخَّص بسيّارة تمر وسائقها ينادي على الواقف في زاوية من ظلام الشارع، هل تريد الونسة؟ فنصعد حينها للسيّارة لنرى في وسطها مَنْ تبيع الهوى نائمة في داخل السيّارة وما عليك إلّا أن تبدأ عملك معها وبسرعة، لأن السيّارة سوف تمشي وقد تُنزلك في مكان آخر من تلك الشوارع الخلفية، وإنْ كنت لا تعرف كيف تتّصل في البدء مع عضو المرأة وتكون تلك هي تجربتك الأولى كما كان هو الحال

twitter: @ketab_n

معي، فإنّها لسوف تساعدك وتدلّك على المرام، وكانت بطبيعتها تساعد الفتية الجدد وتعطيهم وقتاً أطول ولكن السائق كان صوته يرتفع خلفك كالسوط: " هيا إنْهِ الفعل يا مغفّل وعجّل"، وفي الشارع ذاته حين كانت تمرّ أعياد الميلاد ورأس السنة، حين شببنا وصرنا نكتب الشعر، كنا نجيء إلى هذا الشارع ولكنّنا كنّا ننفذ منه إلى الشوارع الموازية له في الكرادة والمسبح ومنطقة رخيتة، لنجول هناك ونحن نرتدي الأقنعة وبأيدينا آلات موسيقيّة، الشاعر خليل الأسدي كان في يده قيثار وأنا ناي وزاهر الجيزاني هارمونيكا وسامي عبد الجبار رقّ، وسعد البياتي طبلة صغيرة، نتجوّل في المسبح حفاة الأقدام، وفي رقابنا عُلقت يافطات كُتب عليها كلمة شاعر بالإنجليزية، كنا بطبيعة الحال ثمالى، لا نأبه بشيء ولا يهمّنا ما سوف يقال عنّا، وما سيصدر من تعليقات من عابرين هم أيضاً مثلنا في طور من أطوار الثمل، كان المارّة، يستوقفوننا ويسألون عن معنى الكلمة، كنا نوضح لهم المعنى ويمضون في صخب الشارع المزدحم بالمحتفلين وأبواق السيّارات التي تردّد نغمة ما، وهي ملوّنة بقصاصات الورق والشرائط والبالونات، كان العالم جميلاً، وزمنه زمن رومانسي والعثة التي اسمها البعث لم تكن قد استشرت فيه ودبّتْ كثيراً في جسد العراق، لأنّها كانت في أوّل عام لها، كان الناس سعداء يحتفلون بقدوم العام الجديد، كنّا قد شربنا وانطلقنا نجوب هذا العالم وهذه الأزقّة المُحبّة، وكان ثمّة من يستقبلنا في بيوته، وأذكر أنّ جاليات كانت تقيم في شارع المسبح قد فتحت بيوتها لنا وسقتنا وأطعمتنا وأعطتنا نقوداً ولكنّنا

twitter: @ketab_n

رددنا النقود، لأنّ هذا ليس هدفنا، بل هدفنا كان المتعة والإثارة وكشف الشاعر الذي فينا.

أما شارع النهر فإنّه شارع ذهبي بامتياز، لأنه كان يبيع الذهب إلى مَنْ هم في مصاف الذهب ومدارج الياقوت والدرّ، إلى النساء بالطبع والفتيات الباحثات عن البريق واللمعان والوهج الذي تنبض به هذه المعادن الثمينة وتنطق.

لهذا الشارع المتلامع والطافي في فيض من الضوء الباهر كنا ننطلق من مقهى البرلمان، وبعد أن نجتاز سوق السراي ننفذ فيه، وكنّا في الغالب لا نتعدَّى الإثنين أوالثلاثة من الأصدقاء، لكيلا يفسد الجو العدد الكثير، فالشارع ضيق، والبهجة فيه ترن، ولا يتحمّل أن نمشي إلا فرادى أو بمعية شخص آخر، فيه ذهبت مع العديد من الأصدقاء مخترقين البهاء والجمال الذي يتسكّع فيه، كلّ المحلات كانت تبيع التبر واللجين والحلي المزيّفة، خلاخيل من ذهب وفضّة، محابس، أطواق، أساور من البلاتين والنحاس، قلائد من حجر كريم، عقود من قهرمان وفيروز، زبرجد كاذب، لآلىء حالمة وتقترب من الحقيقة، عقيق حيران كالفتاة الشبقة التي تطالعك في السوق وترميك بالنظر الحارق، مواعيد كنت أرمي لهذه وتلك، وعود بلقاء من دون جدوى، نساء حائرات يقتربن من الذهب، والشعاع في مسيرتهن في هذا الشارع المسقوف والغافي على نغم اصواتهن يتموّج ويشعّ ويصبح أكثر فتنة ولمعاناً وهنّ يتهادين على صوت خشخشة المعادن الرنّانة ذات النعمة الذهبيّة، كنّا نمضي وراءهن نتتبع خطواتهن إلى بيوتهن الكتيمة،

twitter: @ketab_n

المغلقة، وإذا كان ثمّة مِن فُرجة بائنة رمينا بقصاصة إليهن، وهي في الغالب قصائد أو مشاريع قصائد، تتحدّث عن الحبّ وناره وجمره الحارق، كلّ ذلك كان يأتي من دون لمسة عدا النظرات وكزّ الشفتين والتبرّم وردم الحسرات من الجانبين ولطالما ذهبنا جراء نظرة إلى شارع الكفاح ذي الأزقة الموحلة والأبواب المشرّعة على الجيران، مسدلة الستائر، نقتفي أثر الناظر الذي لا يندّ عنه غير اللفتات والحركات الدفينة.

هناك شوارع تشيب وتهرم وتتقاعد ويصيبها الوهن والتعب، ما لم تُعَدْ صياغتها من جديد وُيرَدّ الألق لأفقها والإدامة لهيئتها المتربة والمتآكلة، كشارع الشيخ عمر والكفاح والجمهورية وشارع النهر، لكيما تتجدّد، حفاظاً عليها من الانهيار، ومن السقوط والتردّي، وحفظاً لرونقها لكي لا يغيب ويندثر ويطمس الفولكلور والهندسة التراثية، لِـمَ لا تتجدَّد الشوارع في بغداد، مثل شارع الصالحية في دمشق والهرم في القاهرة، ومحمد الخامس في الرباط، وشارع بورقيبة في تونس و" الحمراء " في بيروت، بيروت أيضاً مرّت بحرب ضروس أكلت مساحات من المدينة وخُرّب مركز بيروت الجميل والقديم المتمثِّل بساحة النجمة، ولكن المركز عاد بطراز حديث وبأبهة تناسب تطلّعات ومعطيات العصر الحديث، عاد بما يعرف الآن بـ"الداون تاون" حيث "ساحة رياض الصلح" وظلّ "شارع الحمراء" يُعمل فيه دائماً وتمتدّ يد الترتيب والتأهيل دائماً اليه، فيعاد ترميمه وتجديده وفقاً للحساسيّة الجديدة في المعمار العالمي وللمثال على هذا وددت هنا الحديث عن

twitter: @ketab_n

شارع الحمراء، لنذكّر المسؤولين في بغداد بغية الإنتباه والإلتفات إلى شوارعنا التاريخيّة، علّ ينفع التذكير ولفت النظر مع عالم لا يريد أن يسمع ويلتفت ويرى، لأن الفساد والنهب والمال الحرام هومايشغله الآن.

ـ شارع الحمراء.

لسيرته رائحة الذكريات، رائحة تذكّر دائماً بمذاق بحري، بجلوس موجة على كرسي، بشرود غيمة فوق بلاطه الحجري المدعوك بخطى العابرين، بانفلات نجمة عن مسارها جاءت لتردّد أغنية عن ضوء عتيق في عطفاته الكثيرة، مسافته ليست طويلة كونها محصورة بين ساحلين، ولكنّ هذه المسافة لها قرن كامل من التحوّلات والتبدّلات والتغيرات الديموغرافية التي طالت جسد المدينة بيروت، تغيّرات حصلت في البنية التاريخيّة للمدينة، وتحوّلات حصلت في عمق الروح للكائن البشري الذي عاش بالقرب من هذا الشارع، حيث كانت هناك صدوع وحروب وكوارث، لكن هذا شارع بقي محتفظاً بسرّه النضر، بعلامته المستترة التي تحدَّت الجوائح والمآزق والتشققات ليبقى هو منطوياً على السر، حافظاً للذكرى والود، محتفظاً بالأمثولة في سرد التحوّلات المأسوية التي مرّت بها بيروت، ومكتنزاً بالرونق الذي أطّر البداية، بداية أن يكون الشاهد والمعتمد والخازن للحكايا والتفاصيل وللمرويات التي ظلّ يدوّنها في ذاكرته الحجريّة طوال عقود كثيرة، وشارع الحمراء هذا يذكّر أيضاً بشوارع شبيهة له في عالمنا العربي، أقربها إليه على حدٍّ زعمي شارع الرشيد في بغداد،

twitter: @ketab_n

شارع التظاهرات والفنادق والمقاهي الكثيرة والحانات والمقاصف ودور السينما، ولكن الأخير لم يستمرّ كصنوه، لقد فقد الكثير من ملامحه الوسيمة واندثرت مفاتنه الأليفة وغابت مباهجه اليوميّة و لم يستطع لبس رداء التحوّلات والتجديد واستيعاب التحدّيات المعاصرة، بل ظلّ منطوياً على ذاته، مقتاتاً على الماضي البعيد.

الحمراء اليوم هوالشارع الذي لا يهرم، شارع شاب، مرح ، خفيف، و لم يزل ينطوي على إلفة لا تفتأ تنهض في زواياه ونواصيه، راسمة الألق الذي لا يخبو على رصيفه الجميل.

أغيب عن الشارع أحياناً قرابة العام وأحياناً أقلّ، وحين أعود اليه، أذهب لأرى ما طرأ عليه خلال فترة الغياب هذه ، فأجد فعلاً ثمّة تغييرات طالت بنيته الجمالية، ففي زيارتي الأخيرة له مطلع هذا العام، وجدت أماكن كثيرة قد أغلقت كالمقاهي والفنادق والمطاعم، ولكن سرعان ما حلّ غيرها، لا بل أكثر منها عدداً، مقهى السيتي كافيه أغلق أبوابه ومقهى الداينمو وحانته ومنتداه الصغير الذي كانت تقام فيه ندوات وتواقيع كتاب وما شابه من نشاطات أدبيّة ومسرحيّة، السيتي كافيه كان مقهى النخب الثقافية وصاحبه له صلة بمقهى قديم للنخبة أيضاً من أيام الستينات، كان هذا المقهى يشبه الغاليري الفنّي، لأنّ صاحبه شاء له ذلك، فيرى فيه الزائر لوحات تشكيليّة لفنّانين لبنانيّين وعرب تحفل بها جدران وزوايا المقهى، مقهى آخر له صلة وثقى بالشعر وبالفن تمّ غلق مصاريعه هوجدل بيزنطي الذي لطالما قدّم أمسيات شعريّة شيّقة وندوات فكريّة وثقافيّة متميّزة من قبل إدارة شعرية أيضاً مؤلّفة من

twitter: @ketab_n

الشاعر صاحب المقهى وعدد من أصدقائه الشعراء، بعدها جرى اسدال الستار على حانة كان يديرها شاعر شاب في بداية شارع الحمراء، قدّمت كالمقاهي والحانات الآنفة سلسلة من الأمسيات الشعرية والفنية وحفلات تواقيع كتب .

الملفت في الأمر بعد كل ختم لتوديع مقهى أو غاليري وحانة، تدشّن في الوقت عينه مبادرات لفتح ما يماثل المغلق، ولكن هذه المرة بطراز مختلف ولمسة فنيّة مغايرة تطرأ على المكان الجديد، ثمّة مقاهٍ جديدة تمّ تدشينها، مقاهٍ شبابيّة حديثة، أنيقة، ممتلئة برواد شباب، من عشاق تقنيات التواصل الإجتماعي، وطلاب جامعيِّين وهواة فن وأدب، تجدهم يتنقلون خفافاً كالطيور بين هذا المقهى وذلك، صحيح أغلقت مقاهٍ عريقة كثيرة كالمودكا والكافيه دوباريه والويمبي، غير أن الشارع لا يأبه لذلك كثيراً ولا يعير الأمر أهمية ومعنى، فهو يمضي إلى الأمام ملتحقاً برنة العصر ولا يريد أن يتخلف عنها، يتأخر أو يحيد، أو يماطل مرتضياً المساومة والمراضاة من قبل روّاد وزوّار قدامى، فهو أيضاً لديه روّاد عصريون، شباب ومتألّقون في مجالاتهم ومشاغلهم اليوميّة، له مريدوه وسمّاره وسوّاحه ومغرَموه من محبِّي السهر وطلاب التسوّق والإقتناء والإحتياز وله الملمّون بطرائق المتعة، كلّ على طريقته، في مدينة مفتوحة على فنجان قهوة صباحيّة وجريدة، ومطلّة على مذاهب البحر وفنونه ومشرَّعةٌ أبوابها لِلّيل ومراتب اللذة، ودائماً في حالات التحوّل هذه التي يشهدها الشارع هناك إبدال، أي هناك بديل، يعوِّض المكان السابق لا بل يزيد عليه منافسة وأبهة

twitter: @ketab_n

وألقاً، والمثال يتجسّد في شلّة الكافيه دو باريه من شعراء وكتّاب وروائيّين الذين انتقلوا للجلوس صباحاً في مقهى الروضة البحري المفتوح على افق فاتن، فضّي في الصباح وذهبي في أويقات المساء، والجلسة الليلية التي كانوا يحيوها في مقهى الستي كافيه، استبدلت بصالة فندق البريستول الباذخ والراقي.

أهمّ ما لفتني أيضاً في زياراتي الأخيرة لبيروت هو انسحاب غالبية الكتّاب والفنانين من المقاهي الحديثة في هذا الشارع، قبل سنوات كانت المقاهي تصخب بجيل السبعينات والثمانينات، حتى الجيل الأحدث غاب وراء مكاتبه الإعلامية ونسي الشعر الذي جاء عبره إلى الوسط الإعلامي ليصبح مجرّد ذكرى ولذّة روحية قديمة.

twitter: @ketab_n

الشعر والسفر

أزعم أنّ الشعر والأدب والفنون بعامة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسفر، منذ ألفَ الإنسان الخليقة ووجد نفسه، مغترباً، وحيداً، عارياً، في كوكَبه، سعى فيه ليحقِّق ذاته ويصنع إسطورته مؤكِّداً هذه الأسطورة من خلال عيشه وبحثه عن الحقيقة الوجوديّة، سعى وانتفض وبحث، علّه واجداً الماهيّة، ولكنّه خلال بحثه اكتشف العالم وعبر هذا العالم اكتشف نفسه، في غربته الطويلة، بدءاً بغربة جلجامش وتساؤله المحيّر والمقلق عن دور الكينونة وعيشها ثم النهاية الحتميّة بالموت.

كان السفر إذاً معيناً للشاعر ومساعداً له، وكذلك المنفى، حتى المنفى كانت له ثمرة إيجابيّة، فالشعراء والفنّانون من موسيقيِّين ورسّامين كان حسّهم بثقل الوجود يتوَّج دائماً رغم التِرات والميلودراما الحياتيّة التي شابت مصائرهم، يتوّج بنتاج إبداعي، فكيف إذا كانوا في حالتَيْ سفر ومنفى، لقد نُفي أوفيد ودانتي وسافر امرؤ القيس والمتنبِّي بحثاً عن المعنى، بحثاً عن شيء في المجهول واللا مرئي، ولكنَّهم وجدوا في النهاية ذاتهم، المغموسة بالقلق والاضطراب واللوعة، وجدوا ما يشبه المعنى

twitter: @ketab_n

ما يشبه اللغز، ما يشبه غموض اللامرئي في ما أنتجوه وأعطوه للبشريّة من ثمار عقولهم ومعاناتهم الدائبة في الحياة التي عبروها كنيازك أضاءت سماء العالم.

لقد سافر الكثيرون ونُفِيَ الكثيرون من الشعراء والفنانين ليجدِّدوا ذاتهم، وينظّفوا الروح من رواسب الملال والتكرار ووظائف العادة، ألم يقل يوماً أبو تـمّام "سافر تتجدّد"؟

twitter: @ketab_n

باريس

أذكر حين حططت الرحال في باريس، وهو اليوم الذي خرجت فيه من العراق، إذْ وجدتني مباشرة أمام الرصيف، وما كان عليّ إلا قبول هذا الصديق الدائم، والذي ظل يرافقني طيلة حياتي، مرّات كنت أعانقه حين أكون وحيداً، شارداً وجائعاً، ومرّات أهجره وأهرب منه وأحياناً أركله، ولكنني سرعان ما أعود اليه صاغراً، مطالباً إياه بتجديد الصحبة.

إنّ الرصيف في معناه الجوّاني يحمل صفة رومانسية، ولمسة حنونة، خصوصاً نحو مَنْ هم من أبنائه، مثل الشعراء والأدباء والفنّانين، ولَكم كان محقّاً ماركس حين قال : الشعراء بحاجة إلى مزيد من الحنوّ " والحنوّ هذا لم يأتِ من أمٍّ وأب وصديق عادي، ولا من رجل دولة وزعيم وصاحب جاه ومال ومَنْ هو مِنْ مرتبتهم ومَنْ هو نظيرهم، بل جاء من الرصيف، من روحه الفيّاضة وقامته الطويلة، بجادته وحصاه وحجارته الجميلة، الحجر في الرصيف هو أوفى من إنسان، أو أي كائن يسير على الرصيف، ولكم هي ممتعة إذاً حياة الرصيف، مقاهي الرصيف، كم هو جميل الرصيف البحري، رصيف على النهر، رصيف في مدينة منمّقة، ونورانية

twitter: @ketab_n

مثل باريس، لكم كانت فاتنة تلك المقاهي، أيام السبعينات في باريس، حيث ثمَّة بقايا من روائح الستينات وثورتها في الجنس والسياسة والفن والأدب تعبق هنا وهناك.

حين تلمّست وضعيتي على الرصيف كانت حصيلتي حقيبة صغيرة في اليد وفتوّة ظمآنة لمعانقة العري والخلاء والمتاهات، كنت أسير على غير هدى على الرصيف، حيث الرؤى غائمة والمصير مضبّب والخيال مشتّت، قادني هذا الخيال العنيد والمفتون بالغرائب والنكوص في أغلب الأحيان إلى غرفة ممزّقة، عارية وبلهاء في أحد أزقّة الحي اللاتيني، إنّه حيّ السان ميشيل الهيبّي، المشعّث، والممتع على نحويسيل له لعاب الخيال، هذا الحيّ الصاخب المليء بالمقاهي والنوادي الليلية والصالات الساهرة، وأماكن اللهووإنفاق الوقت حتى ساعات الصباح الأولى، حيّ الفنّانين والهيبّيين والغرائبيّين المولعين بالفن والسهر وتعاطي الشراب والمخدِّرات وتدمير الذات حدّ المحو، حدّ التلاشي والضياع في أتون هذا العالم المائل إلى عدم الارتكاز والتثبّت، عالم المحو والاستعادة، في هذا الحيّ إذاً وجدت غرفة، هي تشبه الصندوق الخشبي، غرفة في الأدوار العليا من سكن يُسمَّى بـ"غرف الخادمات" وذلك بعد أنْ مررت في أطوار عدّة من السكن، في بيوت الأصدقاء وفي غرفهم الضيّقة، وبيوت الطلبة، والفنادق المتواضعة، هذا عدا النوم في الكنائس ومحطات السفر، كأوسترليز والغاردنور وغيرهما من الأماكن التي توفِّر لي الفسح الصغيرة والدافئة شتاء، أما فصل الصيف فتتكفل به الحدائق والمتنزهات العامة والمصطبات الكثيرة المنتشرة على ضفاف نهر السين.

twitter: @ketab_n

منذ تلك اللحظات الواهنة، حللت ضيفاً على العذاب، ونزيلاً ثقيلاً على الغربة، أما الغرفة فقد حصلت عليها من صديق عراقي ورّثني إياها، وحين تركت باريس بعد عام من هذه الأيام الغرائبيّة، ورّثتها أيضاً لعراقي، كون سعرها نادراً ومكانها مثالياً فهي في قلب العاصمة، في شارع "غولوغوف" ورقم البناء هو ١ ـ قرب "البانتيون" أي مقبرة العظماء ولا تبعد عن السان ميشيل والأوديون إلّا بضع خطوات قليلة .

كانت غرفتي، لا تصلح إلا للنوم، نوم فانتازي، شبيه بنوم الحارس، إغفاءة، يقظة، نعاس وتهويمات كنت أطردها إذا اشتدّت بالنزول إلى المقهى واحتساء فنجان من القهوة الفرنسيّة المركّزة.

عند الصباح، تنتعش المقاهي، وتزدان بالفتن والعطور الفرنسيّة التي تتركها النساء على الكراسي والطاولات وبين أروقة المقهى والزوايا، في غدوهنّ ورواحهنّ، بعض الفرنسيِّين يأتي ليفطر في المقهى، كرواسان، وجبة خفيفة، زبدة، وفنجان " كافيه أو ليه " قهوة بالحليب، وبعضهم يأخذ الأكسبريسو مخلوطة بجرعة من الروم، فالمقهى الباريسية ضاجّ دائماً بالزوار، خصوصاً مقاهي السان جرمان دوباريه، والسان ميشيل، ومقاهي الشانزليزيه التي لم أكن أتردّد عليها كثيراً لارتفاع أسعارها ولترفها المفرط في الضوء، ولقلّة من يجلس فيها من الأصدقاء، لذا كانت مقاهي السان ميشيل هي التي في متناول اليد والأقرب إلى تجلِّيات الروح، لأنها كانت ملتقى الأدباء وقريبة من مقاهي السان جرمان ومقاهي السوربون وهي الجامعة الفرنسية الشهيرة.

twitter: @ketab_n

في المربع الذي تتوسّطه السوربون ثمَّة نافورة وثلاثة مقاه، ومربط للدراجات الهوائية الخاصة بالطلبة، لهذه المقاهي كنّا نأتي لنجد العديد من الأصدقاء، وهي كانت أيام الممثّل المسرحي القتيل ماهر كاظم، والرسّام القدير الراحل أحمد أمير الذي قضى باكراً جراء الأدمان على الشراب في برلين، أيام كاظم جهاد وعلي فنجان وحجر مهدي وخالد الصالحي وفاضل عباس هادي الذي كان يصدر وقتها الأعداد الأولى من مجلته " الصوت "، أيام شوقي عبد الأمير وصلاح الحمداني وسعد داوود والرسّامين العراقيّين غسّان فيضي وصلاح جياد وفيصل لعيبي وكاويان وأرداش كافافيان ونعمان هادي والخطّاط والشاعر محمد سعيد الصكار، أيام القاصّ جبار ياسين والكاتب عبد الحسين الهنداوي والشاعرخالد المعالي والمسرحي أمين عبد الله وغيرهم ممّن كانوا يأتون من بواتييه وتور والضواحي القريبة من العاصمة الفرنسية باريس وحتى ممّن كانوا يأتون من لندن كالشاعر صلاح فايق والشاعر بلند الحيدري.

في الشطر الأول من السان ميشيل كان هناك مقهى "نوتردام" المطلّ على نهر "السين" باتجاه كنيسة "نوتردام" والمحاذي، أي المقهى لمكتبة "شكسبير" التي كان يعمل فيها الشاعر فاضل عبّاس هادي، هذا المقهى كانت يجمعنا في الصباح، وفيما بعد نتفرّق كلّ إلى شأنه، ومن ثم نلتقي بعد الظهيرة في مابين مقهى "كلوني" ومقهى "اللوكسمبورغ" وهو يقبع قرب حدائق اللوكسمبورغ الذائعة والمقابلة تقريباً للبناية التي فيها غرفتي، ولكن غرفتي كانت

twitter: @ketab_n

محجوبة ببناء يجاورها وبناء آخر يقابلها، فليس ثمة من منفذ يؤدّي إلى رؤية تلك الحدائق الفاتنة.

مرّة نزلت من غرفتي، ميمّماً تجاه مقاهي السوربون، ابحث عن وجوه الأصدقاء، وإذا بصوت لم أألفه كثيراً يهتف لي بوقار، وحين التفتّ إلى مصدر الصوت ألفيته الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي، جالساً بمفرده في أحد هذه المقاهي وأذكر أنّه كان ذلك الذي يتوسّط المقهيين الآخرين في مربع السوربون.

كان البياتي دائم السفر والتجوال وباريس كانت احدى المحطّات الأثيرة لديه، مجلسه لم يخلُ عادة من الأدباء والفنّانين العرب والعراقيّين، وحين كنت أتردّد عليه وهو يقيم في الفندق الملاصق للمقهى، كانت لديه مواعيد كثيرة، مع الشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي والكاتب والناقد غالي شكري والكاتب عصام محفوظ والشاعر شربل داغر والناقد المصري محمود أمين العالم، فالكتّاب العرب آنئذ كانوا يعملون في مجلّات تصدر في باريس، مثل ملحق النهار بإشراف الشاعر أنسي الحاج، ومجلّة "الوطن العربي" برئاسة وليد أبوضهر، و"المستقبل" برئاسة نبيل خوري، ومجلّة "اليسار العربي" تلك التي كان يحرّرها ميشيل كيلو ومحمود أمين العالم، ولطالما كنّا الصديق الروائي شاكر نوري وأنا نساعدهم في أمور المراجعة للمقالات وخدمة بعض الأمور الصحافية والتصحيح والرزم وتوضيب الصفحات، وذلك كان تطوّعاً منّا من دون أن نأخذ مقابلاً له، نحن الذين كنّا محتاجين في ذلك الوقت إلى الفرنك، كنّا نأبى ذلك ونعتبر ما كنّا نقوم به هو خدمة أمميّة، قبل أن تكون عربيّة.

twitter: @ketab_n

وعَوْداً إلى البياتي، حين كنت ألتقيه في المقهى، كان دائم الحديث عن مشاريعه الأدبيّة والكتابية، وعن نشاطاته الشعرية ومحاضراته، وكان لا يخلوحديث من أحاديثه من قدح متطاير باتجاه الشعراء والكتّاب العراقيّين والعرب من دون استثناء إلّا في حالات نادرة، وحين كان يستثني ينعت الإستثناء هذا بكلمة "مسكين" أي أنّه لا يستحق حتى الشتيمة والذكر والإشارة.

كان المقهى يشكّل بعالمه المصغَّر للبياتي، دائرة عمل أيضاً، ففيه يُجري أحاديثه الصحافيّة ومرّات يكتب قصيدة وربما خاطرة وفدت إلى باله عن السفر وعن حركته المتواترة في محطات ومطارات العالم، مرة كنت معه في مقهى اللوكسبورغ وحوله كان يتحلّق بعض الصحافيّين العرب، كان حين ينهي أحد أحاديثه الصحافية ومقابلاته، ينبّه ويذكّر الصحافي بأنْ يرسله له وعليه ألّا يتأخّر أو يتوانى في ذلك، وإلّا سيوبّخه مازحاً بأنه سوف يقاطعه ولن يعطيه حديثاً في المرة المقبلة.

في إحدى المرّات رأيته جالساً مع شخص لا أعرفه، في مقهى "كلوني" وكان البياتي يصغي إلى ذلك الرجل يتباسط معه وكأنّه كان يعرفه منذ زمن بعيد، وحين انفضَّتْ الجلسة وغادرنا المقهى وودعنا الشخص الثالث، التفتَ اليّ البياتي قائلاً باستغراب: "ألا يخجل هذا المعتوه بمناداتي طوال الجلسة بأستاذ محمد، أجل أستاذ محمد وهو كذلك استاذ محمد" يبدو أن ذلك الشخص وهوغير عراقي التبس عليه الأمر وأختلطت لديه الأسماء بين الموسيقار محمد عبد الوهاب وبين عبد الوهاب البياتي، ولأهوّن من وقع

twitter: @ketab_n

المسألة عليه وأهدِّىء من حمى غضبه قلت للبياتي: "إنها الشهرة يا أبا علي"، صمت البياتي وفي الحال تجاوز المسألة، كان متسامحاً رحمه الله، ودوداً، متواضعاً مع مَنْ يحبّهم، ولا يكن ضغينة لأحد أو يكره أحداً حدّ المساس به شخصيّاً، أو التعرّض له جسدياً، كان أكبر من هذه الأشياء، ففيه تسري روح الشاعر المتمرِّد والثائر والكاره للطغاة والحكام والتابعين الصغار، وكلّ ما كان يصدر عنه ضدّ بعض الشعراء من زملائه، كانت تشوبه مسحة من الدعابة ولهو الأطفال وكان يحسب هذا أمراً طبيعياً وإرثاً قديماً يصبّ في حيز المنافسة بين الشعراء منذ بدء الكلمة، بعد هذا دعاني إلى وجبة غداء مريحة في أحد مطاعم السان ميشيل اللذيذة والمفعمة بأفاويه الروائح النافذة في الآفاق.

ذات يوم أزمع البياتي على الرحيل والعودة من حيث أتى، بيروت ستكون محطّة ثانية، في طريق عودته إلى العراق حيث كان يعمل في وزارة الثقافة مستشاراً ثقافياً، فما كان منّي إلّا تجهيز مخطوطة ديواني الثالث " شموس مختلفة " لإرساله معه إلى بيروت من أجل طبعه، فرجوته شاكراً، أن يسلِّمه إلى الشاعر سعدي يوسف الذي كان قد وصل إلى بيروت في رحيل طويل لم يزل ماثلاً حتى الآن، لقد فرّ سعدي من العراق قبل أن يلقى عليه القبض ويقع مرة أخرى في يد البعث الذي سوف لن يرحمه لو اصطاده مرّة ثانية، فهوقد ذاق الويل في سجن نقرة السلمان أيام انقلاب شباط الستينات على أيديهم، ففرّ و لم يحمل معه سوى عائلته الصغيرة التي عبر بها الحدود والمدائن، خاضعاً مثل الآخرين إلى الخلاص من الدورة الدموية البعثية التي شُنَّها آنذاك على قوى اليسار.

twitter: @ketab_n

وصل البياتي إلى بيروت وسلّم في اليوم التالي المخطوطة إلى سعدي يوسف الذي كان قد جاء إلى الفندق بصحبة الشاعر شريف الربيعي الذي أخبرني بتلك الزيارة إلى احد فنادق شارع الحمراء التي نزل فيها البياتي، كنت قد طلبت في رسالة صغيرة راجياً سعدي يوسف أن يسلّمها لدار الفارابي، سلّمها سعدي بدوره إلى الفارابي، ولكن الديوان قد نام هناك مع وعود بطبعه، وحين جئت إلى بيروت وتركت باريس نهائياً، راجعت الفارابي، ولكن المسؤول هناك أراني الغلاف الجميل الذي صمّمه له الفنان القدير إميل منعم، ولكنّه قال إنّه قد يتأخر إصداره لسنة أخرى، بطريق المصادفة التقيت بصاحب "دار ابن رشد" سليمان صبح فعرض عليّ الطباعة لديه ان كان لديّ شيء أطبعه فسارعت للفور لسحب الديوان من "دار الفارابي" التي لم تعترض على هذه الخطوة المفاجئة وأعطيته للدار المذكورة وصدر بتنضيد وتصحيح وتصميم وغلاف "دار الفارابي" وطباعة "دار ابن رشد" وكان ذلك بعد ديواني الثاني "أقمار منزليّة" الذي صدر وقتها في العام ١٩٨٠ عن "اتحاد الكتاب العرب" في دمشق، وكان من المفترض أن يصدر "شموس مختلفة" قبل " أقمار منزليّة" كونه الديوان الثاني حسب التسلسل الزمني لكتابة كلا الكتابين، فديوان "شموس مختلفة" كتبته مابين بغداد وباريس، بينما قصائد ديوان "أقمار منزليّة" جلّ قصائده كتبتْ ما بين بيروت ودمشق.

في تلك الجلسة، وفي الفندق البيروتي، سأل سعدي البياتي عن وضعي وحالتي كيف تسير في باريس، فأجابه البياتي حينها

twitter: @ketab_n

بأنّه، أي أنا، كائن هيبي، لا يعرف مصيره، ضائع بين الحشود، جائع وهزيل ولقد ساعدته وأطعمته، وحين عاد البياتي مرة أخرى إلى باريس والتقيته بحكم العادة في مقهى " كلوني " سألته أيضاً عن حال سعدي في بيروت، فقال لي : " سعدي شاعر كبير، ولكنني فوجئت بتصرّفه الجديد، وهو حلاقة شاربه وارتداؤه ملابس الجينز والتصرف مثل الخنافس والبوهيميّين، فهذا تصرف لا يليق به وبمقامه الشعري".

في مقهى " كلوني " رأيت مرّة في أحد أيام الآحاد، الكاتب المسرحي صموئيل بيكت يجلس في زاويته المعتادة، ربما كان على موعد مع غودو، ولكنّه خيّبه مثل كلّ مرّة و لم يأت، كان يجلس ويُسرّح النظر في أفق شارد وغير مرئي، كنت حين أراه، أجلس على مقربة منه وأختلس النظر اليه، أنظر إلى تلك التقاطيع المخطّطة بأصابع الزمن، لم أر وجهاً في حياتي يضارع وجه صموئيل بيكت، إنّه يحمل وجهاً مغموراً بالتجاعيد والخطوط العميقة التي ترسم علامات القلق والاضطراب والحيرة، وجه يرشد إلى متاهات ومنعزلات وصحارى خالية الا من صوت الريح وعزيف الصمت الذي يغلّف المنحدرات القاسية، إنّه وجه معبّر ينطق بالرؤيا والتصوّرات والمعاني المبهمة، وجه يحمل في طياته إرثه التراجيدي المسقي بالضنى، ظلّ ينتظر الزمن كلّه، بانتظار شيء ما يحدث، بانتظار الذي يأتي ولا يأتي.

بعد انطواء سنوات الصخب وابتداع التيارات التي هزّت العالم كالسريالية والدادائية وسنوات البيتلز وثورة الجنس،

twitter: @ketab_n

واكتشاف عالم المخدّرات والمُهلوسات والمحرّضات على الكتابة كالسفر وكسر التابو وارتياد الآفاق والفضاءات الغريبة والمجهولة، لم نعد نجد سارتر الحفيد الممتد إلى الزمن المعاصر جالساً في مقهى، وهو في أوج شهرته يحتسي شيئاً ويجادل ويديم الشعلة، اللهم سوى لقاءات السوربون والكافتيريا التابعة له، لقاءات عجلى وسريعة تتمّ في الكافتيريا أو في المقاهي المجاورة لمفكّرين ألسنيّين وبنيويّين يعملون ويُدرّسون الفيلولوجيا والعلوم السيميائية "السيمولوجيا" و"الفينومينولوجيا" الظاهراتية والدروس الميتافيزيائية، يطلّون على عجل في المقاهي الثلاث، ويمضون على عجل وبينهم نقّاد كبار سيعرف العالم أسماءهم فيما بعد. لقد مضت تلك الأيام التي كانت تلهب الروح والخيال والدواخل، مثلما مضى دهاقنتها الجاحدون، المغيرون والمُغيّرون، أبناء الدم الفاسد كما قال رامبو يوماً، مضى عالم سارتر وتظاهراته وانخراطه مع العمال والطلبة في آن، مع المثقّفين والسياسيّين في دور واحد، مضى الحالمون بالتغيير، ولكن رغم الذي تقدَّم ثمَّة رائحة الذكرى تبقى منتشرة في كلّ شبر وناحية وزاوية من السان جرمان دي بْريه، وتنسّمها وأعادة تقليب فنون الذكرى لا بدَّ وأن تعيد إليك ذلك العيد الملوّن بكلّ صوره وأضوائه وشخصياته السحرية.

جادة السان جرمان، هي جادة الشعراء والمفكّرين والفنانين والملهمين الذين علا صيتهم وهم يدوّنون تجاربهم وأفكارهم مديرين جدلهم في هذا المحيط المتوَّج بالمقاهي التاريخية، مقهى "فلور" و"دي ماغو" و"دانتون" و"ليبرتي" وغيرها مِمّا يثيرك

twitter: @ketab_n

ويغريك في الجلوس فيها حتى لو لم تكن مشهورة وتاريخيّة، فالمقهى الباريسي له طعم خاص، أقصد له طراز خاص به لا تجده في مكان آخر، مهما اجتهد الآخر في تقليده، فالمقهى الباريسي، هو بيت آخر للفرنسي، غرفة ملحقة به، وهوالصالون الملحق بالمنزل لتناول الشاي والقهوة والنبيذ، المواطن الفرنسي لا يستطيع أن ينفصل عن المقهى ومناخه الحاني والروحاني، فهو بالنسبة إليه شيء ممتزج بروحه وذاكرته وسيرته وسيرة من سبقوه، سارتر وسيمون دوبوفوار كتبا أجمل النصوص في هذه الجادة، وشهدت هذه الجادة خطى وأصوات وجدل كامو وميرلو بونتي وفيليب سيريس، ومنافسات ومطارحات شعراء ورسامين لا يحصون، انطونان آرتو بول إيلوار جاك بريفير، بيكاسو، دالي، هنري ماتيس، خوان ميرو، تولوز لوتريك وآخرون من النوابغ والعلامات التي علّمت ووسمت بجمر الكتابة وحرارة اللون هذا الرصيف الجميل لجادة السان جرمان دي بْرِيه.

نحن الغرباء جئنا نترسّم الخطى ونقتفي الأثر، باحثين عمّا تبقّى من الشعل القديمة، لكي نستضيء بها ونسير، كنّا نسير ولكنّنا لا نسعى إلى التقليد، فنحن كانت لنا خصوصياتنا وتقاليدنا، لغتنا وتاريخنا، ولكن ما كان يجمعنا معهم هي القيم الإنسانية، والفن الذي يتحدّث بلغة عالمية، الفن الإنساني العابر للحدود والقارات، فأنت حين تقرأ لجاك بريفير تحسّ أنه يشاركك أوجاعك وهمومك فيما يكتبه، وما كان يكتبه بول إيلوار من قصائد تمجد الحرية والإنسان، كان يمسّك أنت أيضاً، وكذلك كانت أفكار سارتر تعبر

twitter: @ketab_n

العالم بسرعة البرق لتصل إلى كل مكان في العالم، وما كان يفعله بيكاسو ودالي وميرو كان يصل إلى كلّ فنان يقبع في زاوية بعيدة من هذا الكوكب، يصل ببساطة ويعبر الحدود مثل الهواء الشائع، ليكون غذاءً لمخيِّلة الإنسانية.

ففي هذه الجادة خَطَوْنا، وحلمنا وجعنا، وتشرّدنا على رصيفها الذي نحفظه شبراً شبراً، لشدة ما طرقته أحذيتنا المهترئة وجاسته عذاباتنا في عالم الاغتراب الذي لا يرحم أحياناً، في هذه المقاهي الذهبية، كنّا نطيل الجلوس، ونتفادى نظرات الندل، هرباً من طلب آخر، كانت طاولات المقاهي موئلاً لأصابعنا إذا ما انبثقت منها شرارة الكتابة، ومأوى لأحلامنا إذا ما نثّتْ وأمطرت، أذكر مرّة أنّ الرسام الراحل أحمد أمير قد فتح مظلته في المقهى ونحن في الداخل ورفعها فوق رأسه، فمالت احدى النادلات وبطريقة الممازحة سألته لماذا فتحت المظلّة؟ فأجابها أحمد بطريقة شاعرية جميلة: "إنّ مخيلتي تمطر".

مرّة وفي أحد المقاهي في السان ميشيل ذلك الذي يقابل النافورة من جهة شارع "البوزار" سهرنا كاظم جهاد وأنا حتى الصباح، لا حباً بالسهر ولا ترفاً، بل لأنّنا أضعنا مفتاح الغرفة التي يسكن فيها كاظم في شارع الشانزليزيه، وهي من الغرف الصغيرة اياها التي تُسمّى بغرف الخادمات التي تصعد إليها بدرج خاص من الدافئة الخلفية للبناية، والمفصولة كلياً عن البناء الآخر الذي يتوفّر على المصعد الكهربائي والشقق الإنسانية المريحة والدافئة.

twitter: @ketab_n

إلى مقهى "اللوكسمبورغ" كان يفد الكثير من الكتّاب العرب، بسبب محاذاتها للفنادق البسيطة المناسبة والمعقولة من ناحية السعر والمكان والجوّ المحيط بها، ففيها كنّا نلتقي صديقي الكاتب شاكر نوري وأنا الكتّاب العرب والعراقيين ممن يفدون إلى باريس، فهذا المقهى واسع ويضمّ زوايا وأجنحة وأركاناً للإنفراد والجلوس من دون أن يضايقك في الجلسة أحد، ففيها التقينا البياتي والكتّاب سهيل ادريس وصلاح خالص وفؤاد التكرلي والكاتب السوداني الشاعر والصديق صلاح أحمد ابراهيم وغيرهم من الكتاب العرب.

آخر عهد لي بمقاهي باريس كان في مقهى "النوتردام" حيث لقائي بالصديق الكاتب عبد الرزاق عيد الذي تعرّفت عليه من طريق الصديق الصحافي محمود الراشد، حين علم عبد الرزاق عيد بمغادرتي باريس نهائياً إلى دمشق زوّدني عبر هذا اللقاء برسالة إلى الروائي والقاص محمد كامل الخطيب، يشرح فيها ظروفي وحاجتي إلى المساعدة من أجل الذهاب إلى بيروت التي كانت فيها الحرب الأهليّة لم تزل مستعرة، فغادرت باريس نهاية العام ١٩٧٩ إلى بيروت وظللت فيها حتى حصار بيروت وخروج المقاومة الفلسطينيّة من هناك، إلى متاه جديد من الدياسبورة الفلسطينيّة، فخرجت عائداً مرّة أخرى إلى دمشق في نهاية آب من العام ١٩٨٢، وأقمت فيها قرابة الثلاث سنوات، ثم تركتها إلى نيقوسيا العاصمة القبرصية.

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

بودابست

قُيّض لي أن أهبط في أراضي المجر، فرأيت نهر الدانوب وهو يقطع العاصمة الهنغارية بودابست إلى نصفين، بودا وبيشت، وهنا تذكّرت دجلة وحاله مع بغداد التي يقسمها إلى موقعين ـ الرصافة والكرخ ـ وحالما أتذكّر بغداد، فذلك يعني بغداد الحضور في كلّ شيء، فالمقاهي هي أحد عناصر هذه المدينة الحيّة، قلت لنفسي، أين يذهب يا ترى أصدقائي العراقيّون من الكتّاب والفنّانين في هذه المدينة المجزوءة إلى شطرين، لا بدَّ وأن يكون لهم منتبذ يأوون اليه، إنّ هذا ديدنهم أينما حلّوا، وفجأة بعد سؤال وتساؤل وإلحاح في البحث وجدت نفسي في مقهى هنغاريا، صحبة الصديق الشاعر مهدي قاسم المقيم في بودابست منذ رحيله عن بيروت أيام الحصار. المقهى يتّسم بالعراقة والرقي والرفعة، قال لي مهدي، هذا المكان كان منتجعاً للفوهرر قبل أن يُحوَّل من قبل الفنّانين والراعين للمكان إلى هذه التحفة الفنية التي تبهر الروح وتجعلها هنا جالسة أسيرة الجمال والقوّة الضوئية المنثالة من أبهاء المقهى ومقاصيره الوديعة.

لم أجد بدّاً غير الرضوخ للفتنة والجلوس في ركن من أركانها

twitter: @ketab_n

المغرقة بالنور المتدلّي من ثريات لا يوصف جمال شكلها الفني وتصميمها الحالم.

جلست تحت مسقط الضوء، صحبة الصديق وأنا أنقل نظري بين ما يتدفّق من معمار ساحر في أجنحة هذا المقهى المترف بالتطاريز والطُنُف والعقود الخشبية والعاجية.

ثمّة مقصورة عالية تشرف على باحة المقهى الكبيرة وأروقتها الجانبية، والمقصورة العليا بدورها تطلّ على أخرى منخفضة، هي عبارة عن قاعة موسيقيّة، تستخدم للعزف السيمفوني، وتضم أيضاً إلى جانبها مقصورة للعشاء، وبين دردشة الصديق الشاعر وبين فنجان القهوة رحت وأنا أسمع أسرّح النظر في التكاوين والثريات الكريستالية، الباهظة الضوء والثمن، وأصعد في نظرتي نحوالسقوف الساجية، هذه التي وفدت من الحور والدلب والكستناء لتأتي وتجلس في هذا العلو الدافىء الذي يشي باللذة البصرية، ثمة نقوش فنية بهية، وزخارف فيروزية موشّاة بالذهبي، وتزجيج وأقواس معشّقة تتماهى مع التدوير والتربيع والتثليث الخشبي الممتزج بالصنعة والذائقة التعبيرية المتفوّقة.

كنت خلال تجوالي في بودابست قد شغلتني قصيدة، رحت أكتبها في ذهني عن شاعر هنغاريا الشهير جوزيف أتيلا، وهو شاعر قضى في الثلاثينات من عمره، عبر حادثة انتحار مروِّعة، قام بها وهو لم يزل في اليفاع، عندما قذف بجسمه الشفاف والنحيل والمكتنز بالكلمات والرؤى والتعابير إلى سكّة حديد، حيث جاء

twitter: @ketab_n

القطار مسرعاً وقضى على شاعر سيكون محط انظار وزوار العالم. في هذا المقهى وأنا عاكف على كوب القهوة الممزوج بالحليب، فالمقهى حسب رأي صديقي الشاعر يصنع هذا الخليط ويبرع فيه ويجعلك تتذكر هذه النهكة دائماً ولا تنساها، حتى تعود اليه مرة ثانية وتطلبها، في المقهى وخلال هذه الجلسة الممتعة مع الحكايات وطعم القهوة بالحليب وتذكّر للأيام التي مضت، سحبت قلماً وورقاً من حقيبتي الصغيرة وسطّرتُ القصيدة التي كنت قد كتبتها في ذهني عن جوزيف أتيلا، فعجب الصديق الشاعر للطريقة التي كتبت بها هذه القصيدة، وبسرعة فائقة كتبت قصيدة ثانية وهي تتناول حياة المنفيِّين العراقيِّين في هنغاريا، وحين عدت بعد شهر من رحلتي هذه إلى نيقوسيا كنت قد نشرت القصيدتين في مجلة "الكرمل" الفلسطينية التي كانت تصدر من قبرص.

ثمّة مقهى آخر يقع وسط العاصمة بودابست، اسمه الـ"اجوتيم" كان مركزاً لتجمّع الأدباء والفنانين العراقيِّين والعرب والمجريّين، يطلّ المقهى على الشارع من خلال أقواسه الخشبية، فيه مطارح وأركان للمنادمة، طاولاته بنِّية ضاربة إلى السمرة، وزبائنه من الهبيِّين والموسيقيِّين والرسّامين ومن الطلاب الذين يدرسون السينما والمسرح. إنّه مكان جيد لتصيّد مَنْ تحب من الأصدقاء العرب والعراقيِّين، فأغلبهم يأتي اليه، لقضاء أمر ما، فهنا تجد الصرّاف والمترجم العربي والمرشدين السياحيِّين والشعراء الهنغار، والمرضى العرب الذين يتردّدون على المشافي المجريّة للعلاج، فثمة هنا مَنْ سيرشدهم ويعين مسيرتهم في بلد

twitter: @ketab_n

لغته صعبة، ولا تنتمي لعائلة اللغات اللاتينية، فهنا سيجدون الدليل العربي، والصرّاف والمترجم، الحديث هنا عن هنغاريا في نهاية الثمانينات، وهي كانت من البلدان الأولى التي ثارت ضد المنظومة الاشتراكية وتحللت بالتدريج من الأنظمة التوتاليتارية. في هنغاريا سترى الكثير من الغجر، بلغتهم الشعبيّة، ذات النبرة العالية، بأزيائهم الملوّنة، بشعورهم الطويلة، بكمنجاتهم وهم يدورون بين هذا المقهى وذاك، في المطاعم تراهم وفي الساحات العامة، يعملون حلقات ويُظهرون مهارات في الغناء والموسيقى وألعاب الأكروبات والبهلوانيات التي يتقنون أداءها أمام السياح والسحن الأجنبية التي تملأ الأفق الهنغاري، أهُم حقاً أبناء السماء والهواء الطلق والقدم التي تركل الحدود والأسوار والحواجز؟"، كما صوّرهم أحد الأفلام الفذّة "الغجر يصعدون إلى السماء" المقتبس من رائعة لمكسيم غوركي.

في الكورنيش المطلّ على الدانوب، سترى الشارع في الصيف يتحوّل إلى عالم ساحر بأضوائه الرومانطيقية الخافتة ذات النثيث البرتقالي من النور، شارع صنع للمسامرة وصناعة العشق، للقبل المكشوفة قرب الأعمدة والشعر الذهبي المتطاير لمجرية تتقن الهوى، للمحبِّين الهامسين بوداعة، ولليل جميل يتدلّى على النهر ليغسله بأضوائه الليمونية، وإذا ما انسللت من الشارع الذي لا تستطيع مفارقته، ستدخل الساحة الخالية من المركبات، ساحة شبه مربّعة، تضمّ صفّاً من المقاهي المجرية الأنيقة، ذات اللمسة الممسوحة بالحذاقة.

twitter: @ketab_n

أما الشطر الآخر من بودابست ففيه جزيرة مارغريت الشهيرة، ومسارح وقلاع تُريك، مجد الإمبراطورية المجرية القديمة التي كانت تضم النمسا وبعض المدن المجاورة لها، هناك جوهرة البرلمان والقصر الملكي الذي لا يقلّ روعة ودهشة وإبهاراً من التحفة الفنية لقصر تاج محل، إنها التقاليد والعادات الفولكلورية لمجد أفل، مدافع وحصون عالية كانت تردّ القراصنة والغزاة، يوم كانت المجر تدخل في حروب كثيرة إلى أن ضعفت وخارت قواها العسكرية، وبخاصة حين غزاها نابليون الثاني كما أتذكّر وهدّ صرح تلك الإمبراطورية بعد أن حاصرها وأخضعها، ناهيك عن الحروب الطاحنة بينها وبين الأتراك العثمانيّين الذين لمعت امبراطوريتهم وهدَّدت الجوار كهنغاريا وبلغاريا والنمسا وبلغراد والمدن الروسية الأخرى مثل كازاخستان وأوزبكستان والشيشان وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن التي خضعت للسلطان التركي إبان الأمراطورية الإسلامية التي كانت تحتكر مركز الخلافة بعد انحلال السلالة العبّاسية وتدهور مركز الخلافة في بغداد الحاضرة الإسلامية المزدهرة آنذاك.

في بودابست، قضيت أياماً طريفة، رغم أني قد أتيتها لغرض العلاج والاستجمام، على حساب منظمة التحرير الفلسطينية ـ الهلال الأحمر الفلسطيني، فهو مَنْ أمّن لي تكاليف الرحلة والعلاج والإقامة، وقد تمّ ذلك حين كنت مشرفاً على الصفحات الثقافية في مجلّة "بلسم" التابعة للهلال الأحمر الفلسطيني وكانت بإشراف الصديق الناقد عبد الرحمن بسيسو، عملت عشر سنوات

twitter: @ketab_n

في الثقافة والصحافة الفلسطينية وكانت من أمتع سنوات عملي الصحافي، حيث بدأت في التاسعة والعشرين من عمري، عاملاً في البدء في مجلّة تابعة للجبهة الديموقراطية، ثم انتقلت إلى إذاعة فلسطين، الناطقة بإسم منظمة الثورة الفلسطينية، عملت في الإذاعة التي كان يديرها الإعلامي نبيل عمرو، مسؤولاً للقسم الثقافي، الذي كنت أقدّم فيه برنامجاً أسبوعيّاً ثقافيّاً، يتناول الثقافة الفلسطينية والعربية، وقد استضفت فيه شخصيّات وأسماء أدبية وثقافية عديدة، أذكر منها الروائي والكاتب الأردني غالب هلسا والشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي والشاعر اللبناني حسن عبد الله، وبقيت على هذا الحال حتى خروجي من بيروت، فضلاً عن برنامج يومي، اسمه " صباح الخير" وهوبرنامج وجداني قصير لا تتعدى كلماته المكتوبة الخمس دقائق وهو مفتوح للجميع لكتابة زاوية صباحيّة لها علاقة باستقبال اليوم الجديد.

هناك في بودابست رأيت الكثير من الفلسطينيين الذين كانت تربطهم أواصر متينة بالنظام الهنغاري، ورأيت أخوة يمنيين من اليمن الجنوبي الماركسي وقد جاءوا للعلاج، ورأيت امرأة ليبية وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها امرأة ليبية، وكان سريرها في غرفة مجاورة لغرفتي، ولقد تعرّفت إلى فتاة رسّامة فلسطينية، كانت تزورني هناك، ثم أخذتني بعد أن أكملت فحوصي التي كانت لها علاقة بالمعدة، وهي فحوص روتينية وعادية، أخذتني في نزهات طويلة لأرى المعالم الهنغارية، وحدّثتني عن الرسم والثورة والتمّرد وكسر التابوات حيثما كانت، وكان يتردّد عليّ في

twitter: @ketab_n

تلك الآونة صديقي الرسام مهنّد، وكان يعرف بودابست بطريقة رائعة أكثر من أهلها، لقد دلني على معالم ومتاحف ومراكز فن كثيرة، حتى خلت أني سأقيم إلى الأبد في هذه القطعة الساحرة من الدانوب، وهذه الكلمة الدانوب لطالما ذكّرتني بالموسيقى والأوبرا والقطع الوترية التي كان يعزفها العمالقة من الخالدين .

كانت في بودابست تنشط رابطة الكتاب والأدباء العراقيّين، فهم يقيمون على الدوام الأماسي الثقافية والمعارض الفنية، وحين شعر المعنيّون في الرابطة بأني هناك، سرعان ما وجّهوا الدعوة لي لقراءة شعرية، فلبّيت الطلب من دون تلكؤ، فكلّ مَنْ كان هناك هم أصدقائي كالروائي والقاص ابراهيم أحمد والدكتور الصحافي غانم حمدون والصحافي عبد الحسين رمضان وغيرهم من المنفيين المقيمين في بودابست لغرض الدراسة، بعد القراءات بدأ الحوار الممتع حول الشعر والفنون وعلاقة الشعر بالقارىء، وما يتبع هذا الفن من غموض قد لا يستطيع الإنسان العادي متابعة الرموز والدلالات التي تثقل أحياناً كاهل القصيدة، وغيرها من الأسئلة الذكية والمفاجئة للشاعر.

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

برلين

ذهبت إلى برلين قبل سقوط الجدار بعشر سنوات، عبر دعوة وجهت إليّ، من قبل مهرجان لايبزغ السينمائي، كان الجدار سيىء الصيت يقف عازلاً بين أهل العاصمة برلين، لكي تتحول الديمقراطية وهكذا كان اسم الجمهورية الألمانية الديمقراطية إلى نوع من النازية الجديدة، حد للحريات، رقابة دائمة على الكتاب والفيلم والمسرح والشؤون الثقافية الأخرى، عدا الرقابة البوليسية على التحرّكات الشخصية والنشاطات الفنية التي تطالب بالحرية وهدم الجدار.

وصلت إلى برلين لأنطلق منها بعد أيام إلى لايبزغ حيث المهرجان، في برلين كنت أنطلق صباحاً تجاه مركز المدينة الشرقية، كان الجو بارداً والشتاء يبدو قاسياً في المدينة، تركت الغرفة الصغيرة ومضيت إلى العاصمة حيث تكثر هناك الحركة اليومية للمدينة وتزدحم كأي عاصمة بالمطاعم والمقاهي والنوادي الليلية، والمتاحف ودور السينما والمسارح والمكتبات التي تنتشر بكثرة في كل زاوية ومكان، برلين مدينة للثقافة بامتياز، تشتغل كمرجل طيلة اليوم، فالثقافة هي جزء من هذا المجتمع الذكي.

twitter: @ketab_n

في العاصمة يتردّد أصدقائي الشعراء العراقيون والعرب على ثلاث مقاهٍ هي "الرايزه بيرو" و"شتات برلين" و"بالس هوتيل" وجلّها مقاهٍ مرتبطة بفنادق معروفة.

في " الرايزه بيرو" كان وجود الشاعرين فاضل العزاوي ومؤيّد الراوي من مستلزمات هذا المقهى، كنّا نطلّ شريف الربيعي وأنا، وكان هوأيضاً قادماً من قبرص ليشارك في المهرجان، نطل لنشرب فنجان قهوتنا الصباحي، وما أن نجتمع هناك تحت سقف هذا المقهى التاريخي حتى تبدأ الأحاديث والذكريات بالتفريخ، حوار يصب في حوار آخر، ومشاريع لا تحصى في الأدب والشعر والسياسة، وكان محرّك هذه الجلسات باستمرار الشاعر الظريف شريف الربيعي، رغم أن المقهى ليس فيه ما يسرّ النظر على الطريقة الإشتراكية سوى النادلة الجميلة التي كانت تتغنّج وتمنح الدلال للوافدين، ولكنّه في النهاية كان مقهى دافئاً، وخصوصاً حين ترى وأنت جالس في قلب الدفء الثلج وهويزحف باتجاهك ويغطي مساحات واسعة من العاصمة.

بيد أنّ الأمر يختلف في "لا يزغ" إنّها مدينة تتكىء على مجدها الأدبي والفني والثقافي الراهن والمنصرم في آن، إنّها مدينة "غوته" التي سمّاها "باريس الصغيرة" ضوؤها ودفؤها وحنوّها يجعلونك تشعر بالألفة والرضا، وللمقهى فيها سحر أخّاذ، وهي بالأحرى مدينة مقاه، والمقاهي محشورة في أزقّتها وشوارعها، وتبدو غير محسوسة للوهلة الأولى، ولكنّها تتكشّف لك شيئاً فشيئاً حالما تسعى لاكتشاف ضوء المدينة وأسرارها الدفينة في النواصي والحواني البهيجة.

twitter: @ketab_n

ثمة فاوست يطالعك بأجنحته وهو يشير إليك عندما تجتاز أحد المقاهي التي كان يرتادها غوته شاعر المانيا العظيم، أجنحة تتأهّب بذهبها للطيران في الماورائيات، بقوة النور الذهبي الكامن في الرخام، وعندما يتسنّى لك الدخول في المقهى، تشعر أنك ستجد غوته جالساً في أحد أركانه وهويقلب صفحات من "الديوان الشرقي"، لكنّ هذه الرؤيا سرعان ما يُبدّدها رنين الأقداح والفناجين ودورة النُّدل في باحتها الرخامية النائمة على سحر الكلمات الأبدية، كلمات غوته التي لا تموت.

إذاً على مرمى خطوات من قاعة " الكابيتول " حيث تنعقد دورات مهرجان لايبزغ السينمائي، ثمة مقهى صغير وناعم، وذو طراز كلاسيكي، إليزابثي، يسمّى "بيت الشاي الإنجليزي" وجدته يجتذب المثقفين والفنانين، سواء من ابناء المدينة، أومن الزوار القادمين إلى المهرجان، ففي أروقته الصغيرة كان يحتشد المخرجون السينمائيون والنقاد والصحافيون، وفيه تُنظّم المواعيد مع مخرجين عالـميِّين من أجل الحصول على حوار صحافي، هذا المقهى المتسم بمسحة رفيعة من التصميم، كان بمثابة ورشة عمل واستراحة في آن، كؤوس الشاي تتلألأ بين الأصابع وينعكس السائل الذهبي المسكوب في الأقداح على الوجوه الحالمة بالفن السابع.

لكن مقهى " الكابيتول " وهو مقهى صغير وملتمّ على ذاته، كان له وقعه الخاص، باكتظاظه بالوفود العديدة المختصَّة بشؤون السينما، فهو مليء على الدوام بالوجوه السينمائيّة، عالمية وعربية،

twitter: @ketab_n

ويعدّ أيضاً مسرحاً للنقاش والجدل بعد عرض الأفلام مباشرة، ولا تخلو طاولاته من كؤوس النبيذ والشاي والقهوة المهملة هناك بكثرة.

إذاً فضلاً عن مشاهد السينما، فلن أنسى ذلك المشهد الطريف والمفاجىء الذي قام به الشاعر اللبناني صفوان حيدر، بعد انتهاء عرض فيلم المخرج العراقي قيس الزبيدي وهو فيلم وثائقي طويل يمتدّ إلى قرابة الثلاث ساعات، يؤرِّخ فيه الزبيدي لتاريخ المقاومة الفلسطينية، بدءاً من نشأتها وانطلاقتها الأولى حتى حصار بيروت، إنّه وثيقة تاريخيّة وفنية هامّة في سجل السينما الوثائقية والتعبيرية ذات النظرة الشموليّة في انجاز هكذا أفلام تحمل الصيغة المعرفيّة والجماليّة والحسِّية بفن السينما على نحو عام.

أما المشهد المفاجىء للشاعر حيدر، فإنَّه يتلخّص بقراءته قصيدة طويلة أيضاً كالفيلم، قام بإهدائها إلى الزبيدي مخرج الفيلم، وحين رأى تململ الحضور في محاولة منهم للهرب أو لقضاء أمر ما، أو للخروج من الصالة، أقفل صفوان صالة القاعة لكي يتمكّن ويحفظ الجمهور بداخلها ولكي ينصت الجمهور في النهاية إليه، إذاً لا مفرّ من صفوان حيدر الذي راح يذرع القاعة جيئة وذهاباً وعيناه مصوّبتان على اللا شيء.

بعد ذلك وفي الأروقة المزدحمة بالفنانين، جمعتني جلسة مشتركة مع الفنان الممثِّل المصري كرم مطاوع، كان يبدو لي في ذلك الحين في عزِّ عطائه وفي بالغ النشاط والحركة بعد أن تخطّى

twitter: @ketab_n

الصعود الصعب والتدرّج المضني والطبيعي لكي يصل إلى مصاف النجومية في مشواره الطويل مع السينما، لقد مثّل مطاوع أدواراً مهمَّة تستلهم السينما الواقعية ذات اللمسة الفنية الإيطالية، وعبر مخرجين مصريين روّاد في هذا المضمار، فسألته عن بعض أدواره تلك، فكان أحبّ الأدوار اليه شخصية السيد درويش، وهوفيلم يعد سيرة ذاتية تتناول حياة عبقرية موسيقية عربية مثل السيد درويش الذي ترك إرثاً لحنياً وموسيقياً في مطارح عدة من تاريخ الأغنية العربية المرفودة بهاجس التغيير والتجديد والتي حملت في تلافيفها الحسّ العالي بالشعور الإنساني والإلتفات في وقت مبكر، إلى العشرة الطيبة في سيرة البسطاء من الناس والمهمومين بمشاغل الحياة.

كانت أيام برلين، بعد انقضاء المهرجان فيها الحلو والمر، فمن الحلو أني رأيت المتحف البرليني على نهر شبريه، واكتشفت حانات الليل ومقاهي النهار، واستمعت إلى كونشيرتات في الحدائق والى مقطوعات وترية برفقة الأورغ والبيانوهات في الكنائس والكاتدرائيات، وتذوَّقت الجعة والنبيذ والشمبانيا مع من اجتمعت بهنّ، ولكن الأمور الجميلة لا تظل تسلك ذات السبيل، فهي مضطرة للتوقف بإشارة من الحياة عند خط معين، ففي طريق العودة إلى قبرص، إلى حيث ولدي وزوجتي واصدقائي وبيتي، في المطار وبطريقة لا تخطر على البال، فوجئت بقرار موجود في المطار بمنعي من الدخول اليها، كنت لا أملك مالاً، ولا أي شيء، سوى دريهمات قليلة، فعدت على الطائرة الألمانية ذاتها، حزيناً، متفكراً، ومتفاجئاً من قرار لم يحدث معي قط في السابق.

twitter: @ketab_n

في الطائرة التي عدت فيها، امتثلت إلى الأمر الواقع، شربت بضعة كؤوس من الفودكا لكي استرخي وأستوعب المشهد الجديد والطارىء، وصلت الطائرة إلى العاصمة البرلينية، والطامة هذه المرة أني لا أمتلك فيزا للدخول كما جئت في المرة السابقة، كانت لدي أسابيع محدَّدة وانتهت، فما كان منّي وأنا في الطائرة العائدة سوى اللجوء إلى وثائق المهرجان والصور التي جمعتني ببعض المخرجين والمدعويين والصور التي التقطتها لهذه الندوة وتلك، وكان أهم هذه الوثائق بالطبع، شارة المهرجان "البادج" الذي كان معي وبرنامج المهرجان المطبوع في كرّاس صغير، شرطة الجوازات تفاجأت، ولكنَّها كانت مهذّبة معي وساعدتني بشكل لافت لم أكن لأتوقعه، فدخلت مرة ثانية إلى برلين، أخذت تاكسياً بما كنت أملك وذهبت إلى حيث يسكن صديقي الشاعر شريف الربيعي الذي أطال السفرة والبقاء في برلين لمدة شهر، طرقت الباب، لم أجد أحداً في البيت فأمَّنت الحقيبة عند البواب، وانطلقت إلى المقهى الكائن في قلب العاصمة، إلى "الرايزه بيرو" فوجدت قيس الزبيدي، ثم تقاطر إلى المقهى شريف الربيعي ومؤيّد الراوي وفاضل العزاوي، استدبرت أمري بالدَيْن، كانت برلين رخيصة في كلّ شيء، السكن والطعام والشراب والملبس، وهذه بالطبع من محاسن الإشتراكية، قضّيتُ الايام تلك في الضحك والتفكه والظرف والدعابات من قبل الأصدقاء، لقد تجاوزت الحالة نوعاً ما، ولكنَّني كنت في غاية الشوق إلى أطفالي وزوجتي والى الشمس والبحر والدفء المخملي والأصدقاء في قبرص، آنئذٍ

twitter: @ketab_n

تحرّكت زوجتي الإعلامية والصحافية إلى قلب القرار الفلسطيني هناك فوجدت وكما توقّعت أنّ وراء هذا المنع السافر مشكلة تتعلّق بالاقامة التي كانت تقف دائماً عائقاً أمام حياتي، و لم أتخلّص من هذا العائق الدائم الا في العاصمة البريطانية لندن التي منحتني كامل حقوق المواطنة.

حين عدت إلى قبرص حدثت بعض التغيرات في مجال عملي، ألا وهو خروجي من مجلّة "بلسم" والتحاقي بمجلة "فلسطين الثورة" لكن رئيس تحرير مجلة "فلسطين الثورة" رفض إدراجي ضمن ملاكه، تحت ذريعة ازدحام الملاك بالعاملين، فعرض عليّ الذهاب إلى "براغ" لم أقبل في البدء، هذا القرار المفاجيء والخيالي، ولكنّني وبعد تمحيص الأمر وتقليبه من عدة زوايا انصعت طواعية للأمر، لا بل كنت فرحاً في دخيلتي به، بعد حاسة شمّي النافذة التي رحت أتوقّع عبرها ما ستؤول عليه الأمور بعد عام أوعامين، فاتحت الصديق الشاعر سليم بركات الذي كان يعمل في المجلة بالقرار الجديد، أي الذهاب إلى تشيكوسلوفاكيا سابقاً، فأجابني سليم بأريحيّة الصديق المبصر بجملة لم تزل ترن في أذني "ربّ ضارة نافعة" إذا ذهبت إلى هناك.

كنت آنذاك، أحمل جوازسفر يمنياً، كنت أجدّده كلّ عام بالذهاب إلى دمشق، كانت إقامتي في قبرص، متعرقلة، لم أمنح الإقامة السليمة والصحيحة، ظلت طوال وجودي فيها، وهي فترة الخمس سنوات متخلخلة، مضطربة وغير مستقرة، مما عزّز دافع السفر لديَّ أكثر، مع تكاثر المشكلات وتكاثر هجرة العراقيّين

twitter: @ketab_n

الذين صرنا نسمع بلجوئهم إلى السويد والدانمارك وبريطانيا والنرويج وألمانيا وهولندا وكندا وبلجيكا وأستراليا.

كنت سعيداً وأنا وعائلتي في الطائرة، ولكنَّني من ناحية أخرى، كنت حزيناً أيضاً، خصوصاً وأنا ذاهب بهذه العائلة إلى مصير مجهول ومبهم وذاهب لأوّل مرة إلى بلد لا أعرف لغته وأهله ولكن كان لديّ بضعة أصدقاء كما هوالحال في كل بلد، وبضعة آمال غامضة ومضبّبة وينقصها الكثير من الوضوح والتدبّر.

twitter: @ketab_n

براغ

وصلنا فجراً إلى العاصمة التشيكية براغ، في المطار، أخذ الضابط يتفحّص جوازي اليمني، حينها ساورتني وساوس عدة وهو يقوم بهذا الإجراء الذي يقع بين الروتين والتثبّت من شيء، وحين مرّ وقت قال لي: أين تذكرة العودة ؟ وحين أجبته بأني لا أملكها، نهض من مكانه واتجه إلى مكان أمني آخر، الشرطة ورجال الحدود لا يختلفون عن بعضهم في كل مكان من العالم، الخشونة البادية في التصرف والسلوك، النبرة المتعالية، النظرات المتفحّصة والمتسائلة، كلها تجدها لدى هذا النوع من البشر، بعد قليل جاء وأنا كنت في حالة من القلق والاضطراب، ماذا لو أعادوني إلى نيقوسيا التي قطعت كل خيوطي معها، ومَنْ سيدخلني إلى قبرص؟ وأنا في وضع مَنْ ليس لديه أية إقامة أو فيزا أو عمل، مرّت الدقائق ثقلى وكأنها أيام تمشي مصفودة بحديد، بعد أن جاء وبلّغني بضرورة قطع تذكرة للعودة، كانت التذكرة التي جئت بها من قبرص تؤمّن المغادرة فقط من دون العودة، كانت مهنتي الجديدة هي مراسل لمجلّة "فلسطين الثورة" من براغ، آنذاك لم يكن لديّ ما أحمل من مال يكفي، لكنّي في المآل ابتهجتُ للقرار بقطع تذاكر العودة من

twitter: @ketab_n

دون اضافات أخرى، اشتريت تذاكر العودة، غبّ ذلك خرجنا إلى فضاء براغ بحقائبنا والطفلين ميمَّمين شطر المجاهل.

لبراغ مذاق خاص، آسر وساحر، خصوصاً في الصيف، حين ترى المقاهي وهي تنتثر كالورود، وتتفتّح فوق النواصي وبين الشوارع والمنعطفات، في هذه المدينة العريقة التي يعود تاريخ انشائها إلى قبل أكثر من ألف عام .

لا مريّة في القول، أنّ براغ متحف الضوء محفور في حجارتها ومتداخل في طيّات بنيتها العصرية والقديمة، إنّه النهر ينحت هذه العراقة في كلّ مواقع براغ ومواطئها، ولعلّ المقهى يقع دون شك ضمن هذه العراقة الفنية التي اصبحت تؤلّف من هذه المواصفات معلماً جمالياً، يُضاف إلى البنى والعلامات التي تتّسم بها هذه المدينة البوهيميّة الناعمة.

وبراغ إضافة إلى هذا بؤرة ضوء ثقافية ومرجل حضاري لانطلاق الموسيقى، ففيها دور للأوبرا،التي تعرض على الدوام الأعمال الموسيقية الكبرى، وفيها نشطت الحركة الطالبية، الساعية إلى الإنعتاق من الأغلال المفروضة، من الجارات التي تتميَّز بالأنظمة التوتاليتارية، تلك التي تحتكر الحقيقة، وتؤمن بالأحاديّة وتنبذ التعدّدي، وما "ربيع براغ" إلا امثولة لهذا الحراك الطالبي من أجل "الحرية الحرة" كما قال رامبو يوماً. الحركة الطلابية في براغ أصبحت المثال والنموذج لكلّ حراك طالبي يسعى إلى التغيير في العالم.

twitter: @ketab_n

هذا فضلاً عن تميّز براغ بدور المسرح، وصالات الشعر والفن التشكيلي التي تلوّن بطابعها مساحات واسعة من من هذه المدينة التي تكاد تغفو وتصحوعلى الفن وتشكيلاته الأخرى.

من هنا يأتي دور المثقّف فيها، فكاتب مسرحي من عيار فاتسلاف هافل جدير أن تختاره هذه البلاد رئيساً لها، لأنها تؤمن بقدرات الفنان والمثقّف والمبدع، إنّ للمثقف فيها دوراً، يمتاز بالإهاب والنظرة المرموقة والإجلال المتأتي من إبداعه الإنساني الذي لامس حواس عامة الناس وسبر غور مشاعرها، وعلى سبيل ذكر هذا التبجيل، فلقد ردّت براغ إلى فرانز كافكا الاعتبار الذي يستحقه صاحب "المسخ" و"القصر الكبير" و"المحاكمة" ردّت إليه الاعتبار كونه أحد رموز الرواية الحديثة في العالم، فهنالك تجد نصباً له، وتجد بيته الذي تحوّل إلى متحف يضمّ كل أعماله ومخطوطاته وأشيائه اليوميّة التي كان يتداولها خلال سنوات عيشه، من مستلزمات يوميّة.

في براغ الآن يعيش شاعر مشهور ومعروف على نطاق عالمي هو ميراسلوف هولوب، شاعر وطبيب كيميائي، ومن أشهر الشعراء الأحياء في العصر الحديث.

يمرّ في العاصمة براغ نهر" الفولتافا " وفي مقابل دار الأوبرا يقوم مقهى " سلافيا " وله واجهتان، الأولى تطلّ على دار الأوبرا والثانية تطلّ على النهر وعلى جسور براغ المرهفة ذات الامتداد الملكي والرومانسي وعلى القلعة التاريخية، لم أر مقهى في العالم

twitter: @ketab_n

يماثل جمال هذا المقهى، إنّه مقهى تسري في مقاعده وفي أركانه سطوة سحرية لا تجدها الا في مقاهي باريس، ولكن مقاهي باريس تتميَّز بصغر أحجامها، قياساً إلى مقهى " سلافيا " ذي الفخامة والعراقة ودقة الإنشاء والتصوير، فضلاً عن واجهاته الزجاجية وأروقته وحناياه الكثيرة التي تلتفّ على المقهى وتمنحه الدفء والخصوصيّة، ونوعاً من المسارة الروحية التي تربط الوافد بها، ثمّة ضوء سابغ في جدرانها، ولوحات تضفي على بهوها وسقفها طرازاً من البصمة الباروكية.

أحد روّاد هذا المقهى التاريخي، شاعر العربيّة الكبير محمد مهدي الجواهري، الذي أقام في براغ سنوات طويلة، من منافيه المتعددة والمتقطّعة والمتجددة مع الحكام والطغاة الصغار الذين قال فيهم: "أنا حتفهم ألج البيوت عليهم، أغري الوليد بشتمهم والحاجبا".

يتخذ الجواهري من المقهى مكاناً يداوم فيه من أجل لقاء محبّيه وسامريه ومعجبيه ومريديه في هذا المقهى كان يستقبل الجواهري أغلب الكتّاب العرب والأدباء والفنانين الذين كانوا يأتون إلى زيارة براغ، وفي هذا المقهى كتب الجواهري قصائده الشهيرة "بائعة السمك" و"سلام على هضبات الفرات" وغيرها من الروائع.

في إحدى المرات استدلّ إلى هذا المقهى صالح مهدي عمّاش، نائب رئيس الجمهورية في مطلع السبعينات، وهو أيضاً

twitter: @ketab_n

يقرض الشعر ولكن على الطريقة العسكرية، فقصائده مليئة بالمدافع والبنادق والرصاص وأزيز الطائرات، جاء إلى المقهى حين كان يقوم بزيارة رسميّة ومعه وفد كبير من الوزراء والضباط الكبار لزيارة الجواهري في المقهى، فهوالمكان الوحيد الذي يستطيع فيه رؤية الجواهري في مجلسه الأنيق والراقي هذا، والذي يستطيع أن يستوعب من يشاء من الوافدين.

خلال إقامتي في براغ كنت أتردّد على مقهى "سلافيا" ملاذ الكتاب والشعراء والفنانين، وكنت أجد فيه، الشاعر صادق الصايغ والكاتب عبد الإله النعيمي والصحافي قيس قاسم وبعض الكتاب والمخرجين والسينمائيين العرب.

ذات مرة كنت جالساً في المقهى وقد لفت انتباهي شخص غريب الأطوار، بين يديه ورق يكتب عليه ويكلّم نفسه، وحين لحظ هذا الشخص انتباهي له، نهض من مكانه واتجه صوبي، ليحدثني باللهجة السلافية، فلم أفهم عليه، حينذاك كنت أرتدي لباساً صيفياً كاكياً، وعندما وجدني مرتبكاً ولا أحسن الرد، ارتبك هو بدوره، وحار بأمره، فكلمني بالإنجليزية، ففهمت منه أنّه كان يحسبني شرطياً تشيكيّاً كنت أراقبه، ابتسمت له وقدّرت قلقه، قلت له: أنا انسان غريب، إنّني عراقي ومثلك أخاف من الشرطة، أنّى كان نوعها، وأضفت: أنا شاعر ولا أحبّ البوليس والرقابة وأجهزة الأمن والمخابرات، حينها اسقط في يده واعتذر مني، فكان يتصوّرني سائحاً وقد أساء معاملتي. وأردف قائلاً "أنا أيضاً شاعر والذي كنت أكتبه بين يديّ قصيدة، فانهمرت الدموع من

twitter: @ketab_n

عينيه وأخذ يعانقني وحين عاد إلى طاولته انحنى وكتب شيئاً، ثم جاءني وسلّمني أيّاه، في الورقة عنوانه ورقم هاتفه في المدينة الثانية "براتسلافا" التي ستستقلّ بعد نهاية حلف وارسو وسقوط جدار برلين والذي جاء سريعاً ومدوياً بعد شهور من مغادرتي العاصمة التشيكية.

بعد ذلك بأيام، رابطة الكتاب والأدباء العراقيّين أرادت أن تكرّمني فأقامت لي أمسية شعرية في براتسلافا، فقبلت الدعوة دون تردّد، بغية تغيير المكان والذهاب إلى مدن أخرى، تعدّ العاصمة الثانية لتشيكوسلوفاكيا الطريق في السيارة استقطع منا قرابة الثلاث ساعات، ولكنّها تصرّمت على عجل، وأنا صحبة اناس محبّين من أمثال رواء الجصاني، قريب الجواهري ونسيبه، الذي دعا للأمسية في دار الطلبة العراقيّين، كانت مناسبة متميّزة أن تقرأ لطلبة عراقيين، في مدينة بعيدة تكاد تلامس التخوم النمساوية، ففيها برج هوعبارة عن مقهى ومطعم، حين تكون فيه في الأعالي، ترى من هناك مصابيح المدن النمساوية المتاخمة لبراتسلافا التي كانت تحبل آنذاك ببذرة الحرية .

ثمة في براغ مقاه أخرى، لا تقلّ سحراً عن مقهى "سلافيا" خصوصاً في ساحة "المَوستيك" التي يقع فيها مقهى "براها" أي براغ، وهو مقهى يرتاده السائحون من أجل إمتاع النظر بالنادلات التشيكيّات، البارعات الجمال والرقة، ومن أجل الانغمار بفيوض الضوء المتساقط من الثريات الكريستالية النادرة التي تعرف فيها "تشيكيا" والمعني هنا الكريستال النقي، ذو الرنّة الخاصة، هذا

twitter: @ketab_n

فضلاً عن قدمها ورائحة الماضي التي تضوع في أركان المقهى وتختلط مع الحاضر الذي يضوع برائحة القهوة.

كنت جالساً ذات مساء صيفي مع صديقي الرسام عبد الإله لعيبي، في مقهى "براها" ذاته حين دلف إلى المقهى الجواهري، ومعه حفيدته، لقد تغيّرت ايام الجواهري، وذهب مجد مقهى "سلافيا" خصوصاً بعد إقامته في دمشق، فقد أخذ يتردّد على براغ بين الحين والآخر لرؤية أبنائه وأحفاده، في المقهى جلس الجواهري في أحد الأمكنة القريبة منّا، أوصى على مشروب، بعد أن داعب النادلة، فهو شخصيّة عامة ومعروفة لدى المشتغلين في المقهى، ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج علبة تبغ، وراح يدخن بشراهة، أدَمْتُ النظر إليه، وأخذت أفكر في هذه القامة الحادبة على التسعين عاماً، أفكر في هذا البوهيمي الكبير، جوّاب الآفاق، هذا الذي شغلت قصائده ومواقفه أجيالاً وحكومات ودولاً... هذا المترحِّل أبداً والقائل:

"خسئوا ملءَ فم الزمان قصائدي

أبداً تجوبُ مشارقاً ومغاربا"

هذا العمود الكلاسيكي العالي الفخامة، كلّما رأيته لا يذكّرني إلّا بشموخ المتنبّي وترحاله، وفخامة لغته وصدى حكمته الشعرية، وبينما أنا أسرّح نظري في قامة أبي فرات، أخذ صديقي الرسّام قلماً وورقة من حقيبته الكتّان، الشبيهة بلوحة عتيقة مدهنة بالألوان والزيوت ليرسم بورتريهاً جميلاً للجواهري الذي لطالما كان هدفاً للرسّامين بدءاً بجواد سليم وانتهاءً بالرسّام المبدع جبر

twitter: @ketab_n

علوان من الجيل الأحدث، أخذت الرسمة من صديقي، الذي وقّعها وكتب عليها التاريخ واليوم والسنة، من آب ١٩٨٩ حيث بقيت كنوع لتوكيد الذكرى وفحص الذكريات ومجاراة الذاكرة في تعقّبها للأزمنة والأحداث والتفاصيل البعيدة كهذا التخطيط البديع .

في براغ وفي ظلّة الحديقة من ضاحية "بجيك" كتبت ست قصائد قصيرة لا غير، خلال أقامتي التي امتدت إلى ستة شهور، وسرعان ما نشرتها في مجلة " الكرمل " التي ظلّت مواظبة على صدورها حتى رحيل الطاقم الصحافي العربي كلّه من العاصمة القبرصية نيقوسيا، في منتصف التسعينات من القرن الماضي.

twitter: @ketab_n

الفهرس

الشعر والتجربة ٧
الشعر والبحر ٢٥
الشعر والمقهى ٣٥
الشعر والحانة ٤٧
الشعر والسينما ٥٩
الشعر والكتب ٦٩
الشعر والموسيقى ٨٣
الشعر والمسرح ٩٧
الشعر والفن التشكيلي ١٠٥
الشعر وحامله ١٢٧
الشعر وإصداره ١٣٧
الشعر والفقر ١٤٧
الشعر والصحافة ١٥٥
الشعر والترجمة ١٦٩
الشعر والمنازل ١٧٧
منزل السيّاب ١٨٥
منزل لوركا ١٩٥
الشعر والشارع ٢٠٣
الشعر والسفر ٢١٥

twitter: @ketab_n

باریس ۲۱۷
بودابست ۲۳۱
برلین ۲۳۹
براغ ۲۴۷

twitter: @ketab_n

twitter: @ketab_n

لكلِّ مدينة ذاكرة، هي بمثابة الدعامة التي تستند عليها أيّة مدينة في العالم، فالمدن الفاقدة للذاكرة، هي ليست سوى خرائب أو مجرَّد خرائط و لم تُبْنَ بعد وتخرج من بين يدي معماري ومهندس، فالمدينة الناجزة هي ذاكرة مفتوحة على تواريخ وأزمنة وأحداث وفصول حياة أُترِعَتْ ذات يوم بشخصيات وخطوب وحوادث، وأُفْعِمت بانتصارات وتحوّلات شملت جميع بناها الثقافية والاجتماعية والسياسية، بحيث عزّزت من مكانتها التاريخية لتغدو هي الحياة والعالم، هي الكون لصفاء ذاكرتها وامتلائها بالقضايا اليوميّة والميثولوجيّة ذات الآماد البعيدة الموغلة في التكوّن الأوّلي للأسطورة ولتكوّن نور الأبجدية التي ستقف وقفتها الأبدية أمام الحضارات والأزمنة المعاصرة.

ISBN 284306204-7
9 782843 062049